بسم الله الرحمن الرحيم

تقديم

نحمد لله تعالى الذي رفع السماوات بغير عمد، وخلق الإنسان في كبد، وأمده بالعون والخير والمدد، ونصلي ونسلم على خير رسل الله، ورحمته المهداه. وبعد..

لقد شاعت بين الناس الكثير من المفاهيم الخاطئة عن الجن، جعلت منه مخلوقا من الكائنات الأسطورية. وتَصَور الناس أن الجن مخلوق يختلف عن الإنسان في الخَلق، فهو نوع آخر من المخلوقات.. خُلق من النار، ولكنه مكلف بعبادة الله تماما مثل الإنسان. وهو ليس مشهودا للعين ولا هو محسوسا للإنسان، غير أنه يستطيع أن يظهر في أي شكل يختاره.. حتى شكل الإنسان، مما يجعله يتزاوج مع الإنسان. وله قدرات خارقة حتى إنه يستطيع أن ينفذ إلى جسد الإنسان ويُسيطر عليه، كما أنه يستطيع أن يتسمّع إلى الملأ الأعلى في السماوات، ويستطيع أن يقطع المسافات الطويلة في لمح البصر. ومن الممكن تسخيره لنفع الإنسان.. أو للإضرار به، ولا يستطيع السيطرة

عليه إلا المتخصصون الذين لديهم من العلوم الخاصة بالجن ما يمكنهم من التعامل معه، أو من رجال الدين الذين يسيطرون عليه بقوة الإيمان وتخويفه من عقاب الله.

وقد اخترت موضوع الجن ليكون أول ما نعالجه في هذه السلسلة من الموضوعات التي اخترنا لها اسم: "أخطاء شائعة". وهو اسم سمعته من الصديق العزيز والأستاذ الفاضل عبد الفتاح عساكر.. الذي قضى عقدين من عمره في الإشراف على إصدار سلسلة من الكتب القيمة بعنوان: "مع القرآن الكريم.. رؤية مستنيرة لحقائق الإيمان والحياة". وتضم هذه السلسلة مجموعة كبيرة من البحوث بقلم كوكبة من العلماء وأصحاب الرأي وأساتذة الجامعات في مجالات مختلفة من العلوم والمعارف والموضوعات التي لا غنى لأي قارئ مثقف عن الإحاطة بها.

والغرض من تقديم سلسلة "أخطاء شائعة" هو أن نقدم للقارئ رأيا نرى صوابه، رغم أنه قد يختلف عما نشأ القارئ عليه من الآراء، بل قد يصطدم أحيانا بما تعود على سماعه واقتنع به. وما نقدمه هنا للقراء هو مجرد رأي.. لا نفرضه على أحد، فليس من حق أحد أن يفرض رأيه على الآخرين.. إلا إذا أراد أن ينحط إلى حضيض ممارسة الإرهاب الفكري. كذلك فإننا لا نزعم أن من لا يأخذ بما نسوقه من آراء فإنه يُعد من الكافرين وله جهنم وبئس المصير، فإن التكفير في زمن التفكير صار سلعة ممسوخة شائنة، لا يستعملها إلا من تردى في غياهب بئر الحرمان من

العقل والمنطق.. ثم أعوزته الحيلة فلم يجد في جعبته سوى فضلات من أدران السباب وفتاوى التكفير، فاختار التكفير بدلا من إطلاق لسانه بالشتم والهجاء. أما بئس المصير في جهنم.. فهذا ليس في أيدي البشر لكي يقرروه لغيرهم من البشر، ولكنه في يد العليم الخبير الرحيم الغفور الذي يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء وهو على كل شيء قدير، وليس من حق أحد أن ينازع الله تعالى فيما اختص به نفسه من حقوق.

ونحن حين نقدم رأيا.. فإننا لا نقدمه من فراغ، ولكننا نلتزم بما قال به كتاب الله، وبما صح من قول سيد البشر وخاتم النبيين ﷺ. فأما القرآن فهو وحي الله المتواتر الذي وعد الله بحفظه من كل نقص أو إضافة، ولكنه "حمال أوجه" كما أنه "خط مسطور بين دفتين.. لا ينطق وإنما ينطق به الرجال"، كما قال عنه سيدنا عليّ كرم الله وجهه، ومن هنا كانت هناك الكثير من التأويلات المختلفة، والتفسيرات المتباينة. ولو كان هناك تفسير واحد فقط لآي الذكر الحكيم لكان من الأَوْلى أن يخبرنا عنه من أُنزل عليه هذا الكتاب العزيز، ولكنه لم يفعل. وأما أحاديث الرسول ﷺ، فقد صنفها الفقهاء بين صحيح وحسن وضعيف ومنكر ..الخ، ومنها ما هو متواتر ومنها ما يُعد من الآحاد، وكل ذلك يتوقف على مدى صحة سلسلة الرواة الذين رووا تلك الأحاديث. ولهذا فقد اجتهد علماء السلف في التفسير والفقه والحديث وعلم الكلام، وتركوا لنا ثروة من كنوز

المعرفة. غير أنهم كانوا من البشر.. الذي قد يخطئ وقد يصيب. والاجتهاد أمر محمود.. يُكافَأ عليه المرء حتى لو أخطأ، فقد ورد إلينا عن رسول الله قوله إن من اجتهد وأصاب فله أجران، ومن اجتهد وأخطأ فله أجر واحد.

غير أن الأمر يزداد أهمية وخطورة حين نعلم أن الإيمان.. كما عرّفه الرسول ﷺ.. بضع وسبعون شعبة، أعلاها "لا إله إلا الله"، وأدناها إماطة الأذى عن الطريق. والمعنى المقصود من هذا القول هو أن الأساس الذي يقوم عليه الإيمان هو إيمان بأنه لا إله يستحق العبادة سوى الله تعالى، لأن الله وحده هو الذي يجمع في نفسه كل كمال، وهو الذي ينفرد وحده بكافة المحامد، وهو الذي يتصف وحده بجميع الأسماء الحسنى. وعلى هذا.. فإن كل رأي أو فكر أو تفسير يتعارض مع كمال الله تعالى، أو ينسب إليه أمرا يتناقض مع حكمته وقدوسيته، فلا بد أن يكون رأيا مرفوضا وفكرا خاطئا وتفسيرا مذموما. ونحن نرى أن الأفكار الشائعة عن الجن تتناقض تماما مع حكمة الله، وتتعارض كلية مع قدوسيته، وتجعل كلامه متناقضا مع بعضه البعض، كما تجعل أيضا كلامه يتناقض مع فعله كما يتناقض كذلك مع أقوال رسوله. وكل هذه أمور تتناقض مع مبدأ "لا إله إلا الله"، وتتعارض مع الإيمان بالله، وإذا فسد الإيمان بالله تعالى فسد كل شيء آخر، ولا عجب أن الفساد الذي استشرى بين المسلمين في العالم قد صار أمرا يأنف منه المسلمون أنفسهم قبل

غيرهم، ويودون أن يتخلصوا منه. ولكن لا سبيل إلى ذلك إلا بتصحيح الإيمان، وتصويب العقائد والأخطاء الشائعة.

والعالم اليوم يمر بمرحلة إعادة نظر.. وهذا ما يدفع البشرية كلها إلى التقدم والارتقاء. فإن إعادة النظر في كل أمر من أمور الحياة يؤدي إلى التحديث والتحسين والتجديد واختراع الأنسب وتقديم الأفضل واختيار الأحسن. وأما الجمود والتوقف فإنه يؤدي إلى التخلف والتأخر والانعزال والتقوقع والانحطاط والموت. ومن هنا فإننا نقدم هذه السلسلة من الموضوعات، راجين من القراء إعادة النظر فيما عرفوه وتعلموه وألِفوه. وفي النهاية.. فإنه من حق كل قارئ أن يختار ما يشاء من الآراء، وأن يتبنى ما أراد من وجهات النظر.. التي تجد صدًى في قلبه وتتفاعل مع وجدانه.

عسى أن يوفقنا الله تعالى فيما نأمله من تقديم رأي صائب، وفكر ثاقب، وأن يهدينا سبحانه حتى نستطيع أن نصحح الأغاليط الذائعة، وأن نصوب الأخطاء الشائعة.

❋❋❋❋

تحديد المفاهيم

قبل أن نبدأ في بحث موضوع الجن.. يجدر بنا أن نتفق على بعض الأمور ونحدد بعض المفاهيم التي لا غنى لنا عن الرجوع إليها والاستشهاد بها.

أولا.. إننا لا نستطيع أن نلتزم بتفسير معين من التفاسير المعروفة للقرآن الكريم. ولا يعني هذا أننا ننكر هذه التفاسير أو نرفضها، وإنما نأخذ منها ما نرى صوابه، ونترك ما لا نقتنع بصحته. فإن كتب التفاسير.. مهما كانت.. هي من تأليف واجتهاد علماء من البشر، وكل هؤلاء البشر.. مع خالص الاحترام لهم والتقدير لاجتهادهم.. يُؤخذ منهم ويُرد عليهم، وبالتالي.. فإن ما احتوته كتب التفسير لا بد بالضرورة أن يخضع لإعادة النظر.

ثانيا.. إننا نفضل أن لا نطلق اصطلاح "سُنة رسول الله" على مجموعة الأقوال التي جمعتها كتب الحديث، فإن "السُنة" هي الطريق أو المنهاج، وهي لفظ يتضمن الفعل والعمل. لذلك فإننا نعتبر أن سُنة الرسول ﷺ هي أعماله التي قام بها تفسيرا وتبيانا لما أمره الله تعالى من أوامر وما أنزل عليه من شرائع. ولهذا.. فإن السُنة النبوية الشريفة.. من هذا المنظور.. هي أمر قطعي ورد إلينا عن طريق التواتر.. تماما كما ورد إلينا القرآن الكريم، وإلا لما اصطلحت الأمة كلها على عدد الركعات في كل صلاة، وعلى ما يُقال في الركوع والسجود والقيام.

ثالثا.. إن مجموعة الأقوال التي تحتويها كتب الحديث تتضمن أقوالا منسوبة إلى الرسول ﷺ، اجتهد العلماء في تحقيقها والتثبت من صحتها فقاموا بتصنيفها. غير أن كتب الحديث هذه تم جمعها بعد مضي زمن طويل بعد وفاة الرسول، وهي تحتوي الغث والسمين، وفيها الصحيح وغير

الصحيح، ومنها ما قاله الرسول بنصه أو دُوّن عنه بمعناه لا بلفظه. ولذلك.. فإننا نرى أن المعايير التالية هي خير الوسائل للأخذ بهذه الأقوال والإفادة منها:

أ- الأحاديث التي تتفق مع كتاب الله العزيز هي لدينا صحيحة، حتى ولو صنفها العلماء على أنها ضعيفة أو منكرة أو غير ذلك. فإن الحديث المنسوب للرسول والذي يتفق مع كلام الله تعالى في القرآن الكريم لهو الحديث الصحيح الذي يجب العمل به، مهما كان تصنيف العلماء له.

ب- الأحاديث التي تحتوي على أنباء غيبية وشاء الله لها أن تتحقق هي لدينا صحيحة، حتى ولو صنفها العلماء على أنها غير ذلك، فإن الله تعالى.. بتحقيق النبأ الغيبي.. قد شهد على صدق الحديث الشريف، لأنه هو وحده عالم الغيب الذي يظهر على غيبه من يرتضي من رسول، كما يقول سبحانه:

﴿عَالِمُ الْغَيْبِ، فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾ (الجن:٢٦)

إن تحقق النبأ الغيبي الذي يحتويه حديث من أحاديث الرسول ﷺ لهو آية ودليل على صدق رسول الله، تؤكد على أنه تلقى هذا النبأ من الله تعالى. وإذا لم يصنفه علماء الحديث على أنه حديث صحيح.. فإننا نقول إن العلماء قد اجتهدوا في تصنيف الحديث قدر جهدهم حسب

القواعد التي وضعوها هم لتصنيف الأحاديث، ولكنهم مع ذلك فقد أخطئوا في تصنيف حديث حققه الله وشهد على صدقه. فمثلا.. هناك حديث يقول: "تفتحون مدينة يُقال لها قسطنطينية"، وقد تحقق هذا الحديث بعد مرور عدة قرون من وفاة الرسول ﷺ، وذكرته الكثير من كتب الحديث التي دُوِّنت قرونا عدة قبل فتح القسطنطينية. فكيف يمكن إنكار صحة هذا الحديث لمجرد أن بعض علماء الحديث قد لا يراه حديثا صحيحا بناء على ما وضعوه من قواعد وأصول؟

ج- الأحاديث التي تبدو وكأنها تختلف مع كلام الله تعالى في القرآن الكريم لا نرفضها مباشرة، وإنما يجب أن نحاول إزالة ما يبدو لنا أنه اختلاف، فلعل الاختلاف قد نشأ بسبب قصور في الفهم. وعلينا أن نفهم تلك الأحاديث في ضوء القرآن المجيد.. لا أن نؤوّل آيات القرآن لتتفق مع تلك الأحاديث. فإن أمكن إزالة الاختلاف كان الحديث صحيحا واجب الأخذ به، وإن لم نتمكن من إزالة الاختلاف بين الحديث وبين القرآن، فإننا نأخذ بالقرآن ونترك الحديث. فإنه من المستحيل أن يكون رسول الله قد قال شيئا يختلف مع كلام الله تعالى أو يناقضه.

د- الأحاديث التي صنفها العلماء على درجة أقل من الصحيح، ولكنها تتفق مع الأحاديث

التي ثبتت صحتها حسب المعايير الثلاثة السابقة، (أي حديث يتفق مع القرآن، أو حديث يحتوي نبأ غيبيا حققه الله تعالى، أو حديث كان يبدو أنه يختلف مع القرآن ولكن أمكن إزالة أسباب الاختلاف) فإننا نعتبرها صحيحة أيضا، رغم تصنيف علماء الحديث.

هـ- الأحاديث التي قد لا تتفق مع آيات القرآن الكريم، ولا تختلف أيضا.. لأنها تتناول أمرا من الأمور لم يتعرض له القرآن الكريم بالتفصيل الذي جاء في الحديث، فإننا لا نرفضها بالضرورة وإنما نجتهد في فهمها بما يتفق مع علو شأن رسول الله وسمو مكانته وحكمته. والكثير من الأحاديث عن الجن هي من هذا النوع.

و- جميع الروايات والأقوال التي تتعارض مع آيات القرآن الكريم، أو تلك التي تحط من شأن رسول الله وتضع من مقامه وتصم خلقه أو تنال منه بأية صورة كانت، فإننا لا نقبلها.. بل نرفضها رفضا قاطعا مهما كان تصنيفها. ونحمد الله تعالى أن علماء الحديث قد قاموا بواجبهم خير قيام، فلم تتلوث كتب الحديث بالسقط من هذه الأقوال، كما تلوثت بعض التفاسير.

إن أحاديث الرسول ﷺ، حتى ولو لم تكن في أعلى تصنيف لعلماء الحديث، فإنها أعز من أن نرفضها، وأصدق من أن نكذبها. وليست المسألة مجرد عاطفة الاحترام والود والمحبة لكلام رسول

الله، وإنما لأن تكذيب حديث نطق به لسان رسول الله هو تكذيب للحق. ومن الأحوط عدم التسرع في تكذيب أقوال رسول الله، لأن الأوْلى والأحق هو اتباع الحق. لقد جعل الله تعالى تكذيب الحق من الأعمال الأشد ظلما، كماجعله مُساويا لافتراء الكذب على الله، إذ يقول تعالى:

﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِالْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْكَافِرِينَ﴾ (العنكبوت:٦٨)

إنه من السهل إنكار حديث يبدو للوهلة الأولى كأنه يتعارض مع القرآن الكريم، ولكن بعد التفكير والتدقيق يتضح أنه لا تعارض ولا اختلاف بين الحديث الشريف وبين آيات الكتاب العزيز. فمثلا.. هناك حديث يقول: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول في النار"، قالوا: هذا القاتل، فما بال المقتول؟ قال : "إنه كان حريصا على قتل صاحبه".

وهذا الحديث يبدو كأنه يتعارض مع قوله تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِن بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ (الحجرات:٩)

فالآية تحض المؤمنين على مقاتلة الفئة الباغية.. التي اعتبرها الله تعالى من المؤمنين أيضا رغم بغيها. وبطبيعة الحال.. فلا بد أن يلتقي المسلمون بسيوفهم، فكيف يكون القاتل والمقتول في

النار، رغم أن الله وصف الطرفين بالإيمان، وأمر طائفة منهما بقتال الطائفة الباغية؟

نعم.. إنه من السهل القول بأن الحديث مكذوب، ولكن مع التدبر والتفكر في متن الحديث يتبين أن رسول الله ﷺ لم يقل: "إذا التقى المسلمون بسيوفهم"، ولكنه قال: "إذا التقى المسلمان بسيفيهما"، أي أن التقاتل هنا هو حدث منفرد، قد يكون وقع نتيجة شجار بين شخصين، فرفع كل منهما سيفه على الآخر، وكان كل منهما حريصا على قتل صاحبه. وهكذا يتبين أنه لا تعارض ولا اختلاف بين الحديث الشريف والآية الكريمة.

لقد حدث في الماضي أن تسرع بعض العلماء في فهم بعض الآيات الكريمة، وظنوا أنها تتعارض مع آيات أخرى نزلت بعدها، فقالوا إن أحكامها قد نُسخت. وفي عصر التنوير والتفكير.. تبين أنه لا نسخ في القرآن، وأقر بذلك الكثير من العلماء، إذ ما ظنه بعض علماء السلف تعارضا بين الأحكام، استطاع علماء آخرون أن يرفعوا التعارض المظنون ويوفقوا بين الأحكام. لذلك فإننا نحرص على ألا نكون من هؤلاء الذين يقفون أمام شفيع الأمة وهم في موقف المكذبين لما قاله. ومن هو ذا.. بين العلماء الأجلاء.. الذي يرضى أن يقف يوم الموقف العظيم في موقف المكذب لرسول الله؟

وأخيرا.. نود أن نلفت نظر القارئ إلى أننا اخترنا أن نذكر نص الآيات القرآنية الكريمة التي

نستشهد بها، وفي أعقاب كل نص نذكر اسم السورة ورقم الآية. وحيث إن بعض الناشرين للمصحف الشريف يعتبرون أن البسملة هي الآية الأولى في كل سورة تبدأ بها، والبعض لا يأخذ البسملة في الاعتبار عند ترقيم الآيات، لذلك فإن أرقام الآيات في المصاحف التي تعتبر البسملة هي الآية الأولى تزيد ١ عن مثيلاتها في المصاحف الأخرى. ولما كانت معظم المصاحف المنشورة في الدول العربية لا تضع البسملة في الاعتبار عند ترقيم الآيات، فقد اتبعنا هذا الترقيم، ونرجو من أصحاب المصاحف الأخرى إضافة ١ إلى أرقام الآيات المذكورة في هذا الكتاب.

كذلك فإني مدين للأخ العزيز والصديق الفاضل الذي افتقدت صداقته الغالية بعد أن اختاره الله تعالى لجواره.. الحاج محمد حلمي الشافعي، الذي علمني الكثير من علمه الواسع، وأفادني بالعديد من معارفه العميقة.. أقول إني مدين لهذا الإنسان العظيم بالشكر والامتنان على مادة هذا الكتاب التي كانت له سابقة وضعها في مجموعة من المقالات نشرتها له مجلة "التقوى" التي تصدر في لندن. رحمه الله تعالى، ورفع درجاته في جنة قربه ورضاه، وحشره في زمرة النبيين والصديقين والشهداء والصالحين، وحسن أولئك رفيقا.



الفصل الأول

الجن.. بين الحقيقة والخرافة

حينما خلق الله تعالى الكون.. جعل لكل شيء فيه قدْرًا وخوَاصّ تؤهله لتحقيق الغرض الذي خُلق من أجله. فالشمس خُلقت لإنارة الأرض وإمدادها بالدفء المطلوب لاستمرار الحياة، وأعطاها الله خواص إشعاع النور والدفء، والقرب من الأرض بحيث ينير ضوؤها هذا الكوكب الذي نسكن فيه. ولو كانت الشمس على بعد أكبر مما هي عليه لما أثر ضوؤها التأثير المطلوب لإنارة الأرض، ولو كانت أقرب إلى الأرض، لأثرت في الأرض إشعاعاتها الضارة تأثيرا سيئا.

إننا نرى هذه الظاهرة في كل المخلوقات التي تحيط بنا، سواء كانت من الكائنات الحية أو غير الحية. الجبال التي هي كالأوتاد لحفظ التوازن لها ثقل كبير يؤثر في اتزان الأرض.. الثعبان الذي يمشي على بطنه بغير أرجل له من العضلات ما يمكنه من الزحف بسرعة.. الحيوانات المفترسة التي تعيش على أكل اللحوم لها أنياب ومخالب وقدرة على الجري لاقتناص الفريسة.. الفيل الذي لا يستطيع أن يصل برأسه إلى الأرض له خرطوم يمكنه من التقاط الطعام والشراب.. الإبل والجمال التي تُستعمل في الانتقال والسفر في الصحراء تستطيع أن تعيش مددا طويلة بغير أن تشرب الماء،

وهي تتغذى على الأشواك والنباتات التي تنبت عادة في الصحراء.. وهكذا. حيثما ألقى الإنسان ببصره إلى ما حوله مما أبدع الله في خلقه، يجده دائما وأبدا قد أوتي من القوى والملكات ما يحقق الغرض الذي خُلق من أجله.

كذلك نرى أن الحيوانات تسلك في حياتها كلها نظاما خاصا لا يتغير ولا يتبدل ولا يتطور ولا يتقدم. فمثلا حين نلاحظ كيف يقتات الدب مثلا، نرى أنه يأكل اللحوم والنباتات.. يأكل ما يجده من النباتات يصلح لطعامه، ويأكل من اللحوم ما يستطيع أن يقتنصه. ولا تختلف طريق القنص عند الدببة أبدا.. فهي تتبع نفس الطريقة التي كان يقتنص بها الآباء والأجداد الدببة.. منذ مئات وآلاف وملايين الأجيال. الأسُود حين تقتنص فريستها تتبع أيضا نفس طريقة القنص التي كانت تتبعها الأسود منذ آلاف وملايين السنين. الأفيال تعيش في مجموعات وتربي صغارها بنفس الطريقة منذ أن وُجدت الأفيال. وهكذا.

فإذا نظرنا إلى الإنسان.. نراه يتميز على بقية المخلوقات الحيوانية التي لا تفعل شيئا سوى أن تعيش وتأكل وتتكاثر ثم تموت. فهو.. مثلا.. كالدب يأكل اللحوم والنباتات، ولكنه يزرع حتى يحصد، ويعيش على ما يحصده من نبات وثمار. وهو يقتنص الحيوانات التي يأكل لحومها، ولكنه يستأنس منها ما يمكن استئناسه. كذلك فهو يُطوّر طريقة الصيد والقنص كما يُطوّر طرق الزراعة

والحصاد.

الإنسان إذًا يتقدم ويُطوّر وسائل معيشته، ولكن الحيوانات لا تفعل هذا.. وإنما تتبع نفس أسلوبها في الحياة الذي اتبعته حين خلقها الله تعالى منذ ملايين السنين وحتى يومنا هذا. إن الأسُود لا تعقد مؤتمرا بعد عملية الصيد لتبحث في أحسن الوسائل لتطوير وتحسين الصيد لضمان اقتناص أكبر عدد من الحيوانات بأقل جهد ممكن. إنها لا تفكر في تحسين عرينها الذي تعيش فيه ولا أن تُزوده بوسائل تكييف الهواء حتى تقي نفسها شدة الحر. الإنسان هو الكائن الوحيد الذي أُعطي ملكة التحسين والتقدم نحو الأفضل، وهو حين يستخدم تلك الملكات استخداما رشيدا فإنه يسعد في حياته وينال راحة ونعيما، وإذا أساء الإنسان استخدام هذه الملكات.. فإنه يشقى في حياته ولا ينال سوى التعب والنصب والبؤس والشقاء.

ولا شك أن العقل الذي أوتيه الإنسان هو الذي جعله في هذا الموقف الذي يتميز به على كافة المخلوقات الأخرى. وبسبب هذه النعمة الكبرى التي وهبها الله عز وجل للإنسان.. فقد سخر الله له ما في السماوات وما في الأرض من مخلوقات وكائنات. حتى الملائكة.. سخرها الله تعالى لتنقل إلى من يختاره الله من بين البشر.. رسائله وشرائعه التي تقود الإنسان إلى طريق مستقيم.. يجعل من حياته في الأرض جنة وسلاما، وفي الآخرة نعيما مقيما. إنه العقل الذي من

أجله شرَّف الله الإنسان.. وهو العقل الذي به يستطيع الإنسان أن يعرف الله تعالى.

قال الله تعالى:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات:٥٦)

﴿إِنَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالحَقِّ فَاعْبُدِ اللهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ﴾ (الزمر:٢)

﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللهِ الإِسْلاَمُ ۞ ... ۞ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلاَمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ﴾ (آل عمران:١٩-٨٥)

﴿هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (الصف:٩)

﴿وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ رُوحًا مِّنْ أَمْرِنَا، مَا كُنتَ تَدْرِي مَا الْكِتَابُ وَلاَ الإِيمَانُ وَلَكِن جَعَلْنَاهُ نُورًا نَّهْدِي بِهِ مَن نَّشَآءُ مِنْ عِبَادِنَا وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ صِرَاطِ اللهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾ (الشورى:٥٢)

وتدلنا هذه الآيات الكريمة على أن الله تعالى قد حدَّد الهدف من خلق الجن والإنس، وحصره في أمر واحد.. هو عبادة الله؛ وأن الله أنزل على النبي محمد ﷺ كتابا يقوم على الحق، وقرره منهجا لعبادته؛ وأن كل منهج غير القرآن عند الله مردود.. لأن القرآن هو المنهج الوحيد الصحيح الذي يحقق عبادة الله سبحانه.. والذي يُخْلِص به العابد دينَه لله وحده، ويُسْلم إرادته

الكاملة له. وهذا المنهج الإلهي ليس لغير الله يدٌ فيه، فهو من عنده.. أنزله على رسوله محمد ﷺ ليكون نورا لهداية العباد إلى العبادة الحقة.. وليعرفهم الطريق الصحيح لتحقيق العبودية المرادة.

فالهدف من خلق الجن والإنس جميعا هو العبادة..

والمنهج الذي يحقق العبادة هو الإسلام..

والوسيلة لذلك هي العمل بما في القرآن المجيد..

والأسوة والبيان هما في اتباع رسول الإسلام محمد ﷺ، والعمل بسُنته وسُنة خلفائه المهديين من بعده.

والإخلال بشرط واحد مما سبق يحيد بالمرء بعيدا عن الغاية المطلوبة. وليس هناك عاقل عارف بالقرآن يماري في الحقائق المبينة آنفا..

ثم إن الله وصف القرآن المجيد بأنه كتاب ﴿لا رَيْبَ فِيهِ﴾، وحرص على تأكيد هذه الحقيقة منذ البداية، فأعلنها في مستهل سورة "البقرة". ومعنى ذلك أن هذا الكتاب مُنَزَّهٌ عما ينتقص شيئا من كماله.. لأنه تنْزيلٌ من رب العالمين.. الحكيمِ العليم الخبير.. الذي لا تفوتُه شاردةٌ ولا واردة.. الذي يعلم ما في السماوات وما في الأرض. فإذا قرأنا القرآن ودار بخلدنا معنًى يخالف ما ينبغي لكتاب الله من الكمال المطلق.. فعلينا أن نراجع أنفسنا لنعدِّل من فهمنا كي نصل إلى ما يتفق

والكمال. هذه حقيقة ينبغي ألا تغيب عن بالنا أبدا. فالقرآن بريء من أي عيب أو نقص؛ ضعفٍ أو خطأ؛ شك أو تناقض؛ تفكك أو تعارض؛ سهو أو كذب؛ حشو أو لغو؛ تفريط أو إفراط. لا شيء في القرآن من ذلك كله.. فهو كتاب مجيد؛ حكيم؛ عظيم.. من لدن أصدق القائلين.

حسنا.. فما هي إذًا تلك العبادة التي من أجلها خلق الله "الجن والإنس"؟ هل هي تلك الكلمات التي نتفَوّه بها عند النطق بالشهادتين؟ أم هي تلك الحركات الجسدية التي نقوم بها أثناء الصلوات؟ أم هي تلك الدراهم التي نبذلها في الزكاة؟ أم هي تلك الساعات التي نُحرَم فيها من الطيبات أيام الصيام؟ أم هي تلك الرحلة التي يقوم بها المرء إلى السعودية ويعود منها حاملا لقب "الحاج"، مع الكثير من الهدايا؟ أهذه هي العبادة؟ وأين الحكمة فيها ليُخلَق الجن والإنس من أجلها؟ تعالى الله الخالق أحكم الحاكمين!

إنه إذا ارتضى البعض أن تكون هذه الأمور الجسدية المادية هي وحدها العبادة التي من أجلها خُلقوا.. فهُمْ وشأنهم، ولكن العاقل لا يرتضي لنفسه هذا الهوان بعد أن كرَّمه الله وقال: ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ﴾. إنه إذا كانت هذه هي العبادة فإن المخلوقات الأخرى أقدرُ منا على القيام بها.. ونكون في مؤخرة الخلق درجةً وأهمية، ولا نكون جديرين بخلافة الله تعالى. ثم إن الله جلَّ وعلا غنيٌ تماما عن مثل تلك الأعمال. نعم، لقد قال لنا المصطفى ﷺ إن الإسلام بُني على الشهادتين

والصلاة والزكاة والصوم والحج؛ وإن هذه المظاهر للعبادة مطلوبةٌ مشروعة.. ولكن ليس لأنها هي الغاية، بل لأنها الوسائل التربوية لإدراك الغاية الحقيقية.. ألا وهي عبادة الله تبارك وتعالى. لقد سُمِّيَت هذه الشعائر عبادة لله من باب تسمية الشيء بسببه.. كأن نسمي الخبْزَ عيشاً لأنه ذريعة له.

هناك حديث قدسي مشهور يقول فيه رب العزة: "كنتُ كنْزا مخفيا، فأحببت أن أُعرف. فخلقت خلقاً، فتعرَّفت إليهم.. فبي عرفوني".

ومعرفة الله لا يمكن أن تكون معرفةً مادية.. كما تعرف فلانا بملامح وجهه وخطوط جسمه، لأنه سبحانه ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ﴾، كما أنه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.. وإنما يُعرَف الله تعالى معرفةً روحية عقلية. لذلك اقتضى الكمالُ الإلهي الرباني أن يكون من بين خَلْقه كائنٌ ذو ملكات عقلية روحية.. يمكن له أن يتعرّف بها على المحاسن الإلهية كما أعلنت عنها الأسماء الحسنى.. فيُعجَب بها، ويُشغف بها حُبًّا، وينفعلَ لها منجذبا إليها، ويسعى لاكتسابها وتَمَثُّلها في نفسه، ويتخلَّق بها قدر استطاعته، ويُقدِّرها ما وسعه حق قدرها، ويتغنّى بذكرها. هذا هو ما يُفهم من قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾.. أي أن الله كشف لآدم عن صفات كماله، وعلمه أسماءه الحسنى، ووهبه القدرة على استيعابها، ثم إشعاعها.. كما تعكس المرآة ما تستقبله من نور الشمس. لعل

الإنسان يستطيع أن يضع اسما من عنده لكل شيء من الأشياء المادية، أما أسماء الله تعالى.. فأنّى للإنسان أن يتعلمها بدون مصدر إلهي؟

هكذا يُعرَف الكنْز، وتُعرف جواهرُه الفريدة، ويتغنى العباد بحسنها وكمالها وجلالها، ولا يسع العابد إزاءها إلا أن يهتف من صميم قلبه ووجدانه:

"سبحان الله الملكِ القدوس العزيز الحكيم!...

سبحان الله وبحمده.. سبحان الله العظيم!"

فعبادة الله إذن تعني معرفته. ومن عرف الكمال والجمال المطلق أُعجب به و أَحبَّه، وحاول ما استطاع أن يصبغ نفسه بصبغته القدسية.. وأن يقترب من محبوبه قدر المستطاع. أليس هذا ما يفعله كل محب مع حِبه؟ هكذا ينفعل المحبُ الصادق لمحاسن محبوبه وسيده.. كما ينفعل الطريق لخُطَى السائرين حتى يتعبد لهم، ويصبح طريقا معبَّدا. وعندئذ يصير المحبُ عبدا من عباد الله، وتصبح نفسه مُعَبدة لخُطى الأسماء الحسنى. وتكون هذه العلاقة الرائعة شرفا وفخرا يتيه به العابد على سائر المخلوقات.. التي لم تُؤَهل لهذا المقام، ويكرّمه الله ويُسَخِّرُ له ما في السماوات والأرض، ويرفعه إلى مراتب وُدِّه ومحبته، ويصبح بذلك عبدا ربانيا.

وكلما نَهل العابدُ من هذا الشهد المصفى كلما ازداد حبا لربه، وشوقا إلى المزيد من وصاله

وقربه، فيزداد سعيا ونشاطا لإرضاء مولاه، فيزيده الله قربا ورفعة. وهكذا يمضي العابد في معراجه صُعُدا إلى ترقِّيات وكمالات.. درجة بعد درجة.. في مسيرة لا تنتهي.

هذا.. هو الهدف الذي من أجله خُلقنا.

وهذا.. هو الهدف الذي ارتضاه الله لنا.

وهذا.. هو ما أراده الحكيم العليم من وجود خليفة في الأرض.

ولا يحسبن أحد أن سائر المخلوقات – من غير الجن والإنس– تدخل في زمرة العباد. كلا، إنها جميعا مخلوقة لله خاضعة لأمره، لا تملك إرادة العصيان والمخالفة. إنها عبيد.. تسير وفقا للسنن التي قدّرها الله لا تستطيع منها فكاكا. وهي حقا تُسبِّح الله.. بمعنى أنها آياتٌ بيناتٌ على أن خالقها ومدبر أمرها إلهٌ ورب حق، مُتصفٌ بكل المحامد، منَزه عن كل النقائص. يرى ذلك كل ذي بصيرة فيسبِّح الله. أما الذين لهم عيون بلا بصيرة، وقلوب بلا إدراك.. فإنهم لا يفقهون تسبيح تلك الكائنات. وأما أولوا الألباب فإنهم يسمعون التسبيح في جنبات الكون، ولا حاجة بهم إلى لفظ أو صوت. إنهم يقرأون آيات الله في صفحات الخلق كله.. بغير كلمات أو سطور.

إن العباد هم أولئك الذين يختارون.. بإرادتهم الحرة.. أن يسيروا حسب المنهج الإلهي، وينشطون فيه، شأن المحب المشوق إلى إرضاء حِبِّه. ولهذا الغرض السامي.. الذي لا يدانيه غرضٌ

آخر، ومن أجل هذا الهدف العظيم.. الذي لا يتطاول إليه هدف آخر، وللوصول إلى هذا المقصد المقدس.. الذي لا يتعاظم عليه مقصد آخر، خلق الله الجن والإنس.

وجاء الإسلام.. ذلك الدينُ الذي ارتضاه الله للبشر، منذ أن كان على الأرض بشرٌ مدرك، جاء بمنهجه النهائي على يد خير البشر.. إمام الأنبياء وصفوة الرسل ﷺ.. ليضع اللمسات الجمالية الأخيرة التي تحدد معالم الطريق السوي إلى الله تعالى.. أي العبادة. ولقد تضمن المنهج القرآني، متلُوًّا في آيات القرآن، أو مُطَبَّقا في سُنة محمد المصطفى ﷺ.. كلَّ المبادئ والسلوكيات التي تُوَجه الإنسان في طريقه إلى الله تعالى.. تحدد له اتجاه المسير، وكيفية الخطو، والوسائل التي تُعينه على اجتياز الطريق في سعادة واطمئنان، وعلاقته برفاق المسيرة. كما حذره من المزالق التي قد يقع فيها، والمصاعب التي قد تعوقُ خطاه، ودلَّه على وسائل الوقاية منها.

وسار المصطفى ﷺ في مقدمة الركب.. أسوةً حسنة.. وإمامًا هاديا.. وسراجًا منيرا. وسار وراءه آلاف الأبرار والقديسين. فكانت الجماعة الإسلامية المحمدية الأولى، التي استنارت الدنيا بها، وقطعت بالإنسانية شوطا بعيدا. بل قفزت مرحلة هائلة في تلك الرحلة القدسية، وكانت بذلك خير أمة أخرجت للناس حقا وصدقا.. إذ حققت بنفسها وفي نفسها الغرض الذي من أجله خُلق الجن والإنس، وبفضلهم أشرقت الأرض بنور ربها، وأسمعت الدنيا تلك النداءات القدسية:

ومضى المصطفى إلى الرفيق الأعلى وقد أدّى الأمانة وبلَّغ الرسالة. ثم مضى من بعده قرنُه خيرُ القرون، ثم من يلونهم.. ثم من يلونهم. وبعدها اضطرب ركبُ الأمة الإسلامية، وخلف من بعدهم خلف مزق صفوفها فِرقا متناحرة، وشِيَعاً متنافرة. وحاد الناس عن المحَجَّة البيضاء، وانحرفوا عن الصراط المحمدي المستقيم، ومضوا يضربون في الأرض على غير هدى.

ولقد وفّى الله تعالى لهم بوعده.. فأقام لهم رجالا كانوا كنجوم السماء، يُرشدون السُّراة إلى الدرب الذي سار فيه المصطفى ﷺ وصحبُه الكرام. أولئك الرجال العظام الذين جدّدوا للأمة أمر دينها، ودَعَوْا أقوامهم إلى التزام الطريق المحمدي، وأن يستمسكوا كما استمسك بكتاب الله الفرقان، وأن يسلكوا مسلك نبيهم ﷺ. ولكن الكثرة الغالبة من الناس–وا أسفاه!– هامت في شِعاب الهوى لا تلوي على شيء.

ومضت القرون، وإذا بالأمة الإسلامية التي كانت شمسا تستضيء بها المعمورة، تُمسي غاربة في عين حَمِئة، وهوت إلى الحضيض بين أمم الأرض، وفقدت ما كان لها من عزة وكرامة. فانقَضَّت عليها الأمم تنهشها.. وصدق فيها تحذير المصطفى: "توشك أن تداعَى عليكم الأمم كما تداعَى الأكلة إلى قصعتها، قالوا أمن قلة يا رسول الله؟ قال أنتم يومئذ كثير، ولكنكم غثاء كغثاء

السيل". وباتت بلاد الإسلام خاوية من مؤهلات الخلافة: فلا تقدم ولا حضارة، ولا علم ولا خُلق، ولا عزة ولا أنفة. وباتت مثلا بشعا ينفر منه أهل الشرق قبل أهل الغرب.. ومثلا يضربونه للضعف والفوضى والتمزق والتسيّب.. لقد صارت غثاء كغثاء السيل.. تماما كما وصفها المصطفى ﷺ.

لقد فرَّطوا في نعمة العبادة، فحق عليهم ضياع نعمة الخلافة والعزة والتمكين التي وعد الله عباده.. الله الذي لا يخلف وعده حيث قال:

﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا، يَعْبُدُونَنِي..﴾ (النور:٥٥)

فهل قصَّر المسلمون في شعائر العبادة الظاهرية، فحجب الله عنهم نعمته؟

اللهم إن المساجد كثيرة عامرةٌ بالمصلين. وهم يحتفلون بشهر رمضان ويصومونه. وهم يحرصون على رحلات الحج والعمرة وينفقون عليها الملايين. وهم يُشَيّدون الجوامع والمساجد الفخمة ويُزيّنونها بأجمل الزينات ويفرشونها بأغلى الفرش والأبسطة. وهم لا يتركون مناسبةً دينيةً.. أو شبْه دينيةٍ.. إلاّ ويحتفلون بها أيّما احتفال. وهم يملأون وسائل الإعلام بالبرامج الدينية وتراتيليها! ولو

كانت تلك الطقوس والرسوم هي العبادة الحقة التي من أجلها خُلق البشر.. لكانت أمة المسلمين اليوم هي أعظم أمم الأَرض، ولما تركهم الله تعالى هكذا.. يبدون بين الأمم المتقدمة كأنهم وصمةَ عار على الإسلام!!

نعم، إن الله تعالى يبتلي الأمم كما يبتلي الأفراد.. فيختبرهم بنقص في الأموال والأنفس والثمرات. ولكن شتان ثم شتان ما بين الابتلاء والعقاب!! إن الابتلاء تجربة ربانية بنَّاءة.. يمر بها الأفراد والأمم. والذين يتمسكون فيها بالصبر والمصابرة، والثبات على بذل الجهد الصادق، ومضاعفة العمل البنّاء بما يجذب رضوان الله ويستدر رحمته.. أولئك ينجحون. فسرعان ما يرفع الله عنهم الغُمَّة، ويكشف عنهم الكرب، ويُبدّل حالهم إلى أحسن حال. ويخرج المؤمنون من الابتلاء أصلب عودا، وأشد إيمانا، وأهدى سبيلا، وأعظم تقوى، وأكثر قربا. فالابتلاء فرصة عظيمة، من أغتنمها فاز بالنجاح، وكانت عاقبته الفلاح، كما قال تعالى:

﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الأَمْوَالِ وَالأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ ۞ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا للهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ۞ أُولَئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُون﴾ (البقرة:١٥٥)

أما العقاب، والعياذ بالله منه، فهو نازلةٌ شديدة تصيب المنحرفين عن منهج الله. فإن لم يتنبهوا

لها ويدركوا مغزاها، وأصروا على زيغهم وصممهم وعماهم.. اشتد بهم البلاء، وزادت وطأته عليهم حتى يتردوا في هاوية الانحطاط والمذلة والهوان.

نعم، إن الابتلاء فرصة للمؤمن كي يزداد إيمانا وتشبثا بحبل الله، فيعود أقوى وأصلب وأفضل. أما العقاب فهو إذلال ومهانة، تُعَبِّر عن سخط الله وغضبه على من استحقوا العقاب. وما نجده اليوم واقعا بالأمة المنتسبة إلى الإسلام ليس من قبيل الابتلاء أبدا.. إنه عقاب شديد أليم مهين.. يصرخ بأن الله غاضب.. غاضب أشد الغضب.. وكأنه لم يعد يبالى بهذه الأمة.. وأنه بصدد أن يستبدل بهم قوما غيرهم، ثم لا يكونوا أمثالَهم. وقد اعترف الشاعر باستحقاقهم لما أصابهم فقال متحسرا:

رأى قضاؤك فينا رأْيَ حكمته أكرمْ بوجهِك من قاضٍ ومنتقم

حقا.. إن عقاب الله تعالى.. المعبر عن غضبه.. لاينْزل بالأمم خبط عشواء، تعالى الله عن ذلك. إنه لا يصيب أصفياءه.. الذين خلقهم لعبادته وليُظهِر فيهم محاسنه.. ولا يصيبهم بما يذِلُ أعناقهم، ويجعلهم فتنة للكافرين والملحدين. إن عقاب الله ينْزل في إطار رحمته وربوبيته.. فلا يحيق إلا بمن سدر في غيه بعد إرشاد كافٍ لهم وتحذير وإنذار. ولا ينْزل بالأمم إلا إذا عم فيها الفساد، وشارك فيه العامة والخاصة. ولا يصيب الأمم إلا إذا وضعوا أصابعهم في آذانهم.. واستغشوا ثيابهم

وأصروا واستكبروا استكبارا.

لقد تعرضت الجماعة الإسلامية الأولى.. بقيادة المصطفى ﷺ للهزيمة العسكرية.. وأصابتهم البأساء والضراء.. وزُلزلوا، وفر بعضهم لينجو بحياته. ولكن ذلك كله كان سحابة صيف سرعان ما انقشعت.. وبادروا يمدون أيديهم يمسكون بسبب السماء.. ويستغفرون ربهم، ويُصححون أخطاءهم، ويُصلحون أعمالهم. فانقلب الابتلاء نصرا يتلوه نصر، حتى أضاءوا الأرض بنور دينهم. أما أن يستمر الهوان والانحطاط يوما بعد يوم، وعاما بعد عام، وعقدا بعد عقد، وجيلا بعد جيل، ثم قرنا بعد قرن.. ويزداد الأمرُ سوءا كل يوم.. فذلك الغضب الإلهي.. وذلك المقت الإلهي.. وذلك السخط الإلهي.. وذلك ما يجب أن نتداركه.. فإن رحمة الله قريب لمن ﴿تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا ثُمَّ اهْتَدَى﴾.

ولقد عم الفسادُ شعوبَ المسلمين.. وشارك فيه الجميع، الغني والفقير، السيد والمسود. وعشّش الضلالُ والجهل والتخلف في عقول المنتسبين إلى الإسلام.. فلم ينجُ منه الخاصة ولا العامة. ونزلت بساحتنا المصائب من كل حدب وصوب فما أفقنا، وضربتنا الشدائد من كل نوع ولوْن فما استحْيَيْنا. وغرر بنا المغررون حتى لم نعد ندرك أننا نعيش في الدرك الأسفل من مستنقع التخلف.. فقد قالوا لنا إن بلادنا هي أم الدنيا، وإنها مهد الحضارات، وإنها صانعة التاريخ، وإنها

مهبط الرسالات السماوية، وعلى ترابها سار الرسل والأنبياء، وهي بلا شك كانت كذلك في عالم الأمس وفي الزمان الماضي. غير أننا استمرأنا أن نعيش في أوهام الماضي، وصرنا مخمورين بأمجاد الأمس، ولم نعد ندرك أننا نعيش في عالم اليوم وليس في عالم الأمس الذي ولى وانتهى، وأننا أصبحنا اليوم بين الأمم كالعجوز الذي أصابه المرض، وأقعده الشلل، وضربه الوَهن، وذهبت السنون بعقله وإدراكه، ولم يعد يستطيع الحياة إلا إذا أعانه الآخرون، ورغم هذا يتعالى عليهم بأيام شبابه التي ولت، وبقوته التي ضاعت، وبحكمته التي تلاشت، وبمجد أجداده الذين طواهم الزمن ودفنهم التراب. لقد خلقنا الله عز وجل في عصر التفكير والتنوير فجعلناه نحن عصر التكفير والتنفير. وأوجدنا الله تعالى في عهد التجديد وإحياء الدين، فأغمضنا عيوننا عن كل جديد لا ينسجم مع ما عرفناه ونشأنا عليه.. حتى ولو كان الجديد هو الصحيح. ورفضنا كل إحياء للدين لا يتفق مع ما وجدنا عليه آباءنا وأجدادنا.. حتى ولو كان في إحياء الدين حياة لنا وللأمة كلها. وصمَمْنا آذاننا عن سماع كل دعوة تختلف مع ما ألفناه وتعوّدنا عليه.. حتى ولو كان من يدعوننا يبتغي لنا الخير والهدى، وحتى لو كانت الدعوة لإعادة قدسية القرآن المجيد في القلوب والعقول.. وإخراجه من عالم الشعارات والغناء والارتزاق إلى واقع التطبيق والاتباع.. ولفت الأنظار إلى كمالاته وعلومه وحكمته.. وإزالة ما ألصقه به المبطلون من أعدائه.. والجاهلون المحسوبون عليه..

من ضلالات وخرافات. والحق.. إنه لو أحسن الناس فهْمَ القرآن الكريم لانفتح أمامَهم طريقُ العبادة الحقة.. الطريق المستقيم الذي لا يبرح المسلمون يطلبونه كل يوم.. ويرددونه في صلواتهم: ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾.

وبوسع الطبيب الروحي أن يُشخِّصَ في جسد الأمة الإسلامية عددا من الأمراض التي أنهكت روحها وجسدها. ومن أشدها ضررا على الأمة تلك المفاهيم الباطلة التي أعاقتهم.. ولا تزال تعوقهم.. عن الانتفاع الكامل بالمنهج القرآني، ودفعتهم بعيدا عن حبل الله المتين وحصنهم الحصين. وأدت تلك المفاهيم الباطلة إلى إصابتهم بمضاعفات مَرَضِية.. أنهكت قواهم وأضعفت مقاومتهم، وعجَّلت بسقوطهم الذريع الذي هُم فيه اليوم. ولكنهم للأسف الشديد لا يرتدعون.. وإن كانوا يصرخون، ولا يعملون.. وإن كانوا يرفعون الشعارات وبها يهتفون.

ولقد اخترنا في هذه المعالجة آفةً من الآفات العديدة التي تنخر في جسد الأمة الإسلامية.. وتُلوث عقيدتهم وتُشوه تفكيرهم. وهي من الأخطاء الشائعة.. التي شاعت بين الخاصة والعامة، تلك هي آفة سوء فهم حقيقة "الجن".

كانت الأقدار قد جمعت بيني وبين الصديق الغالي والأخ العزيز الحاج محمد حلمي الشافعي، فقد كنا نعمل سويا في حقول إحدى شركات البترول في جنوب سيناء. وبعد مصيبة ١٩٦٧

الشهيرة ووقوع سيناء في أسر إسرائيل، فرّقت بيننا الأقدار لبعض الوقت، فقد اتجهتُ للدراسات العليا في علوم الحاسوب، ثم انتقلت إلى أحضان كندا مهاجرا، بينما راح الصديق العزيز للعمل في بعض بلاد الإسلام بالقارة الإفريقية. وهناك.. وجد القومَ يكادون لا يتصرفون في أمر من أمور حياتهم.. حتى البسيط منها.. إلا بعد استشارة أحد عملاء الجن.. من المشعوذين والدجالين.. يُسمون الواحد منهم (فَكِي)، ولعل أصلها (فقيه). وقد تحداهم صديقي ليثبتوا صدقهم أمامه، ففضح الله دجلهم وفشلوا فشلا ذريعا، حتى اضطر أعوانهم إلى القول بأن صديقي ساحر ماهر، وهو يتحكم في نوع من الجن أشد مهارة من جِنّهم!!

وقد لا يخفى على أحد منا ما يمارسه الكثير والكثير من أهل الإسلام.. في بلاد الإسلام.. من طقوس وأفعال لاستشارة (الجن) في حل مشكلاتهم، والاستعانة بهم لقضاء حاجات مستعصية على هممهم السقيمة. بل لقد وصل الحال ببعض من ابتُلي المسلمون بهم من القادة والحكام أنهم لجأوا إلى هذا الأسلوب الزَّري.. يستفتون وسطاء الجن في مسائل الحرب والحكم والسياسة! وتعرفُ الدنيا ما تحقق على يد هؤلاء الخبراء في معاركنا ونكساتنا الشهيرة!!

وتخرج علينا الصحف بأنباء أبطال الرياضة الذين يلجأون إلى الجن حتى يعينوهم على ضرب الأرقام القياسية، والفوز على المنافسين في المسابقات الدولية والمحلية.. وليتهم حققوا شيئا!!

ونقرأ في مجلات دينية أن (فضيلة الشيخ الفلاني) أخرج الجن من جسد فتاة؛ وكان يكلمه ويعظمه وينهره أحيانا كي يستسلم وينصرف!

وها هي المطابع العربية تتمخضُ عن كتاب (من التراث!!).. تحت عنوان: (عجائب وغرائب الجان .. في السنة والقرآن).. لأحد قضاة عصور الظلام.. حققه محقق عصري.. زعم أن الكتاب يقدم الحقائق العلمية الصحيحة.. التي تقوم على الحجة والبيّنة والدليل الصادق. ولو أن أحدا من غير المسلمين ذا بقيّةٍ من عقل وفهم قرأ هذا الكتاب.. لفرَّ من الإسلام كما يفر السليم من المجذوم.

أما الكثرة الغالبة من المسلمين فإنهم يُعطلون عقولَهم لمرأى نصوص في الكتب، مع أن الكاتب أوردها في غير مناسبتها، وأوّلها على غير وجهها الصحيح.. فيصدقون تلك الترّهات، ويعتقدون بصحة هذه الخرافات. ولذلك لم نسمع عن أحد تصدى لتصحيح تلك الخرافات وتطهير عقول المسلمين من رجسها، إلا ما شذ وندر.

وقد يوجد بين رجال الدين والفكر من يعارض بعض الممارسات البدائية، ويرمي أهلها بالدجل والشعوذة، ولكن الكثير منهم في الواقع لا ينكرون ما وراءها من فكر وعقيدة.. وإنما هم يتهمون المحترفين لها بالكذب والتزوير. إن هؤلاء يعترفون بخرافة الجن وقدراتهم، ويعتقدون بالسحر وتأثيراته

الخفية، ومع ذلك يُكذِّبون المشتغلين بالسحر والمتعاملين مع الجن!! وبذلك يظن الناس أنه إذا كان أغلب من يزعمون استخدام الجن هم من المشعوذين الدَجالين.. فليس هناك ما يمنع أن يكون بعضهم من الصادقين.. ذلك ما دام هناك جن وسحر، كما يتخيل أولئك المعترفون بالجن والسحر من بين العامة والخاصة!!

ثم خرجت علينا السينما العربية بقصة تحت عنوان (الجن والإنس).. صَوَّرت فيها شيئا مما ينسبه الناس، بما فيهم بعض رجال الدين، إلى الجن من خوارق وعجائب. ومن الغريب أن بعض النقاد، ممن يشتغلون بالنقد الفني ولا علاقة لهم بالمسائل الدينية، عابوا على الرواية ما تحتويه من خرافة. ولكنهم بالطبع لم يُبينوا أين وجه الخرافة في القصة.. لأن ما كُتِب في التراث عن الجن أغرب بكثير مما جاء في الفيلم السينمائي.

نعم، هناك تناقض في عقول الناس. يؤمنون بالخرافات على أنها من الدين، ومع ذلك ينكرونها على من يمارسها من هذا المنطلق. والحق أن الباطل لا يثمر إلا باطلا، ولا تلد الخرافة إلا مسخا مُشوها.

إن العاقل يعترض على كل فكر ليس له سندٌ منطقي معقول.. ويعُدُّه فكرا هدّاما للعملية العقلية الإنسانية، فما بالُك إذا كان الفكرُ منتسبا إلى الدين؟ إنه يصير سُما زعافا يفتك بالقلب

والعقل.. فلا يستطيع العقل بعد ذلك أن يجد طريقه الصحيح إلى منهج الله تعالى.. وصراطه المستقيم.. إذ يبقى الفكر مكبّلا بهذا القيد، فتتعطل ملكة الفهم الصحيح عن الله، ويعجز الإنسان عن إدراك المقاصد الإلهية السامية، ويمضي الناس في ممارسات سطحية تُرضي المظهر.. ولكنها لا تُسمن ولا تغْني من جوع في المجال الروحاني. وتنتفخ جنبات النفوس بحشْوٍ فارغٍ كالوَرم الذي يحسبه الجاهل قوة وصحة.. وهو في حقيقته مرض خبيث وضعف قاتل!!

هناك ما يبدو كأنه انفصامٌ في شخصية الكثير من المتدينين!! في أمور حياتهم الدنيوية يحشُدون كل ما لديهم من ملكات البحث والتقدير والتمحيص والوزن والقياس.. أما في المجال الديني فهم مُقلدون، مستمسكون بتراث ورثوه. وهنا تتوقف عن العمل ملكاتُهم العقلية!! مع أنهم يقرأون في القرآن آياته الكريمة وهي تخاطب أولي الألباب، وتنادي قوما يفقهون أو يعقلون أو يسمعون أو يبصرون؛ ويعرفون أن القرآن يندد بأمم قالوا:

﴿بَلْ وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ﴾ (الشعراء: ٧٤)

ويلوم قوما صمُّوا وعمُوا، وحكى عن مصيرهم يوم الحساب حين يقولون نادمين:

﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ (الملك: ١٠)

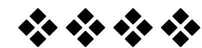
ولا شفاء اليوم من مرض (الشيزوفرينيا) الفكرية العقائدية إلا إذا أدركنا أن دينَنا الإسلام..

منهجُ حياة متكامل. إنه عبادة لله.. يتناول كل أنشطة الإنسان. إن أسماء الله ومحاسنه لا تنتهي.. ومن ثم فإن مجالات العبادة لا تقع تحت حصر.. والترقيات في معراج المنهج الإلهي لا تتوقف ولا تنتهي.. ما دام العابد يسير في هذا الطريق. وعلى ذلك.. فالعقلُ ومن ورائه الحواس والملكات.. تشارك جميعا بدورها الأساسي في العبادة.. أي في الحياة. وكلُّ عمل لا ينبع من عقل مدرك واع لا قيمة له من الناحية التعبدية، وإن أفتى المفتون بأنه "يُجزِيء" أو يُسقِط الفريضة!!

فالعمل لا يُقبل عند الله تعالى إلا بِنيّة، وما النيةُ إلاّ توجُه الفكر والوجدان. فالصلاَةُ إذن حركاتٌ فارغةٌ.. إلا ما وَعَى المصلي منها بعقله وقلبه. والصيام مجردُ جوع وعطش.. إلا ما استفاد الصائم منه سلوكا وأدبا. والصدقات مال ضائع مفقود.. إلا من إنسان مؤمن مدرك لمغزى ما يفعل ويريد به وجه الله تعالى. والحج رحلة لا طائل منها سوى اكتساب لقب وحمل بعض المشتريات.. إلا من عابد يقدم نفسه قربانا لله طاعة وإخلاصا. وكل عمل يفقد قيمته التعبدية إذا خلا من التعقل والإدراك والفهم والوعي. وحيث إن كلَّ عمل يدخلُ في نطاق العبادة.. فقد أمرنا المصطفى ﷺ أن نبدأه باسم الله. والحق.. إن الذي أرْدَى الأمةَ المنتسبة للإسلام إلى ما هي فيه اليوم.. هو فراغ العبادة من التعقل والوعي والإدراك، وفساد ما تؤمن به من خرافات وشعوذات، وأخطاء صارت شائعة حتى ظنها الناس من صميم الدين. ولعل أشد هذه الخرافات انتشارا بين

الناس.. هي خرافة وجود الجن.

وقبل أن يعجل علينا المتعجلون، ويتهمنا من يحلو لهم كيل الاتهام، ويظن فينا الظانون ظن السوء.. بأننا ننكر وجود الجن وقد جاء ذكره في القرآن الكريم.. نقول..، ونعلن..، ونؤكد: إننا نؤمن بكل ما جاء في القرآن الكريم، وبالتالي فإننا نؤمن بوجود الجن، ولكننا لا نؤمن بأن معناه بالضرورة هو ما يشيع في أذهان الكثير من الناس. إننا نرفض الفكرة الأسطورية والخيالية التي يعتقد بها أكثر الناس عن الجن، ونستنكر الصورة الشبحية للجن التي يتصورها معظم الناس. ونرى أن كتاب الله أعظم وأرفع وأسمى من أن يحتوي على أساطير وخيالات. وفي الفصل التالي سوف نتعرض لكل الآيات القرآنية التي جاء فيها ذكر الجن، ونقدم المعنى الذي نرى أنه يتفق ومكانة هذا الكتاب العزيز، ويتفق أيضا مع اللسان العربي المبين الذي نزل به هذا الكتاب الكريم.



الفصل الثاني
الجن.. في القرآن الكريم

إنه من المنطقي لتتبع موضوع (الجن) في القرآن الكريم أن نفتحَ المصحف الشريف، ونبدأ القراءة من بدايته.. ونتأمل كيف يتناولُ المسألتين: عبادةَ الله تعالى، وذِكرَ الجن والإنس. ومن المناسب هنا التأكيد على حقيقة جديرةٍ بكل اهتمام.. تلك هي أن القرآن المجيد تنزيلٌ من الحكيم العليم.. فهو ليس نتفاً من الآيات من هنا وهناك، لا يربطها رباط، أو لا يضمها نسيج متين.. مثل خواطر بعض البشر التي تقفز في عقولهم بلا ترتيب أو تبويب. حاشا لله! إنه كتاب محكم، ذو عناصر مترابطة مرتبة، فما جاء منها أولا فلحكمة جاء أولا.. وما جاء متأخرا فلحكمة ورد هكذا.

إن ترتيب الآيات والسور في القرآن الكريم لم يحدث عفوا ولا اجتهادا من أحد، وإنما كان جبريل هو الذي يخبر الرسول الكريم عن موضع كل آية ومكان كل سورة. وكان جبريل يُراجع ما نزل من القرآن مع رسول الله في كل عام مرة، وفي العام الذي انتقل فيه الرسول إلى الرفيق الأعلى، راجع معه جبريل القرآن بترتيبه الذي عليه مرتين. وكان من سُنَّة رسول الله أن يقرأ في

الركعة الثانية من الصلاة.. الآيات القرآنية التي جاءت في ترتيبها بعد ما قرأ في الركعة الأولى، مما يؤكد على أن ترتيب الآيات في القرآن ليس عفويا، وإنما هو ما شاء الله أن يكون.

■■ في مقدمة القرآن تأتي سورة (الفاتحة).. التي تفتح باب الكتاب الرباني.. باسم الله الرحمن الرحيم، وتكشف لنا من خلال رحمانية الله ورحيميته عن الغرض من تنزيله على بني البشر.. وتعلن عن مصدره الإلهي، وإطاره القائم على كمالِ الرحمةِ الربانية.

ثم تهتف: "الحمد لله رب العالمين". والحمدُ.. لفظ عربي قليلُ الأحرف، إلا أنه يجمع كل معاني الكمال والجلال! فكل ما يستوجب المحبة والإعجاب.. والتوقير والتعظيم.. والشكر والثناء.. بأكمل صورة وأصدق معنى.. هو لله تعالى. هذه هي المقدمة التي تَوَلّى الكتاب توضيحَها والتدليل عليها، ورسَم المنهج السليم لتحققها من خلال سوره وآياته. إنها الغرض الوحيد الذي من أجله خُلق البشر. وما تنزَّل وحيُ السماء.. وما يتنزل .. إلا لتحقيق هذا الهدف الأسمى.

ثم تعلن الآية الكريمة أن الوجودَ المستحق للحمد كلِّه هو الله رب العالمين.. كل العالمين، لا لصنف دون صنف. إن ربوبيته رعايةٌ وعناية، هيمنة وقوامة، رزق وتنشئة وحفاظ.. تظلل العوالم كلَّها: عالم الشاهد وعالم الغائب، عالم النبات وعالم الجماد، عالم الطير وعالم الدواب، عالم الرجال و عالم النساء، عالم الروح وعالم المادة، عالم الإنس وعالم الجن. كل ما في الكون من عوالم.. نعرف

عنها شيئا أو نجهلها بالمرة.. تدخل جميعُها تحت مظلة ربوبية الله تعالى.

■■ وتمضي آيات القرآن. وفي السورة التالية.. سورة (البقرة) نسمع أولَّ نداء قرآني.. وأول أمر من الله تعالى ذكره القرآن.. مُوجه إلى من يخاطبهم القرآن.. إلى من نزل لأجلهم.. إلى من خُلقوا لعبادة الله.. يقول النداء:

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ...﴾ (البقرة:٢١)

النداءُ للناس. والنداءُ توجيهٌ إلى عبادة الرب الخالق الذي خلق الناس لهذه العبادة. ولو كان القرآن يخاطِب خَلقاً غير الناس لكان من المناسب أن يوجِّه إليهم الخطاب ها هنا.. لأنه أول أمر عامٍّ بالعبادة. يترتب على ذلك أن المنادَى في هذه الآية –وهُمُ الناس– يشمل كل مكلف بعبادة الله عن طريق هذا القرآن. وعلى لسان نبي الإسلام ﷺ.

ثم تمضي سورة (البقرة)، أطوَلُ سور القرآن، حافلةً بآيات الله الدالة على ربوبيته وألوهيته الحقة، وتضعُ التشريعات المنظمة لحياة من يناديهم القرآن، وترسمُ الآداب الطاهرة التي تزكي العباد، وتبين الحكمة الإلهية السامية وراء تلك التوجيهات الربانية. ومن هم الذين يناديهم القرآن؟ إنهم الناس.. إنهم الذين آمنوا.. إنهم أهل الكتاب.. وليس من أحد سوى هؤلاء.

وتأتي من بعد سورة (البقرة) سور طوال: آل عمران، والمائدة، والنساء، إلى أن نصل إلى سورة

الأنعام.. ونكون بذلك قد قرأنا ما يقرب من ربع المصحف الشريف.. فلا نجده يخاطب أحداً من المكلَّفين بالعبادة واتباع المنهج القرآني أو يُشير إليهم إلا بمثل قوله تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ..﴾ (البقرة:١٨٤)

﴿كَمَآ أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولا مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ ءَايَاتِنَا..﴾ (البقرة:١٥١)

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الأَرْضِ حَلالا طَيِّبًا﴾ (البقرة:١٦٨)

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً﴾ (البقرة:٢١٣)

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ﴾ (النساء:١)

﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة:٣٢)

ويتحدث القرآن الكريم في سورة (آل عمران) عن صنفين من عباد الله: هما الذكر والأنثى، وكلاهما من البشر.. فيقول:

﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِّنكُم مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَى بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ (آل عمران:١٩٥)

وبذلك يقرر أن الفروق العضوية أو الاجتماعية بين الصنفين لا تفرّقُ بينهما في العبادة وتكاليفها وثمراتِها من ثواب و عقاب.. فكلٌّ منهما على قدر مسئوليته وبقدر جهده واجتهاده ينالُ نصيبه.

وينتفي بعدَ قوله تعالى: ﴿بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ﴾ الزعمُ أو الظنُ بأن الرجال قد فازوا بالنصيب الأوفى من التكاليف والجزاء، أو أن النساء حُرمن إلا من القليل. لا.. إن السورة تقرر أنهم جميعا في هذا الأمر سواء. الجميعُ مسؤولون عن الارتقاء والتقدم إلى الله عز وجل، ومدعوون للتخلق بأخلاقه والاتصاف بصفاته. والجميع محققون الهدفَ من خلقهم بقدر عملهم وتضحياتهم وثباتهم.

* * *

سورة الأنعـام

■■ وفي سورة (الأنعام)، بعد ربع القرآن، وبعد مئات من الآيات التشريعية والتعليمية والتربوية.. تأتي الإشارة في القرآن إلى نوع من المعبودات التي يؤلهها المشركون، وينسبونها إلى الله ظلما وجهلا فيقول:

﴿وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَآءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ١٠٠)

والشرك بالله تعالى جريمة نكراء، وسقطة شنعاء، يرتكبُها ويقع فيها الجاهلون بحق الله تبارك وتعالى، إذ يتخذون لأنفسهم أربابا يحمدونهم من دون الله، ويصفونهم بصفات الله.. وينسبون إليهم ما يُنسب إلى العلي القدير، ويعاملونهم بما هو حق له وحده.. فيخُصونهم بالطاعة والخضوع

المطلق، أو الاتّباع الأعمى.

ولقد تناولَت الآيات السابقة على هذه الآية بيانَ بعض نعم الله على الناس؛ إذ يقول تعالى:

﴿إِنَّ اللهَ فَالِقُ الحَبِّ وَالنَّوَى يُخْرِجُ الحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَمُخْرِجُ الْمَيِّتِ مِنَ الحَيِّ ذَلِكُمُ اللهُ فَأَنَّى تُؤْفَكُونَ ۞ فَالِقُ الإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ۞ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ النُّجُومَ لِتَهْتَدُوا بِهَا فِي ظُلُمَاتِ الْبَرِّ وَالْبَحْرِ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ فَمُسْتَقَرٌّ وَمُسْتَوْدَعٌ قَدْ فَصَّلْنَا الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَفْقَهُونَ ۞ وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِرًا نُخْرِجُ مِنْهُ حَبًّا مُتَرَاكِبًا وَمِنَ النَّخْلِ مِنْ طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهًا وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انْظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ۞ وَجَعَلُوا للهِ شُرَكَاءَ الجِنَّ وَخَلَقَهُمْ وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (الأنعام: ٩٦–١٠٠)

ولذلك نَعَتْ الآيات التالية على الظالمين منهم أنهم ينسبون لله شريكا يزعمون أنه ابن له!! والإشراك بالله تعالى ظلم عظيم لا يغفره الله الغفور الرحيم لمن أصر عليه وهلك دون توبة عنه. ذلك لأنه سفاهة تامة.. يُبطلُ بها المشركُ عقله.. والعقلُ أجلُّ النعم التي وهبها الله الخالق الوهاب

للإنسان، ليكون الأداة الفعالة لقيادة الإنسان إلى تحقيق الهدف من خلقه. فإذا هو حَرَم نفسه منها وعطلها.. لزِم أن ينال العقاب التربوي المناسب حتى يسترد هذا العقل.. ويعرفَ لربه حقَّه.. ويدرك جماله وجلاله، ويعلم يقينا أنه:

﴿بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ أَنَّى يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ۞ذَلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ، لآ إِلَهَ إِلا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ فَاعْبُدُوهُ. وَهُوَ عَلَى كُلِّ شِيْءٍ وَكِيلٌ﴾ (الأنعام: ١٠١-١٠٢)

وإذًا فالشريك المزعوم، والولد المدَّعَى.. ليس إلا وهماً باطلا، لا وجود له في الحقيقة والواقع إلا في خيال هؤلاء المشركين. وما هو إلا خيال كاذب من قُبيل تلك الأشباح التي توهمها البدائيون في عصور الجاهلية، وزعموا أنها تسكن الجبال والقفار. والواقع أن أحدا منهم لم يرها إلا بخياله المرعوب وبعينه الكليلة المذعورة. ولذلك أطلق القرآن الحكيم وصف (الجن) على تلكم الآلهة المتوَهمة التي لا حقيقة لها.. لأن لفظ (الجن) يُعبر أدق تعبير عن حقيقة وماهية تلك الآلهة. فكما أطلق البدائيون على الكائنات الخيالية التي لا حقيقة لها اسم (الجن)، وخافوها وزعموا أن لها من القدرات والسلطان ما تستحق به الطاعة.. كذلك سمّى القرآن باسم الجن.. هؤلاء الشركاء والأبناء المزعومين، الذين خلعوا عليهم صفات وقدرات لا تنبغي إلا لله تعالى، رغم عدم وجودهم

في الحقيقة والواقع، إلا في عقيدة هؤلاء المغضوب عليهم والضالين.

إن مادة (ج ن ن) في اللغة العربية تتضمن معنى الستر والاستتار. تقول المعاجم اللغوية:

جَنَّ الشيءَ يجُنُّه جَنّاً: ستره، وكل شيء سُتر عنك فقد جُنَّ عنك.

جَنَّ الليلُ: أظلم فستر المرئيات.

جَنَّه الليلُ جَنًّا وجنونا، أي ستره الليل.

وجَنَّ عليه يجُن وأجَنَّه: ستره.

جَنَّ الجنينُ في الرحم، استتر.

جِنُّ الليلِ وجُنونه وجنانه: شدة ظلمته، وقيل اختلاط ظلامه لأن كل ذلك ساتر.

والجَنَن: القبر والكفن لأنه يستر جثة الميت.

والجَنان: القلب لاستتاره في الصدر، أو الروح لأنها مستورة في الجسم.

والمجن: الترس والوشاح والحياء.. لأنها تستر من يستخدمها.

والجُنَّة: ما واراك من السلاح؛ السترة والوقاية.

وجِنُّ الناس: معظمهم.. لأن الداخل فيهم يستتر بهم.

وجَنان الناس جماعتهم وسوادهم، وقيل دهماؤهم.

وقيل الجِن: ولد الجان.. وهم الجِنة.

والجن خلاف الإنس.

والجِنَّة الجنون، وطائف الجِن.

والجِنَّة: طائفة من الجن.

والجَان هو الجن أو أبو الجن، اسم جمع.

والجن هم الملائكة.. قال الأعشى يذكر سليمان عليه السلام :

وَسَخَّرَ مِنْ جِنِّ الملائِكَةِ تِسْعَةً   قِيَامًا لَدَيْهِ يَعْمَلُونَ بِلا أَجْر

وقوله جن الملائكة أي الملائكة الجن يعني الملائكة المستترة.

فكل ما استَتَرَ أو خَفِي أو نأَى فهو جِنّ.. وأيضا كل ما أَخْفَى أو سَترَ أو غَطَّى أو غَلَبَ على غيره فهو جن. فمثلا:

جِنُّ الشباب أوَّله، وجدّته ونشاطه.. لأنها الصفات الغالبة عليه. وجِنُّ كل شيء أول شداته. وجِنُّ المرح كذلك. يقال: خذ الأمر بجِنِّه أي حدثانه.

وجِنَّ النبت: زهره ونوْره.. لأنه يجذب الأنظار إليه فيكون المظهر الغالب على النبات، فكأنه يستره. وجُنَّ النبتُ جنونا غلُظ واكتهل. وجُنَّت الأرض جاءت بشيء معجب، وإذا أعتم نبتها.

وجُنَّ الذباب: كثر صوته وترنمه.

وجنون النبت طوله والتفافه، وجنون السنام تموكه وطوله. والجَنَّة الحديقة ذات الشجر والبستان.. لأن أشجارها تستر الأرض. والجنة في الدار الآخرة هي مقام المؤمنين الذي أخفيَ ما فيه من قرة أعين.

والجان: الحية.. لسرعة اختفائها أو لاستتارها عادة.

فالتميز والشدة والعنفوان جنون.

وعلى ذلك يمكن تلخيص معنى (الجن) فيما يلي:

١) كل ما من طبيعته الاستتار والاستخفاء عن العيون أو عدم اختلاطه بالناس والعامة.

٢) كل ما من صفاته أن يستر غيره.

٣) كل ما من شأنه أن يلفت الانتباه ويجذب الأنظار.

٤) كل ما يتميز على أقرانه.. إما لاستعلائه أو لتكبره أو لمهارته في أمر من الأمور.

ولقد أطلق الناس في زمن الجهالة الأولى اسم (الجن) على كائنات وهمية زعموا أنها موجودةٌ في الأماكن النائية عن العمران، وحسبوا أن ما تحدثه الرياحُ من زمجرة وعويل هو من أصواتها، وتوهموا أن ما يتراءى لعيونهم المجهدة الخائفة هو من أشباحها. ولقد علمنا أن اللغة العربية تستخدم مادة

(ج ن ن) للتعبير عن كل ما من شأنه أن يستُر أو يستتر أو يجذب الأنظار (أو بلغة السينما: يسرق الكاميرا). وهكذا حُق للقرآن أن يطلق وصف الجن على تلكم الآلهة: لأنها وهم خيالي خفي عن عيون المشركين بل وعن الوجود كلية، وذلك دلالة على مدى ما في الإشراك بالله من زيغ وضلال وبطلان. لقد أطلق البدائيون اسم الجن على خيالات زعموا وجودها بغير علم ولا سلطان ولا تحقق، وهكذا فعل الجاهليون إذ زعموا أن في السماء أو في الأرض أبناء وبنات نسبوها إلى الخالق عز وجل.. نسبوها إليه بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير!! فهي كائنات جديرة بوصف (الجن) حقا وصدقا. إن الآية القرآنية تعني بقول ﴿شُرَكَآءَ الجِنَّ﴾.. أنهم شركاءٌ من صنع الجهل ونسج الخيال وتجسيد الأوهام، وليس لها وجود حقيقي.

وتعالى الله أن يكونَ له من تلك الأباطيل المنتَحلة شريك، فإن مظاهر قدرته وعظمته، ودلائل جلاله وكماله تملأ الكون كله. تعلن أنه السبوحُ القدوس.. المنَزهُ عن أي نقص.. المتصفُ بكل حُسن. إنه تبارك وتعالى غيبٌ لا تدركه الأبصار، ولكنه مشهودٌ للعقل.. منظورٌ بالبصيرة.. يُرى في آياته، ويُسمع في مخلوقاته. أما تلك الشركاءُ المزعومة فما أعجزها وما أقبحها! ألُوهيتها لا يقبلها عقل سليم، ولا يشهد لها واقع قويم. إن الله هو الإله الحق.. ومع أنه حق كما قال:

﴿لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الخَبِيرُ﴾ (الأنعام:١٠٣)

فقد تحدث إلى خلقه، وبيَّن لهم طريقَ الهداية والرقي، بما يشهد له أنه: الحيُ القيوم.. الخالق القدير.. اللطيف الخبير. وشتان ما بين الغيب والوهم. فالغيب موجود فعلا وإن خفي عن الحواس الجسدية، لأنه إنما يدرك بالملكات المناسبة المؤهلة لإدراكه.. الملكات الروحية من فكر وقلب. أما الوهم فهو عدم.. يخترعه الخيال السقيم.. في غيبة العقل السليم.

وتمضى آيات سورة (الأنعام) تلومُ أولئك الذين ينصرفون عن آيات الله، وينساقون إلى الشرك.. فيعبدون آلهةً ليس لها حضورٌ في عالم الواقع، وما هي إلا خيالات في أذهانهم المشوَّشة، يصرون عليها ويضللُ بعضهم بعضا بقول مُزخرفٍ ولكنه زورٌ وباطل، يقاومون به دعوات الإصلاح والهداية التي يأتي بها أنبياء الرحمن. تقول الآية:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنسِ وَالجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا. وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ مَا فَعَلُوهُ. فَذَرْهُمْ وَمَا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام:١١٢)

وكلمةُ (شياطين) جمعُ شيطان من مادة (شَ يَ طَ)، يُقال شاط يشيط شيَطانا أي احترق وهلك، وشيْطان على وزن فعلان أي شديد الهلاك. ويقول بعض العلماء أن شيطان من مادة (ش ط ن)، وتعني البُعد، يقال شطنت الدار: بعدت، وشطن عنه: خالفه عن قصده ووجهته. فالمؤثِّر الذي يُبعِد الإنسان عن الحق والخير، وينأَى به عن الهدى والصواب، وبالتالي يتسبب في هلاكه..

يُسمّى شيطانا. والمؤثر الذي يسعى ليغُيِّر وجهة المرء من طريق صالحٍ إلى طريق فاسد أو أقلّ صلاحا هو شيطان. ومثلُ هذا المؤثر المضلل قد يأتي الإنسان من الخارج أو ينبعُ من داخله. فشيطان الخارج قد يتمثل في دعوة من شخص فاسد، أو إغواء من إنسان فاسق، أو تزيين من صديق ماكر. وقد يكون شيطانُ الباطن كامنا في شهوة أو عاطفة أو غريزة أو رغبة أو عقيدة أو ظنٍّ أو حاسة أو فكرة أو خاطر أو نحو ذلك.

وإذا كان المؤثر المحرِّضُ بشراً سُمي (شيطان الإنس)، وإذا كان المؤثر خفِيًّا في داخل الإنسان سُمي (شيطان الجن). والشيطان الذي يقف في طريق دعوة الأنبياء إما أن يكون شخصية كبيرة.. أو بتعبير العصر: "شخصيةٍ قيادية".. فإنه يُدعى في التعبير القرآني (شيطان الجن).. ذلك لأن هؤلاء الكبراء يتصفون عادة بالكِبْر الذي يجعلهم بمنأى عن عامة الناس. وقد يكون مناهضوا الأنبياء من عامة الناس.. أو "الجمهور" بتعبير اليوم.. فيسمّى (شيطان الإنس).

ولفظ (شيطان) اسمٌ وصْفي.. وليس عَلَمًا على أحد بعينه. قد يكون الشيء شيطانا في موقف، ولا يكون شيطانا في موقف غيره. فشعور الجوع مثلا يدفعُ المرء إلى طلب الطعام.. وهذا عملٌ مشروع، فإذا دفع الإنسان إلى تناول طعام محرّم أو ضارٍّ بصحته.. كان الجوعُ أو طلبُ الطعام في هذه الحالة شيطانا. وكذلك التفكير في شؤون الحياة وأمور العمل واجبٌ على كل إنسان، ولكن

إذا شغله ذلك عن الانتباه في صلاته مثلا كان ذلك التفكير شيطانا. وكأن الآية الكريمة تبين أن المشركين.. إذ يتبعون سدنة الأصنام وكهنة المعابد.. ويعبدون تلك الآلهة الباطلة، يكونون قد انشغلوا عن دعوة الحق التي أتاهم بها نبيهم من عند الله تعالى، وهم بتصرفهم هذا المتسم بالحمق يبتعدون عن الصراط السوي. وجدير بهم أن يُسَمَّوْا (شياطين الإنس).. فكلهم مشارك في الفساد، يُغري بعضهم بعضا بباطل من الأماني التي لن تجديهم نفعا، والله تعالى قادر على أن يزيحهم من طريق الدعوة، ولكن اقتضت مشيئته أن يكون للبشر حريةٌ وإرادة.. يختار بها العبادة عن رضىً واقتناع، وأن يعصي أو يكفر برغبته. والجزاء يأتي بعد فرصة الاختيار والتفكير والتجربة. ويكون الارتقاء والنعيم لمن أحسن الاختيار، والحسرةُ والعذاب الأليم لمن عطّل ملكاته وعقله فأساء الاختيار.

أما موقف النبي ﷺ من هؤلاء الشياطين جميعا فيتلخص في أمر الله تعالى ﴿ذَرْهُمْ﴾ أي دعهم ولا شأن لك بهم بعد التبليغ. وإذا كانت مشيئة الله أن يتركهم أحرارا يختارون الإيمان أو الكفر فليس للنبي أو غيره أن يتجاوز حد التبليغ.

لقد حكى القرآن عن كثير مما جرى بين الأنبياء.. ومنهم المصطفى صلوات الله عليهم جميعا.. وبين أقوامهم. وأوضح أن المعارضة لمنهج الله.. والمقاومة لدعوة الأنبياء.. كانت في كل مرة تأتى

أول ما تأتي من جانب ﴿الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا﴾. هؤلاء غالبا ما يجدون في أنفسهم من جموح الغرور ما يدعوهم للاستكبار والإباء والنفور من قبول النصح. إنهم أصحاب السُلطة والجاه والمال.. وهم المنتفعون قبل غيرهم من غلبة الجهل وانتشار الفساد.. حيث ينعمون معاً بعائدات المنصب ومكاسب الجاه. وهم القادرون.. بسبب مراكزهم القيادية وسلطانهم الديني.. على أن يزخرفوا القول لضعاف النفوس وقليلي العلم من أتباعهم.. ليسيروا خلفهم في معارضة الدعوات الإصلاحية؛ ويبذلون في سبيل ذلك كل ما في وسعهم من قوًى مادية، وما تفرزه نفوسهم الجشعة من أباطيل وافتراءات.

والتاريخ لا ينسى كهنةَ اليهود الذين كذّبوا عيسى عليه السلام، ورموه وأمه الصديقة بكل فرية وإفك. ولا ينسى زعماءَ قريش من أمثال أبي لهب وأُبَيّ بن خلف.. الذين اتهموا الصادق الأمين ﷺ بالكذب والجنون والسحر. وفي المدينة.. وقف صاحب الْمُلك الضائع والزعامة المفقودة.. شيخ المنافقين عبد الله بن أبيّ بن سلول.. وراء المؤامرات والفتنة، يحرض العامة على محاربة النبي وافتراء الكذب عليه، والتطاول على شرفه الرفيع بالزور والبهتان.

إن الآية القرآنية تناولت هذا النوع من البشر.. ووصفتهم بأنهم شياطين، وصنَّفتهم صنفين: دعاة الفساد وزعماء الفتنة وهم "شياطين الجن"، وجهلة العامة ممن يمشون مغمضين خلف كلِّ

زاعق وناعق.. وهم "شياطين الإنس". هذه عادة البشر في القديم والحديث.. كل دعوة صالحة يقف لها شياطين الجن والإنس بالمرصاد.. والله من ورائهم محيط يحصي عليهم فعالهم.. ويُفسِد عليهم مكرهم.

ويُلاحظ في الآيتين السابقتين أن القرآن الكريم استعمل كلمة (جن) في معنيين مختلفين.. ولكنهما يحملان ظلالا لما تدل عليه مادة (ج ن ن) من الخفاء أو الإخفاء.. كما هو وارد في قواميس اللغة. والقرآن الكريم نزل على العرب بلغتهم، بيد أنه يتميز بأسلوب خاص، يجعلُ له مبنًى وجرْسًا فريدا.. أكسبه تلك الخصائص البلاغية التي عرَفها له العرب، وسلموا له بأنه القمة في البلاغة وجمال الصياغة. ومن سمات الأسلوب القرآني أنه يستعمل ألفاظا عربية ذات دلالات معينة، فيسبغ عليها استعمالات حديثة اصطلاحية.. ويكسبها معانٍ قرآنيةً إسلامية خاصة.. ومع ذلك يبقى لها بعض دلالتها الأصلية وتعكس ظلالها.

ولنتأمل مثلا كلمة (الصلاة)، فهي كلمةً عربية تعني التوجه بالدعاء والمناجاة إلى الإله المعبود. ولقد استعملها القرآن المجيد بهذا المعنى أحيانا كما في قوله تعالى:

﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن تَزَكَّى ۞وَذَكَرَ اسْمَ رَبِّهِ فَصَلَّى﴾ (الأعلى:١٤)

وسورة الأعلى من أول ما نزل من القرآن، وكلمة (صلّى) تعني هنا: دعا ربَّه وتوجه إليه كلما

تذكُّر صفات الله تعالى.

واستخدمها القرآن بمعنى الدعاء كما في قوله تعالى:

﴿... وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ﴾ (التوبة:١٠٢)

ولمَّا شرع الله فريضةً تعبدية تشتمل على ركوع وسجود ودعاء وتسبيح وتكبير.. سُمِّيت في القرآن باسم (الصلاة). يقول القرآن:

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلاةِ مِن يَوْمِ الجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلى ذِكْرِ اللهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۞ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا في الأَرْضِ...﴾ (الجمعة:٩)

فالصلاة هنا هي الصلاة الاصطلاحية بشروطها ومواقيتها المحددة.

ولما كانت نظرةُ الرضا من الله العلي الكبير ترفع منْزلةَ العبد وتُقرّبُه من رحمة الله وإحساناته، فكانت بذلك بمثابة الصلاة المقبولة من العبد الصالح.. أطلق القرآن عليها اسم (الصلاة) في قوله تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي يُصَلِّي عَلَيْكُمْ وَمَلائِكَتُهُ لِيُخْرِجَكُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلى النُّورِ...﴾ (الأحزاب:٤٣)

والملائكة تحمل البشرى للمؤمنين فتُطمئن قلوبَهم، وتشرح صدورهم، وتبشرهم بقربهم من الله تعالى.. لذا ذكرت الآية السابقة فعل الملائكة هذا باسم (الصلاة)، عطفًا على ما قبلها. ولا يليق

بعاقل أن يتصور صلاة الله تعالى على أنها دعاء للمؤمنين، أو أن صلاة الملائكة ركوع وسجود كما يفعل البشر. ولو دار بذهن أحد شيء من ذلك لوقع في أمور لا تجوز في حق الله تعالى، ولا تصح بالنسبة للملائكة، ولأفسد على نفسه فهْمَ معنى الآية القرآنية، وضيَّع فرصة الانتفاع بها.

وهناك الكثير من الكلمات العربية التي استعملها القرآن لدلالات خاصة، ولم يُرِد تماما المعنى الأصلي الذي استعمله العرب الجاهليون؛ ولكن ظلال المعاني لا تزال تشع في الاستعمال القرآن الجديد. من هذه الكلمات: الساعة، القيامة، البعث، الأُولى، الآخرة، الحياة، الموت، الزكاة، الهجرة، المعصية، الشهادة، الصدقة.. وغيرها كثير.

ولفظ (الجن) من الكلمات التي وردت في القرآن الكريم مرات عديدة، لتؤدي من المعاني ما يحمل ظلالا من مادة الكلمة، ولكنها لا تتفق أبدا مع المفهوم الخرافي الذي شاع بين المتخلفين من أهل البادية ومن أخذ عنهم.

ولقد رأينا من الآيات السابقة في سورة الأنعام كيف أن كلمة (الجن) تعني الآلهة الخيالية المزعومة والمتوَهمة والتي لا وجود لها في الحقيقة، وتعني أيضا فريقا من البشر المتميز بموقعه الخاص بين قومه.

ونوالي النظر في الآيات القرآنية لنتعرف على استعمالات الكلمة في المواقف والمناسبات

المختلفة..

تستمر سورة "الأنعام" في سرد أحداث يوم الحساب، وتوجّه الخطاب إلى المكلفين من الإنس والجن.. أي من عامة الناس (الإنس) ومن خاصتهم (الجن).. من الرعية (الإنس) ومن الرعاة (الجن).. من الأتباع (الإنس) ومن القادة (الجن)، فتقول:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا. يَا مَعْشَرَ الجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ. وَقَالَ أَوْلِيَآؤُهُم مِّنَ الإِنسِ: رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ، وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِي أَجَّلْتَ لَنَا. قَالَ: النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلا مَا شَآءَ اللهُ، إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنعام:١٢٨)

أما وقد وقف شياطين الجن والإنس يعارضون دعوة الحق ويصدّون عن سبيل الله، وجاء يوم الحساب.. يوم يجمعهم مالك يوم الدين ويكشف لهم عن أعمالهم.. فيقول لأصحاب القيادة في الفساد وأهل الرياسة في الباطل.. أي يقول لشياطين الجن: يا جماعة الرؤساء، إنكم اتخذتم كثيرا من العامة أتباعا لكم.. توجهونهم وجهة الشر الذي تريدون، ومحاربة الخير الذي ترفضون. كما أنكم سخَّرتم كثيرا من رعاياكم، تصعَدون على أكتافهم، وتعلّلونهم بالأماني والأكاذيب، وتنهبون أرزاقهم بسلطانكم الجائر، فضللتموهم بطغيانكم، وزادوكم فسادا باستسلامهم لكم.

كما أنكم جعلتم لهوَى الجماهير الساذجة قيمةً كبرى، فتغرونهم بفعل ما يرضيهم، وتستجدون

أصواتهم الانتخابية وتأييدهم السياسي بتملق مشاعرهم، وأغفلتم في سبيل ذلك أمانة الله التي في أعناقكم، ولم ترشدوهم ولم تنصحوا لهم، ولم تؤدوا إليهم حقوقهم التي لهم عليكم.

وحين ينكشف النقاب عما كان يدور بين الكبراء والأتباع، يبادر هؤلاء الأتباع.. أي شياطين الإنس.. إلى الاعتراف بأنهم قد اشتغلوا فعلا بتحصيل الفتات الذي كان يُلقِي به سادتهم إليهم، وأنهم استمتعوا بزائل من المال والجاه، وأنهم سرعان ما انقضى أجلُهم، ولم ينتبهوا إلا بعد فوات الأوان. كما أن السادة قد استمتعوا بدورهم، فكان لهم السلطان والجاه والعز والثراء.

ومثل هذا العذر لَقبيح غيرُ مقبول عند الحكيم العليم، لأنه تبارك وتعالى زوّد كل امريء بنعمة العقل التي يميز بها بين الخير والشر. ومنحه حرية الاختيار والإرادة ليتجه حيث شاء. إن الجزاء العادل المناسب لكل من السادة الضالين المضلين.. أي شياطين الجن، والتابعين لهم على طريق الضلال من منافقيهم وأذنابهم.. أي شياطين الإنس .. هو ألم الحسرة وعذاب السعير.

إن الله الحكيم قد جعل لبني الإنسان الحواس والملكات والإدراك، ورسم لهم منهاجا سماويا لو أنهم اتبعوه.. حكاما ومحكومين.. لحققوا الغرض من خَلْقِهم.. ولجعلوا الأرض جنة تتجاوب في أرجائها أصداء تسبيحهم لربهم. والله العليم محيط بكل ما ارتكبوه من فساد، عليم بنصيب كل منهم ودوْرِه ومسئوليته، ولذلك فالجزاء عادل.. لأنه نابع من علمه وحكمته عز وجل.

ولقد جرت سُنة الله تعالى أن يكون الجزاء من جنس العمل. ومن يضعُ الأمر في غير موضعه الصحيح هو ظالم لنفسه ولغيره. كل امرئ عليه واجبه ومسئوليته قِبَل نفسه وقِبَل غيره، وإذا تهرب منها واشتغل بغيرها اختل نظامه، وهدد نظام غيره بالخلل. وهكذا إذا ظلمت الرعية نفسها، بانحرافها عن المنهج الإلهي، تسلط عليهم حكام على شاكلتهم. وإذا فسد الحكام وسكتت الرعية عن النصح لهم ونافقوهم.. حقَّ القولُ عليهم جميعا ودُمروا تدميرا.. مصداقا لسنة الله تعالى:

﴿وَإِذَا أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ (الإسراء:١٦)

وبعد نعمة العقل والحواس والملكات.. أعذر الله الخلق المكلف بالخلافة والعبادة.. إذ أرسل إليهم جميعا.. في كل الأزمنة والأمكنة.. رسُلاً منهم.. معروفين لهم بالاستقامة والأمانة والصدق.. فحملوا لهم المنهجَ الذي ارتضاه الله لخلافته وعبادته في الأرض.. وحذَّروهم مغبة المخالفة عن أمره. ذلك المنهج من لدن الحكيم العليم.. يعطي كل ذي حق حقه، ويطالب كل فرد بأداء واجبه والوفاء بمسئوليته.

وتمضي السورة لتبين لنا من عالَم الغيب هذا الموقف من يوم الحساب.. ليكون تذكرة وتبصرة:

﴿يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ، أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ

هَذَا؟ قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا. وَغَرَّتْهُمُ الحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ (الأنعام: ١٣٠)

نداء واستفهام للتقرير والتقريع. ينادي: يا معشر الكبراء (الجن) ويا معشر العامة (الإنس)! يا جماعة القادة (الجن) ويا جماعة الأتباع (الإنس)، يا أولي الأمر (الجن) ويا أيتها الرعية (الإنس)! هل تعترفون بأن الله أرسل إليكم رسلا من بينكم.. تعرفونهم ويعرفونكم.. تشهدون لهم بالصلاح، وحسن الخلق، وشرف الكلمة، وطهارة السيرة. أقاموا الأدلة البيّنة على أنهم من عند الله تعالى.. وبلّغوكم منهجَ الحياة الذي ارتضاه الله لسعادتكم، وحذّروكم سوء العاقبة إذا خالفتم منهج الله؟

فلا يملكون إنكاراً، ويبادرون إلى الاعتراف والتسليم.

ولكن الفريقين كانوا منغمسين في ملذات الدنيا، ومطالب العيش، وأطايب الحياة، وغفلوا عمَّا وراء ذلك. فلا جزاء لهم إلا سوءَ حالهم، وضياع دولتهم، وكسْر شوكتهم، وخراب عامرهم.. جزاء وفاقا لسوء سلوكهم وتعاميهم عن سواء السبيل.. مصداقا لقول الله تعالى:

﴿ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ﴾ (الأنعام: ١٣١)

وتمضي الآيات التي تخاطب الجن والإنس.. لتقرر أن الله تعالى لا يغيب عنه ما يفعله كل فرد منهم، وأن كلاً منهم سينال جزاءه الذي يستحقه بحسب عمله. وسردت الآيات بعضاً من

أباطيلهم.. إذ أحلّوا وحرّموا من الأنعام كما زين لهم هواهم، مع أن الله تعالى خلقها لمنفعة الناس جميعا.

وهكذا يتضح أن سياق السرد القرآني لا يُفهم منه ما يُخرج المخاطبين عن مألوف البشر، غاية ما في الأمر أنه يُبين أن مسئولية البشر عامة.. يشترك فيها الحكام والرعية، وأن الهداية الربانية عامة ليهتدى بها الخاصة والعامة، وأن الرُّسلَ للبشر وهُم منهم. والنبي الأعظم محمد المصطفى ﷺ.. هو نبي للإنس والجن بلا خلاف. والكتابُ الذي أنزل عليه –أي القرآن المجيد– يخاطب الجن والإنس. فلا مناص من أن يكون الفريقان اللذان أُرسل إليهما رسولٌ منهما من جنس واحد.. أي من البشر. وإن لم يكن الأمر كذلك فنحن أمام مشكلة عويصة.. إذ لو كان الجن المكلفون بعبادة الله من جنس يختلف عن جنس البشر، فكيف يكون الرسول ﷺ رسولا إليهم وهو ليس منهم؟ إن الله تعالى لم يستثن الرسول ﷺ من هذا القانون الذي وضعه سبحانه، وعلى ذلك فليس من حقنا نحن أن نستثنيه ونزعم أنه قد أرسل إلى جنس آخر يختلف عن البشر، وإنما الصحيح هو القول بأن الفريقين جنسٌ واحد، ولا فرق بينهما إلا في بعض الخصائص التي تتعلق بالوظيفة الاجتماعية أو المركز الأدبي بين الناس. لقد قص الله تعالى علينا في أحسن القصص كثيرا من أنباء الرسل الذين أرسلهم إلى الأقوام السابقة، ولو كان الجن المكلف بعبادة الله يختلف في

الجنس عن البشر، لكان الله تعالى قد قص علينا أيضا من أنباء الرسل الذين أرسلهم إلى الجن من الأقوام السابقة، ولكنه لم يفعل، فكل الرسل الذين ذكرهم الكتاب العزيز هم من البشر، ولم يكن هذا لغفلة أو تفريط، فإن الكتاب العزيز مُنَزه عن الغفلة والتفريط.

ولا بأس من زيادة الإيضاح هنا؛ فنُذكّر أنفسنا بأن الفئة الحاكمة سُمّيت في القرآن (جنًّا) لأن صفة الخفاء أو الإخفاء تلازمهم من زاويتين: الأولى: لأنهم في العادة ينأون عن العامة والرعية بحكم مراكزهم القيادية.. خلفَ أسوار قصورهم وأبواب عروشهم.. يحجبُهم الحراسُ والحجّاب عن الناس. والثانية: لأنهم يحجبون الناس ويغطُّون عليهم إذا كانوا معهم.. ذلك لأن زخارف الملك وبهارج السلطان من حولهم تبهر العيونَ وتجذب الأنظار نحوهم، فلا يُرى في وجودهم غيرُهم. ولعلنا نستحضر صورة أحدهم عندما تتركز عليه عدسات التصوير وبريق الأضواء.. فلا يظهر على شاشة التلفاز إلا مُحَيَّاه، ولا تقع العيون إلا على طلعته البهية.. وكل شخص سواه مجرد خلفية للصورة.. أو "ديكور" لإبراز الأصل دون أن يلفت الأنظار!

* * *

ســورة الأعراف

■■ وعندما ننتقل إلى السورة التالية.. سورة (الأعراف) يزداد المعنى السابق وضوحا. فقد جاء

في الآيات الأولى منها.. سلسلة من النداءات تقول ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾:

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْءَاتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾ (الأعراف:٢٦)

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ لاَ يَفْتِنَنَّكُمْ الشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَآ إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاَ تَرَوْنَهُمْ، إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٧)

﴿يَا بَنِي ءَادَمَ خُذُوا زِينَتِكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلاَ تُسْرِفُوا إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف:٣١)

وتتضمن هذه النداءات توجيهات كريمة، تحث المخاطبين على التحصُّن من الشرور والوقاية من السيئات بارتداء اللباس المناسب.. وخصوصا لباس التقوى، ليكون رداءً يقي ابن آدم من تأثيرات الشيطان.. هذا المضلل الذي يتسلل من منافذ الغرائز والشهوات والأهواء.. والذي يفعل فعله المتلصص في غفلة من المرء، ذلك لأن مثل هذه المؤثرات تسري في النفس دون أن يتنبه لها المرء تماما وهو في خضَمَّ انشغاله بها. ودُعاة الانغماس في الشهوات والأهواء يرون.. هم وأعوانهم.. مواطن الضعف في ضحاياهم بغير أن يفطن الضحايا إلى ما يُحاك لهم، وبغير أن يرى الضحايا

حقيقة دعاة السوء والهوى. أما المتحصنُ بلباس التقوى فلا سبيل لهؤلاء الدعاة إليه.. فهو كالمتدثر بثوب من الصوف يحميه من لسعات البرد.

ولعل التحذير الإلهي في قوله تعالى:

﴿إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ.. ﴾ (الأعراف:٢٧)

كان من الأسباب التي جعلت البعض يقول بوجود خلق آخر، يختلف عن الإنسان.. وإن من صفاته أنه غير مرئيٍّ لنا. والآية بريئة من هذا المفهوم الخاطئ، لأنها تتحدث عن الشياطين.. ومنهم شياطين الإنس، كما أن منهم شياطين الجن. والإنس مرئيٌّ ظاهر، والفتنة والخطر ليسا وقفاً على شياطين الجن وحدهم.

فكلمة ﴿يَرَاكُمْ﴾ يعني أنه يرى مواطن ضعفكم فيصل إليها، أما ﴿قَبِيلُهُ﴾ فهو ما يلحق به من عوامل تساعده على التأثير، وأعوان على شاكلته يشاركونه الفساد والإفساد. وقوله ﴿مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ﴾ أي من حيث لا ينتبه المرء إلى تأثيرهم، وبغير أن يفطن إلى حقيقة أمرهم.. وذلك حين الغفلة.. حين الانشغال بالهوى عن التعقل والتفكير. ورؤية الشيطان وعدم رؤيته لا تحدث فرقا في مدى تأثيره، فمثلا إذا أغرى صاحبٌ صاحبَه وزيّن له ارتكاب منكر حتى استجاب، فماذا تجديه الرؤية هنا؟ لقد وصل إليه التأثير مع أنه يراه ويُصاحبه، ولا معنى للتحذير مما لا تأثير له. إن

الصاحب أطاع صاحبه المضلل لأنه غفل ولم يدرك بقلبه تأثيرَه السيء. فغفلة القلب هي الخطر الحقيقي الذي لابد من علاجه. و ﴿لِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ﴾، لأنه الدرع الواقي من خطر الشيطان.. رأته العين أم لم تره. فالخفاء ليس صفة ذاتية للشيطان، وإنما هي صفة لتأثيراته المتسللة إلى القلب الغافل.. لأنها تخاطب الغرائز الباطنة التي تجرى من الإنسان مجرى الدم.. حسب قول المصطفى الحكيم الأمين ﷺ.. فلا ينتبه لها الإنسان. ومن غفل فقد عمي وفقد الرؤية.

فإذا وصلنا إلى قوله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف:٣٥)

أدركنا أن الرسل الذين يهدون إلى منهج الله تعالى هم من بني آدم.. من البشر، وأن من اتقى واهتدى بما جاء به رسل الله من بينات.. وأصلح في قصده ومسلكه، لا يلقى خوفا ولا حُزنا.. لا في دنياه ولا في آخرته، بل له الأمن والطمأنينة والسعادة والنعيم. أما من أشرك وكفر فحق عليه قول الله:

﴿قَالَ ادْخُلُوا فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ فِي النَّارِ. كُلَّمَا دَخَلَتْ أُمَّةٌ لَّعَنَتْ أُخْتَهَا. حَتَّى إِذَا ادَّارَكُوا فِيهَا جَمِيعًا قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لأُولاهُمْ: رَبَّنَا هَؤُلاءِ أَضَلُّونَا.. فَآتِهِمْ عَذَابًا

ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ. قَالَ: لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَكِن لا تَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف:٣٨)

وهكذا يزداد الأمر وضوحا. فالأمم التي يخاطبها القرآن الكريم تتكون من (جن) و (أنس). الجن هم أصحاب القيادة في الحياة الدنيا، ومن ثَم يُقَدَّمون على غيرهم عند دخول النار. وهذا الوعيد يُبرز دور القيادة ومسئوليتها.. فمن يقود قومه إلى الشر يقودهم أيضا إلى جهنم. ولقد أشار القرآن إلى هذا عندما حكى عن فرعون وقومه فقال عنه إنه استخف قومه فأطاعوه، فحق عليه أن يقود قومه إلى النار:

﴿يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ وَبِئْسَ الْوِرْدُ الْمَوْرُودُ﴾ (هود:٩٨)

فَهو يدخل على رأس قومه ليكون أول من يَصْلَى لظَى جهنم.. كما كان على رأس قومه الذين غرّر بهم في الدنيا. فإذا تم دخول الزعماء (الجن) من كل أمة في النار دخل بعدهم الأتباع (الإنس).. وهناك يلتقي الفريقان ليتلاعنا. الأتباع يلعنون سادتهم غضبا وتحسُّرا.. لأنهم كانوا سبب ضلالهم وسوء مآلهم، ويدعون الله أن يضاعف العذاب لمن كانوا السبب في هلاكهم.

وعذاب الخروج على منهج الله شديد أليم، بالغ الشدة والألم.. بحيث أن من رماه سوء فعاله فيه أحس كأن عذابه مضاعف.. فما للإنسان طاقة على احتماله والصبر عليه.

ثم تمضي الآيات بعد ذلك لتبشر المؤمنين الصالحين بأن الخلود في نعيم الجنة هو جزاؤهم،

فيحمدون الله تعالى على ما آتاهم من هداية على يد رسله وحَمَلة وحْيِه ومنهجه. وهكذا نرى أن القرآن المجيد لم يُفرّق بين جن وإنس.. سواء في التكليف أو في الجزاء. ولا معنى لذلك إلا أن الجن والإنس سواء في تكوينهم النفسي والجسدي.. وأنهم نوع واحد.. لا فرق بينهم إلا في الدور الوظيفي داخل المجتمع البشرى. ولذلك أراد الله تعالى أن يؤكد للجميع بأن البشر أمامه سواء.. كلهم مكلف حسب طاقته، وكلهم محاسب حسب وعيه ونيّته. ولا فرق بين سيد ومسود.. أو تابع ومتبوع. فهم جميعا خلقٌ ضعيف، بحاجة إلى اتباع المنهج الإلهي للفوز برضوان الله تعالى.

يتضح من الحوار الذي يجري بين الجن والإنس من أهل النار.. أن التابعين ليسوا بأفضل من المتبوعين في شيء، وأنه إن كانت القيادة في الشر جريمةً قبيحة.. فإن الانقياد أيضا جريمةٌ شنعاء. والعقاب الشديد نازلٌ حتما بالفريقين، جزاء وفاقا لمن أفرط ولمن فرّط.

ونوجه الانتباه هنا إلى أن النداءات القرآنية في هذه السورة.. والتي تكررت عدة مرات قائلة: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، تناولت من التوجيهات الإلهية ما يتعلق بالجنس البشرى وحده: من لباسٍ خارجي يستر السوءات فلا تنكشف، ولباسٍ معنوي يستر النفوس من الشرور والآثام، والتزينِ للصلاة، وعمارةِ المساجد، وبعث الأنبياء ليُعَلموا البشر آيات الله، وثوابِ المطيع الذي اهتدى وأصلح، وعقابِ المخالف الذي استكبر وأفسد.

ثم تناولت الآيات يوم الحساب.. يوم يتلاقى المكذبون الظالمون في النار، فيكون أول الداخلين فريقاً سماه القرآن باسم (الجن)، ويدخل من بعدهم الفريق الذي دعاه القرآن باسم (الإنس). والفريقان كلاهما يدخلان تحت النداء القرآني: ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾. وليس ثمة مجال للجمع بينهما في هذا النداء، وتبادُل الشماتة والتلاعن بينهما إلا إذا كانا سويًّا من (بني آدم) فعلا، وما فرَّق بينهما تحت اسم (الجن) و (الإنس) الا الدور المتميز لكل فريق منهما في الظلم والتكذيب والإفساد. فأولئك القادة، وهؤلاء الأتباع.

ولعله من المناسب هنا إلقاء بعض الضوء على قول الله تعالى:

﴿يَا بَنِي آدَمَ لا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْءَاتِهِمَا. إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لا تَرَوْنَهُمْ. إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَآءَ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:٢٧)

لقد ذهب كثير من المفسرين في فهمها مذهبا بعيدا، وجاءوا بأقوال هي خليط من جاهلية أهل الكتاب وخرافات الخيال! ولنبدأ القول بالحديث عن الشيطان. سبق أن ذكرنا أن الكلمة أصلُها من مادة (شَ يَ طَ) أي احترق وهلك: شاط.. يشيط.. شيطانا. والشيطان هو من اصطلى بنار الحسرة لحرمانه من الخير.

ويقال أيضا إن الكلمة أصلها من مادة (ش ط ن) وتعني البُعد، فيقال: شَطُنت الدارُ: بعُدَت ونأت. والشيطان هو الذي ابتعد تماما عن طريق الحق والخير، أو هو الذي يُبعِد غيره عن الهداية والرشاد. وبين المعنيين قرابة.. فإن من حُرم الهداية الإلهية تحولت حياته إلى جحيم وكانت عاقبته جهنم.

والمؤثر النفسي أو المعنوي الذي يُبعد المرء عن المنهج الإلهي، ويحيد به عن سبل الخير ومن ثم يؤدي إلى هلاكه.. شيطان. وهو شيطان الجن لأنه يفعل فعله في خفاء فلا يتنبه له المرء، ولذلك وصفه القرآن بأنه شيطان يرى ضحيته – أي يصل إليها ويؤثر فيها – من حيث لا تراه الضحية، أي لا تدرك تأثيره ولا تفطن له.

وتقدم الآية الكريمة تحذيرا إلى كل البشر، إنسهم وجنهم، من فتنة هذه المؤثرات الشيطانية، التي تتسلل إلى النفس البشرية على حين غفلة من صاحبها.. تحت ستارٍ برّاق من المغريات المشروعة أو غير المشروعة.. فيقع فيها وتُوَرثه الندم. وقد مرّ سيدنا آدم.. أبو السلسلة الحالية من البشر الذين تشرفوا بالتكليف الإلهي، وأولِ نبي حمل شريعة الله إلى بني جنسه، فَنُسِبوا إليه تخليدا لهذا المنعطف الهام في تاريخ البشرية وتحولها إلى الإنسانية.. أقول مرَّ بتجربة مع هذا الشيطان.

لا شك أن قصة آدم عليه السلام.. سواء ما تعلق بخلقه وجنته وما وقع بينه وبين إبليس.. فيها من

الأخطاء الشائعة ما يستوجب مناقشتها وتحليلها وفهمها فهما صحيحا حتى يمكن تصويب تلك الأخطاء التي شاعت بين الناس. والتعرض لهذه التفاصيل في هذا الكتاب الذي يتعلق بموضوع الجن سوف يخرج بالقارئ عن السياق، كما أنه سوف يؤدي إلى الإطالة بشكل لا يتفق والغرض منه. ولذلك.. فبعون الله سوف نخصص حلقة خاصة من سلسلة "أخطاء شائعة" للحديث عن الأنبياء الذين تفشى عنهم الكثير من الأخطاء الشائعة من أمثال آدم، وداود، وسليمان، وعيسى بن مريم.. عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام.

ونكتفي بأن نذكر هنا أن آدم عليه السلام قد أُمِرَ أن يجتنب زعيما مغرورا من زعماء قومه.. كان قد أعلن العصيان والخروج على طاعة آدم الرسولِ المبلِّغ عن ربه. أعلن العصيان وأصر عليه استعلاءً واستكبارا وبغيا، بل وجاهر بعزمه على مقاومة الأمر الإلهي والإفساد بكل السبل. وحذر الله آدم من نوايا هذا العدو الحاقد الحاسد. وعمل آدم فترة من الزمن بهذا التحذير، ولكنه بعد مضي الوقت قَلّ حذرُه، ووقع تحت تأثير الاعتقاد بقدرته على إصلاح (إبليس) ومن معه من أتباع وأعوان. وظن أنه إذا نجح في هذه المهمة الصعبة فإنه يكون بذلك قد قام بإنجاز عظيم يكسبه المجد وخلود الذكر، وهو قبل كل شيء من صميم واجباته كنبي معلم. وحسِب أن تكون ضغينة إبليس قد خفَّت حدتها مع الزمن، ولا بأس من المحاولة الخيِّرة.

لقد كانت هذه الخواطر الطيبة.. في نفس النبيِ الحريص على نجاح مهمته.. شيطانا أنساه الحذر الواجب، والالتزام بالتحذير الإلهي من ربه العليم الخبير.. الذي لا تخفَى عليه خافية. وهكذا وقع آدم في الفخ الشيطاني، الممَوَّه بالنوايا الطيّبة، واستطاع إبليس وجماعته مهاجمة آدم من حيث لم يحتسب.. بعد أن عرفوا مواطن الضعف في منطقته، وهكذا زال عن آدم اللباس الذي كان يقيه المخاطر، وانكشفت مناطق الضعف.. تماما كما تنكشف العورات إذا انحسر اللباس عن الجسد.

وعلى ضوء هذا الدرس القيّم يعلمنا القرآن أن ﴿لِبَاس التَّقْوَى﴾ هو خير وقاية لنا من هجمات الشيطان إذا أراد أن يتسلل إلى داخلنا، تماما كما يحمينا اللباس المادي من هجمات الجو الخارجي. ولا شك أن الذين لا يُقَدِّرون التقوى حق قدرها، ويحسبون أنهم قادرون على حماية أنفسهم بأنفسهم، بغير منهج الله والاستعانة به سبحانه.. لا شك أنهم جعلوا من أنفسهم بذلك أنصارا للشيطان، فيملأهم غرورا، ويوردهم شر الموارد، ولن يجدوا لهم من دون الله تعالى هاديا أو نصيرا.

كما يمكن أيضا تسمية إبليس شيطانا.. لأنه ابتعد عن طريق الخير، وضلل قومه معه، وعزم على إفساد المهمة النبوية لسيدنا آدم. وأيضا يمكن إطلاق اسم شيطان على من استعان به إبليس لإغراء سيدنا آدم كي يتصل به وبقومه، وزيّن له هذا الأمر وأنساه الحذر.

ولعل القارئ لسورة (الأعراف) يلحظ أن الأنبياء الكرام.. صلوات الله وسلامه عليهم وعلى خاتمهم وإمامهم المصطفى.. قد لاقوا معارضة وتكذيبا ومقاومة من أقوامهم بقيادة فئة بعينها:

■ فمن قوم نوح:

﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي ضَلالٍ مُّبِينٍ﴾ (الأعراف: ٦٠)

■ ومن قوم هود:

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاكَ فِي سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (الأعراف: ٦٦)

■ ومن قوم صالح:

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِمَنْ ءَامَنَ مِنْهُمْ.. أَتَعْلَمُونَ أَنَّ صَالِحًا مُّرْسَلٌ مِّن رَّبِّهِ؟ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلَ بِهِ مُؤْمِنُونَ ۞ قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا بِالَّذِي ءَامَنتُم بِهِ كَافِرُونَ﴾ (الأعراف: ٧٥)

■ ومن قوم شعيب:

﴿قَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنُخْرِجَنَّكَ يَا شُعَيْبُ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا مِنْ قَرْيَتِنَا..﴾ (الأعراف: ٨٨)

■ ومن قوم موسى:

﴿قَالَ الْمَلأُ مِنْ قَوْمِ فِرْعَوْنَ إِنَّ هَذَا لَسَاحِرٌ عَلِيمٌ﴾ (الأعراف:١٠٩)

ولعل القارئ قد أدرك بعد تلاوة هذه الآيات أن (الجن) هم السادة.. هم (الملأ الذين استكبروا)، وهم أول من يدخل النار ويصلى سعيرها؛ وقد سماهم القرآن (الجن) لتَميّزهم وكِبرهم ودورهم القيادي في الإفساد.

وتمضي آيات سورة (الأعراف) تسوق المثل تلوَ المثل لمواقف (الأبالسة) مع (الأوادم).. فكل نبي هو (آدم) روحاني لقومه ومثيل له من حيث مهمته ومنهجه. ولكل نبي وقفَ ملأ من المستكبرين، وهم أبالسة.. وإن اختلفت الأسماء. قد يكون الاسم (فرعونَ) أو (أبا لهب)؛ لا يهم الاسم.. لأنهم في أفعالهم ومواقفهم أبالسة. وكما كان إبليس ﴿مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾ أي "زعيما" مأمورا بطاعة منهج الله.. كذلك الذين جاءوا من بعده.. كانوا من الجن وفسقوا عن أمر ربهم. وسيبقى إبليس دائما موجودا على الأرض بين الناس مُمَثَّلاً في أشخاصهم، لأن الله لم يكتب الخلود لأحد أبدا في الدنيا.. مصداقا لقوله تعالى:

﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ﴾ (الأنبياء:٣٤)

ولكن دور (إبليس الأول) متجددٌ بمن يخلفه ويسير على منواله في الغرور والغطرسة والاستكبار

والعمى عن الهدى.

وتحكي السورة تلك العادة البشرية الذميمة.. فكلما أرسل الله هداية للبشر، على يد رجل صالح يصطفيه من بينهم لهذه الغاية الجليلة.. قام الأبالسة والشياطين لدعاة الهدى بالمرصاد. وما من حجة في أيديهم سوى سلاح القوة الغاشمة، والمغالطات المكشوفة، والإغراء بمتع الحياة الدنيا. ولا مناص من أن يكون عذاب جهنم من نصيب هؤلاء الأبالسة، يجدون في لظاها العقاب الرداع والعذاب الزاجر.. تقول الآية الكريمة:

﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ، لَهُمْ قُلُوبٌ لا يَفْقَهُونَ بِهَا، وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لا يُبْصِرُونَ بِهَا، وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لا يَسْمَعُونَ بِهَا. أُولَئِكَ كَالأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ. أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ (الأعراف:١٧٩)

نعوذ بالله من هذا العجز التام!! لقد عطلوا حواسهم عن الإدراك السليم المنجي من الضلال، واستخدموها في الأهواء والشهوات الدنيوية. خلعوا عنهم لباس التقوى، فنال منهم الشيطان بطعناته المهلكة، وكانوا لجهنم حطبا.

وها هي الآية تعلن بجلاء تام أن الإنس والجن مشتركون في أدوات الإدراك من قلب وعين وأذن. وأنهم مشتركون في الغفلة وسوء الاستعمال لتلك الملكات والحواس. وأنهم مشتركون في

سوء العاقبة، وأنهم يَصْلُون نفس العذاب.. نارَ جهنم التي تشوي الأجساد والجلود. ولقد قرنت الآية الكريمة بين الجن والإنس حتى لا يحسبن أحد من المغرورين.. من السادة والقادة.. أنه بمنجَى من العقاب الأليم المهين بسبب مركزه أو مكانته بين العامة. وحتى لا يظنن أحد من العامة أن انقياده ومناصرته لهؤلاء السادة في طريق الباطل ينفعه يوم الموقف بين يدي الله العزيز القدير. إن السادة والكبراء في كبرهم وظلمهم.. متساوون مع العامة والأتباع يومئذ في ضعفهم وقلة حيلتهم.. بل إن السادة ينالون أشد العقاب نظير دورهم القيادي في الفساد والإفساد.

ولنتأمل كيف أن الآية الكريمة شبّهت تلك الأنواع البشرية.. من إنس وجن.. بالأنعام، لكونها تنقاد لغرائزها انقيادا غبيا. ولقد صدقت الآية في أن البشر الذين تُنسيهم شهواتُهم حدود ما ينفعهم وما يضرهم.. هم أضلُّ من الأنعام التي تهتدي بغرائزها ولا تتمادى في الشهوات. وليس للقادة الفجرة الغافلين من كرامة تميزهم، فهم أيضا أضل من الأنعام، فإن لقطعان الماشية أيضا قادة محنكة، تقودها نحو المراعي الخصبة، وتناور بها للنجاة من العدو المفترس. ولكن القادة من البشر الذين أعماهم الغرور يقودون رعيتهم معهم إلى الهلاك .. تماما كما يقود الكبشُ القطيع وراءه إلى المذبح!! والفرق بينهما أن الكبش لا يدرك الخطر الخفي، وليس بوسعه أن يدفعه.. أما قادة الشر بين البشر فهم يعطِّلون حواسهم ولا يستجيبون لعلامات التحذير والإرشاد!!

* * *

سورة هـود

■■ ثم ننتقل بعد ذلك إلى سورة (هود). تناولت السورة تكذيبَ قريش للنبي ﷺ وزعمَهم أن القرآن كتاب من افترائه. فتحدتهم السورة أن يأتوا بعشر سُور مثل سُورَه. وقصت السورة عليهم أنباء الأقوام السابقين وموقفهم المماثل تجاه رسلهم بدءًا بقوم نوح ؏، الذين نظر زعماؤهم إلى نبيهم نظرة ازدراء، ووصفوا المؤمنين بأنهم حفنة من الأراذل لا وزن لهم. ولما رأى الملأ السفينة سخروا وضحكوا.

ثم عطفت السورة على قوم هود وكيف تبع العامة منهم رؤساءَهم الجبارين. ومن بعدهم قوم لوط وقوم شعيب ثم فرعون وحاشيته وجنوده. لقد أفسدت تلك الأقوام في الأرض، وخالفوا منهج الله وعصوا رسله، فنَزل بهم الهلاك. والهلاك إذا نزل لم يُفَرق بين جن أو إنس، أي أنه يصيب السادة والأتباع معاً. لقد أخذ الطوفان قوم نوح كبيرا وحقيرا.. واستأصل العقاب عادا وثمود فلم يبق على عبد أو أمير .. وأخزى العذاب قوم لوط ومَدْيَن، فأفنى السادة مع الرعية!!

﴿وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ الْقُرَى وَهِيَ ظَالِمَةٌ.. إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ (هود:١٠٢)

ولقد ألمحت الآية قبل هذا إلى السبب في ذلك حيث قالت:

﴿فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَآ أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ ۞ يَقْدُمُ قَوْمَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَأَوْرَدَهُمُ النَّارَ﴾ (هود:٩٧)

فالعذاب ينْزل بالقرى عن بكرة أبيها، والعذاب يأخذُ الحاكم والمحكوم، ما دام الجميع في الظلم مشتركين.

وتمضي السورة تحذر أمة محمد ﷺ فتقول:

﴿وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّنْ دُونِ اللهِ مِنْ أَوْلِيَآءَ ثُمَّ لا تُنْصَرُونَ﴾ (هود:١١٣)

فعلى الجماهير ألا تنقاد وراء قادتها فيما يخالف منهج الله، فإن ذلك ظلم يجعلهم مستحقين للعقاب، ولن يجدوا من يحميهم من غضب الله تعالى. وعلى أولي الأمر ألا يستعملوا الظالمين من رعيتهم حتى لا يوقعوهم تحت طائلة المسئولية في الظلم وينالهم سخط الله.

■ وتُختم السورة بالقانون الإلهي:

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ۞ وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً.. وَلا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ۞ إِلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ، وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ. وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (هود:١١٨)

ما دور (الجِنة) هنا؟ ولماذا يُهَدَّدون بدخول النار مع الظالمين من أهل القرى؟ الجواب المنطقي للجمع بينهما في هذا السياق.. هو أن (الجِنة) فريق من أهل القرى يتميز بالقيادة، ولذلك جاء ذكرهم في مقدمة الذين تمت كلمة رب العالمين ليدخلنهم النار.. مع من يتبعهم من الرعية. وتأمَّل كلمةَ (الناس) في الآية! عندما تحدثت الآية عن أهل القرى بصفة عامة أسمتهم (الناس)، ثم صنَّفتهم صنفين: الجنة والناس. فكأن كلمة (الناس) تطلق على البشر عموما من كل صنف ونوع ولون وطبقة، وكلمة (الجن) في مقابلها تعنى الخاصة، أي الطبقة القيادية أو أولى الأمر والفئة المتميزة. ويلاحظ هنا أن كلمة (الجِنَّة) تعني صنفا معينا من الجن.. هم في هذه الحالة القادة الظَلَمة الفسدة، المستحقين للعقاب الإلهي.

ولا يفوتنا في هذه المناسبة أن نلفت الانتباه إلى أمرين هامين وردا في الآية الكريمة، وجدير بنا أن نتفهم مغزاهما:

أولهما: إن الأمم لا يصيبها الانحطاط، وينْزل بساحتها العذاب والهلاك.. وهم مصلحون، لأن ذلك ظلم.. تعالى الله عنه علوا كبيرا. فإذا رأينا أمة تهوي في ظلمات الجهل والفقر والمرض، فليس ذلك ابتلاء لها من الله تعالى.. كلا، بل هو عقاب أصابها بسبب انحرافها الشديد عن الصراط الإلهي المستقيم، وإمعانها في إغضاب الله عز وجل، فاستحقوا أن ينْزل بهم العقاب العام.

وثانيهما: من الأخطاء الشائعة عن هذه الآية القول بأن الله تعالى يريد أن يكون بين الناس خلاف، وأنه سبحانه قد خلقهم لكي يختلفوا.. أي أن قوله تعالى ﴿وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ﴾ يعني أن الناس خُلقوا للاختلاف. والحقيقة أن الخالق.. الرحمن الرحيم، الذي وسعت رحمته كل شيء، إنما خلق الناس لينهلوا من معين رحمته. فالإشارة في كلمة (لذلك) إنما تعود على المشار إليه الأقرب.. وهو قوله ﴿إِلا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ﴾ أي.. إنه سبحانه قد خلق الناس لينالوا رحمته تبارك وتعالى.. وإن الذين تشملهم رحمة الله لا يكونون في خلاف، وأما الذين بأعمالهم يتسببون في أن يُحرموا من رحمة الله، فهم الذين يكونون في خلاف.

والمعنى الإجمالي للآية: أنه لو كانت مشيئة الله أن يكون الناس أمة واحدة لحملهم على ذلك، أي لخلقهم مجبولين على الطاعة.. مثل الملائكة وغيرهم من الكائنات التي لا تعصي ولا تُفسد ولا تخرج أبدا عن منهج الله. ولكن الله أراد أن يكون الناس خلْقا حُرا مُريدا، يختار اتباع منهج الله عن طواعية، فيستحق بذلك أن ينعم برحمة الله، ويستمتع بما لا يستمتع بمثله الذين جُبلوا على الطاعة الإجبارية.. من ملائكة أو غيرهم من المخلوقات الأخرى. وأن الله كما وعدهم برحمته الفياضة الواسعة، فإنه حذرهم من عقابه الأليم جزاء وفاقا للخروج عن طاعته استكبارا وعلوا. وفي النار متسع لكل عاص مُصرٍّ على العصيان، سواء كان من الجن أو من الإنس. ومثل هذا العقاب لا

ينْزل أيضا بالخلق المجبول على الطاعة لأنه لا يملك إرادة المعصية. فالبشر.. جنا وإنسا.. هو الحر المريد.. المجازَى على عمله. وإذا كانت مشيئة الله تعالى هي ألاّ يجبر البشر على منهج واحد.. فليس لكائن مَن كان أن يجبرهم على ذلك.

* * *

سـورة الحجْـر

■■ ثم نأتي بعد ذلك إلى سورة الحجر إذ يقول تعالى:

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ ۞ وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر:٢٥-٢٧)

هذه هي الآية الأولى من القرآن الكريم التي تتحدث عن خلق الإنسان والجان. وهي تشير إلى صفة رئيسية في الإنسان، تولدت فيه بعد أن مر بسلسلة مديدة من الإعداد والتطوير.. حتى وصل إلى هيئته الحالية.

وفي آيات أخرى ذكر القرآن أن الإنسان مخلوق من تراب، ومن طين، ومن صلصال، ومن ماء. وعلى ضوء هذه الآيات يمكن أن نتعرف على المراحل الأساسية التي مر بها خلق الإنسان من البِنية المادية. ولكن الأهم من ذلك هو أن نتنبه إلى الصفات الرئيسية الكامنة في الفطرة البشرية،

والملكات التي اختُص بها دون سائر المخلوقات.

قد نستخلص من آيات الخلق البشري أن المادة التي بدأ منها البناء الجسدي هي الماء الذي يغطي نسبة كبيرة من القشرة الأرضية. واختلط الماء بالتراب الذي يكون على سطح الأرض. وإذًا فالبداية من الطين. وإذا جف الطين غلُظَ وصار صلصالا، ثم يجمد ويكون كالفخار. ثم تعرَّض الصلصال لسلسلة من تأثيرات إشعاعية وكيميائية وفيزيائية.. فتخلقت الجزيئات الأولية التي تتكون منها المركبات العضوية. وباستمرار هذه العمليات تزداد المركبات تعقدا وتنوّعا حتى تنتهي إلى اللبنة الأولى التي تتكون منها الخلية الحية [DNA, RNA].

ولا يغيبن عن البال أن القرآن أعلنها صريحة بأن الماء هو مصدر الحياة لكل مخلوق يعيش ويدب على هذه الأرض ويعتمد على مادتها في بقائه حيا.. حيث قال:

﴿وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ..﴾ (الأنبياء: ٣٠)

﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ، وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ..﴾ (النور: ٤٥)

والجان شيء حي، وهو من الأحياء التي تعيش في الأرض وتدب عليها، فهو مخلوق من الماء، والماء ضروري لاستمرار حياته. والماء مادة موزونة محسوسة، وإذا دخلت في بِنية كائن جعلته حتما

محسوسا موزونا. وإذن فالجان من الخلق المحسوس الموزون.. وليس من الخيالات أو غير الماديات كما يظن البعض، وكما هو شائع في ذهن الناس عن المخلوق الأسطوري الذي ليس له وجود إلا في مخيلتهم.

وتفاصيل عملية الخلق بعد ذلك من الأمور المادية الكونية.. التي تخضع للبحث العلمي، ويمكن للباحثين أن يصلوا فيها إلى نتائج تشبع فضولهم. كما أنها ستبقى لغزا يتحدى العلمَ ليحاول حله.. بما يساعد على تقدم البشرية وتطورها. ولا مجال للأدعياء هنا فيزعم بعضهم علما في هذا المجال على أساسٍ من خرافات الأقدمين أو خيالات المحدَثين.

وقد اختارت الآية الكريمة "المرحلة الصلصالية" من خلق الإنسان.. إيماء إلى صفتين يتميز بهما الإنسان: الصفة الصلصالية الأولى.. هي القدرة على التشكل بيسر، والاحتفاظ بالشكل المكتسب حتى تتدخل قوَى التشكيل لتغيره. والصفة الثانية هي الرنين، وهي الانفعال الصوتي.. فكما أن الصلصال إذا جف تصلب وصار فخارا فإنه يحدث رنينا إذا اصطدم بجسم صلب، كذلك الإنسان.. إذا ما اشتد عوده بحرارة الوحي السماوي فإنه ينفعل به ويردده ويُسمِعه لمن حوله. فالإنسان متطور غير جامد، وهو قابل للتكلم وإذاعة ما يتعلمه.

هكذا بدأ خلق البشر، وتطوَّر حتى صار إنسانا، وهكذا يمضي في تطوره قُدُما. وتلفت الآية

الكريمة أنظارنا إلى حقيقة أن الصلصال قابل للتشكل، فإذا خلا من الماء تصلب وصار هشًّا قابلا للكسر.. فإذا نزل عليه الماء أمكن إعادة تشكيله. وهكذا البشر وهو في طريق تطوره معرَّضٌ للضلال والسقوط، ولابد له من ماء السماء الروحاني (الوحي) ليعيد إليه القدرة على اكتساب شكل سوِيٍّ جديد. نعم، إن معاول الشهوات وأحداث الحياة وصروفَها تعمل على تحطيمه، ولكن ماء السماء.. أي الوحي.. يعيده إلى منهج الله إنسانا سوِيا.

ولم يكتسب الإنسان تلك الصفات بين عشية وضُحاها، وإنما قطع المراحل من الماء والتراب إلى الطين، ثم الحمأ المسنون، ثم الصلصال حتى صار بشرا سويا.. في أحقاب طويلة. وفي الخطوات الأخيرة من هذه المسيرة التطورية كان أسلاف الإنسان –أي البشر البدائي– كائناتٍ أشبه بالوحوش الأوابد، يسكنون الغابات وكهوف الجبال، وتحكم تصرفاتِهم الغرائزُ الحيوانية البدائية: غريزة الحفاظ على الذات، وغريزة الحفاظ على النوع. وكانوا يتعاملون مع بعضهم ومع غيرهم من منطلق تلك الغرائز، فكان القتل والسلب والعدوان والإفساد في الأرض نشاطا يوميا عاديا. وكان هذا الكائن البشري البدائي سريع الانفعال، شديد الاستجابة لغرائزه، يغلب على طبعه التأجج والثوران. كان كشعلة من نار السموم، يندفع اندفاع الرياح الساخنة. كما كان مخلوقا نافرا، لا يأنَس إلى غيره ولا يأتنس به غيره.. يميل إلى العزلة ليأمن شر أعدائه، ويتربص بفرائسه..

وباختصار: كان جانًّا.

وكانت عملية التسوية الإلهية في البشر تفعل فعلها يوما بعد يوم، وجيلا بعد جيل. وكانت خاصيتا التعلم والتأقلم في البشر أمضى أسلحته في هذا المسار، تُعيناه على التقدم والارتقاء. ثم نمت فيه روح الجماعة، وبرزت ملكاته العظيمة الكامنة.. حتى بلغت ذروتها في الاستعداد لوحي السماء. وهكذا تأذَّن الله الخالق البارئ المصوِّر أن يخرج إلى الوجود سيد المخلوقات.. ذلك هو (الإنسان)، الكائن الاجتماعي، الودود الأنيس، الذي قُدِّر له أن يصعد سلَّم الرقي قُدما.. ويتعلم عن الله مباشرة، ويتأهل ليكون خليفةً على الأرض. واستحق بذلك أن تسجد له الملائكة سجود تأييد وتكريم وخضوع معه لأمر الله تعالى من أجل تحقيق الهدف من خلقه. وهكذا جاء آدم عليه السلام ليكون الحلقة الأولى من سلسلة مباركة جليلة الشأن من الترقيات البشرية في جميع المجالات.. ماديا وفكريا وروحانيا. ولقد اختتمت السلسلة ووصلت ذروة جمالها وكمالها في شخص "آدم الأعظم" والإنسان الأكمل.. رسول الإسلام وحامل القرآن سيدنا محمد المصطفى ﷺ.

إن آيات سورة (الحجر) تشير إلى الطبيعة التقدمية في البشر، وتحكي لنا عن المراحل الأولى لنشأته، ومرحلة ما قبل الخلافة وتلقِّي الوحي.. وهي التي وُصف فيها البشر بأنه (جان). وليس معنى أن الإنسان قد خُلق من صلصال وأن الجان قد خُلق من نار.. هو أنهما مخلوقان يختلفان في

النوع عن بعضهما البعض.. وإنما يعني أن لأحدهما طبيعة تختلف عن طبيعة الآخر. فالصلصال الذي يتميز بأنه يمكن تشكيله.. هو طبيعة البشر المتأنس الذي يخضع للقوانين، والنار التي لا يمكن السيطرة عليها ولا إخضاعها لشكل معين هي طبيعة البشر المتمرد الذي لا يريد الخضوع للقانون. ولا يعني هذا أن الجان قد خُلق من مادة النار، مختلفا بذلك عن الإنسان. فالقرآن المجيد ذكر أن الإنسان قد خلق من عجل، ولا يعني هذا بالطبع أن الإنسان قد خُلق من مادة العجل، وإنما يعني أن العجل هو من طبيعة الإنسان. وكذلك فإن خلق الجان من النار لا يعني أنه قد خُلق من مادة النار، وإنما يعني أن له طبيعة نارية لا يسهل إخضاعها وتشكيلها والتحكم فيها.

* * *

سورة الإسراء

■■ فإذا واصلنا التلاوة إلى سورة (الإسراء) حيث يقول الله تعالى:

﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ. قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي، وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلا قَلِيلا ۞ وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ ثُمَّ لا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلا ۞ إِلا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ، إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيرًا ۞ قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْءَانِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ۞ وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْءَانِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى

أَكْثَرُ النَّاسِ إِلا كُفُورًا﴾ (الإسراء:٨٥-٨٩)

يتضح من الآيات الكريمة أنها تتحدث عن القرآن المجيد، فتجيب من يتساءل عن مصدره بأنه من عند الله تعالى، وأنه لا دخل لأحد غير الله به.. فهو روح وهو من أمر الله مصدرا ونزولا وحفظا، وهو نعمة جليلة، بل هو أعظم نعمة على البشرية. إن علم البشر محدود، ولا سبيل لارتقائهم في المجال الروحي إلا بهداية السماء وما يتنَزل من وحيها، ولو أنهم حُرموا منه لما استطاعوا أن يجدوا بديلا عنه ليرسم لهم منهج الحياة الذي يحقق لهم الهدف من وجودهم، ويوجههم إلى سعادة الدنيا والآخرة. إنه من عند العليم الخبير، ولا يمكن أن يأتي العالم كله.. إنسه وجنِّه.. بمثله أبدا.. ولو تضافرت علومهم وجهودهم. ومع أن هذه حقيقة بيّنة لكل ذي لُب، إلا أن أكثرهم للأسف ينفرون ويصدون.

لنتأمل قوله تعالى: ﴿صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ﴾ وقوله: ﴿فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ﴾. فالقرآن وحي الله إلى النبي ﷺ.. موجه إلى الناس.. جميع الناس بلا استثناء.. بِصِنْفَيْهم.. القادة والعامة، أي الإنس والجن. ويؤكد ذلك أن التحدي جاء موجهًا للفريقين.. أي لجميع المخاطبين به، ليبين لهم جميعا أنه لو اجتمعت جهود الإنس على كثرتهم.. والجن على قدراتهم وتفوّقهم.. لا ينجحون في الإتيان بمثل القرآن منهجا إلى الله تعالى، يحقق سعادة الدنيا والآخرة. ويلاحظ أن ذكر الإنس جاء لأول مرة

قبل الجن، ذلك لأن جماعة المشعوذين أوهموا الناس أنهم يستعينون بقوًى خفية وأرواح مستترة تُسِرّ إليهم بأسرار الغيب والعلوم. فجاء التحدي للإنس ومن يدّعون بأنهم أعوان لهم من الجن.

والآية بوجه عام توجه التحدّي البليغ إلى كل الناس: عامتهم وخاصتهم، جمهورهم وصفوتهم، شعوبهم وقادتهم.. أن يأتوا بمثل هذا القرآن معنًى ومبنى.. مصدرا وأثرا.. صدقا وشرفا.

ولو كان الجن من جنس يختلف عن جنس الإنس، فكيف يمكن لكل الإنس وكل الجن أن يجتمعوا على أن يأتوا بمثل القرآن، كما هو مذكور في التحدّي الذي تُوجّهه الآية؟ وكيف يستقيم التحدّي لجنسين مختلفين من المخلوفات التي لا تتعامل مع بعضها البعض وليست على معرفة تامة بقدرات وخواص وخصائص بعضها البعض؟ إن الأمر لا يستقيم، ولا يقوم التحدّي، إلا إذا كان كل من الإنس والجن هم بالفعل من البشر الذين نزل إليهم القرآن.

* * *

سورة الكهف

■■ وفي سورة (الكهف) قال الله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلائِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إلا إِبْلِيسَ.. كَانَ مِنَ الْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ. أَفَتَتَّخِذُونَهُ وَذُرِّيَتَهُ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِي.. وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌّ؟ بِئْسَ لِلظَّالِمِينَ بَدَلاً﴾ (الكهف: ٥٠)

بعد أن تناولت السورة موضوع أهل الكهف كمثال طيب للفتية المؤمنين الذين آثروا حياة الكهوف والعزلة على الكفر والمتع الدنيوية، ثم ضربت مثل صاحب الجنتين واغتراره بما أوتي من مال وولد، وذكرت مثل الحياة الدنيا، وبيَّنت مدى حقارتها كهدف يجري خلفه عُبّاد المادة، وأشادت بقيمة العمل الصالح الذي يبقى أثره.. حذّرت السورة أمّة محمد ﷺ من الانقياد إلى دعاة المادية، والاغترار بالمتع الدنيوية.. وما فيها من جاه أو سلطان. ثم استطردت تذكرهم بإبليس وموقفه من آدم عليه السلام.. إذ رفض الإذعان لأمر الله تعالى، وتمرّد على الهدي الإلهي الذي جاء به آدم.

هذا المغرور المتكبر، المحرّض على الشر، الرّافض لتعاليم السماء، المثل السيء لكل عاصٍ من بعده، والأسوةُ القبيحة لكل ضال، هل يليق بعاقل أن يتخذ منهجه ومسلكه بديلا لمنهج الله؟ إنه أعلن عداوته للحق والخير والهدى، فهو عدو لكل فضيلة، مخرب لكل صلاح.. فمن ذا الذي يتخذ من عدوه صديقا، ويترك خالقه ورازقه ومحبَّ الخير له؟ إن من يفعل ذلك لهو أحمق ظالم لنفسه حقا.. إذ يشترى الضلالة بالهدى، والعذاب بالمغفرة، والشقاء بالنعيم!!

إن منهج الله عز وجل يُراد به سعادة البشر في حياتهم الدنيا وفي الآخرة.. أما مناهج زعماء الكفر والإلحاد والمادية والفوْضوية والنفعية والاستغلال، ومستغلي الشعوب ومضلليهم،

ومصّاصي دماء العامة ومستعبديهم، فبضاعتهم مُنتِنة، لا تورثهم جميعا إلا الهلاك والخلود في التعاسة والشقاء. إن صلاح الدنيا وسلامها لا يمكن أن يتحقق بالموالاة لهؤلاء الأبالسة، الذين لا يعنيهم من الأمر كله إلا شهواتهم المادية، ومراكزهم الدنيوية، التي تخوِّل لهم السلطان والتسلط والشهرة، وتسيير دفة الأمور وتقدم الصفوف ولفت الأنظار. ومن ورائهم أهل النفاق من آكلي الفضلات والرمم.. يتملقونهم وينفخون في باطلهم بين الناس، ويحصلون بذلك على شيء من الفتات. أما ما يصيب الناس بعد ذلك فلا يعنيهم أبدا. إنهم لا يرفعون شعارا إلا لتخدير العامة وتضليلهم، ولا يسُنون قانونا ولا يسلطون أجهزة أعلامهم وزبانية شرطتهم.. إلا حفاظا على مصالحهم، ودعما لهيبتهم، ومسايرة لأهوائهم وشهواتهم. ولا يدخلون حربا إلا إرضاء لغرورهم، أو طمعا في إغتصاب ما بيد غيرهم، أو كسبا لمواقف سياسية كاذبة.

كيف لعاقل أن ينسى ما فعله إبليس "الزعيم الأول".. مع آدم "النبي الأول"؟ إن الآية الكريمة تنبه الناس ليعرفوا الفرق بين إبليس وآدم. إن آدم وخلفاءه مرايا للكمالات الإلهية. وإبليس وذريته تماثيل وأصنام الغطرسة والكِبر، واستعراض القوة والسلطة، والتضليل بكاذب من الوعود وباطل من الأماني ذات الرنين المدَوِّي.. والمضمون الأجوف الفارغ من الصدق والخير!! ما أتعس ذلك الذي لا يُفرق بين الأبالسة في ثيابهم الثمينة، وكلماتهم المعسولة المسمومة.. وبين أهل

السماء في تواضعهم وصدقهم، وفي تقواهم وطهرهم، وفي ترفعهم عن الماديات والدنايا، وفي زهدهم في طلب السلطان والعلو في الأرض، وفي تمسكهم الفعلي بمنهج الله، وفي قدوتهم الطيبة لما يدعون إليه من خير.

ويلاحظ هنا أن القرآن وصف أتباع المنهج الإبليسى بأنهم (ذريته).. لأنه قائدهم الأول، فهو منهم بمنْزلة الوالد وهم الأبناء.. وذلك مماثلا لوصف الناس بأنهم بنو آدم باعتباره معلمهم وإمامهم الأول إلى الهدى والخير.. وأنهم مكلفون باتّباعه وطاعة منهجه، فهو كوالدهم وهم بنوه.

وقوله تعالى ﴿اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ يعني تكليف الملائكة بالعمل في خدمة الرسالة التي يقوم بها آدم.. فهو سجود تكريم وتبجيل وتأييد. وصدور الأمر للملائكة هو الخطوة التنفيذية الأولى في المشروع الذي قدَّره الله في قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾.. ولابد أن يتضمن بعث آدم ودخول الجميع.. الإنس والجن.. في نطاق التكليف بطاعته، لأن هذا هو الأصل والمراد. ويتضح ذلك من قوله ﴿فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ﴾، وهذا يعنى أن إبليس.. والجن الذي هو منهم.. قد صدر لهم الأمر الإلهى بالطاعة والخضوع عن طريق الدعوة النبوية من آدم.

كما أن الآية تميز بين صنفين من البشر، صنف أسمى من الملائكة، أطاعوا أمْر الله فأمَر الله الملائكة بالسجود معهم تأييدا ومؤازرة من أجل ازدهارهم وفلاحهم. وهؤلاء هم آدم وبنوه.

وصنف آخر سقط حتى صار أحط من الإنعام، فرفضوا طاعة الله، وهؤلاء هم إبليس وذريته.

* * *

سورة النمـل

■■ وفي سورة (النمل) يقول الله تعالى:

﴿وَأَلْقِ عَصَاكَ. فَلَمَّا رَءَاهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ. يَا مُوسَى لا تَخَفْ، إِنِّي لا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ﴾ (النمل: ١٠)

كعادة الأنبياء.. مر موسى ﷺ بعديد من التجارب الروحية، ذكر القرآن بعضها، وهي من الوحي الذي يكلم الله به المصطفين من عباده. وفي هذه التجربة رأى موسى في الكشف.. أثناء رحلة العودة مع أهله من سيناء.. أن هناك نارا، فلما جاءها ناداه الله تبارك وتعالى وأمره أن يذهب إلى فرعون لإنقاذ قومه بني إسرائيل من نير فرعون واضطهاده لهم. ووهب الله سيدنا موسى آيات تؤيده في مهمته، وفي نفس الوقت تدله على كيفية القيام بها. وكانت عصا موسى واحدة من هذه الآيات، تعينه على إثبات صدقه.

وما يعنينا في هذا البحث هو ما جاء في الآية الكريمة وصْفًا لعصا موسى التي ألقاها فإذا هي ﴿تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ﴾، وفي آية أخرى ذكر الله تعالى أن موسى ألقى العصا ﴿فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى﴾

(طه:٢١)، فإطلاق اسم الجان على الحيّات والثعابين التي تتميز بالاختفاء عن الأنظار.. يدل على أن الكلمة لا تطلق على الأرواح الشريرة فقط كما يتصور بعض الناس.. وإنما تطلق أيضا على الثعابين والحيّات وغيرها من الدواب والحشرات المشابهة، التي من طبيعتها الاستتار والاختفاء.

وبعد ذلك جاء في السورة نفسها –سورة النمل– قول الله تعالى:

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودَهُ مِنَ الجِْنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (النمل:١٧)

وبغير الدخول في تفاصيل سوف نخصص لها فيما بعد إذا شاء الله حلقة خاصة في سلسلة الأخطاء الشائعة عن داود وسليمان عليهما السلام.. نكتفي هنا بالقول إن الجن كانوا من جنود سليمان. وليست الجن هنا هي تلك المخلوقات الخرافية التي يتوهم الناس وجودها، وإنما هم المهرة من الجنود الذين يستطيعون القيام بالمهام الخاصة، أو هم من قبائل الجبال المشهود لهم بالصلابة والبأس والمهارة القتالية. ولعله من المفيد هنا إعادة ذكر تلخيص معنى (الجن) الذي ذكرناه في الكلام عن سورة الأنعام، وهو:

١) كل ما من طبيعته الاستتار والاستخفاء عن العيون أو عدم اختلاطه بالناس والعامة.

٢) كل ما من صفاته أن يستر غيره.

٣) كل ما من شأنه أن يلفت الانتباه ويجذب الأنظار.

٤) كل ما يتميز على أقرانه.. إما لاستعلائه أو لتكبره أو لمهارته في أمر من الأمور.

فالمهرة من الجنود يتميزون على أقرانهم بالمهارة، وهم بهذه الصفة ينطبق عليهم لقب (الجن). وقد يكون هؤلاء من ذوي المهارات الخاصة في الإنشاءات، أو بلغة العصر "سلاح المهندسين" أو "الفرق الخاصة"، التي يُسند إليها القيام بأعمال خاصة وتسهيل مهمة الجيش المقاتل. كذلك يمكن أن يكون (الجن) في جيش سليمان هم الأشداء من سكان الجبال، فإن من طبيعة هؤلاء أنهم لا يختلطون عادة بسكان المدن، بل يعيشون في عزلة عن الناس.

* * *

سورة السجدة

■■ وفي سورة السجدة يقول الله تعالى:

﴿وَلَوْ شِئْنَا لأَتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا.. وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِّني لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة:١٣)

تناولت الآيات السابقة في هذه السورة ذكر مُنكري لقاء الله يوم الحساب، وموقفهم المخزي الذليل يومئذ، حيث يلتمسون الرَّجعة إلى الحياة الدنيا.. لعلهم يعملون صالحا، ويُكَفِّرون عما

سلف منهم، إذ يقول تعالى:

﴿ذَلِكَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ۞ الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلا مَّا تَشْكُرُونَ ۞ وَقَالُوا أَئِذَا ضَلَلْنَا فِي الأَرْضِ أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ بَلْ هُمْ بِلِقَآءِ رَبِّهِمْ كَافِرُونَ ۞ قُلْ يَتَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ ۞ وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ رَبَّنَآ أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ ۞ وَلَوْ شِئْنَا لآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَمْلأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ (السجدة:٧–١٤)

ولنتركهم في أمانيهم الباطلة، ولنتدبر في الآية الأخيرة ذلك الإعلان الدستوري العالمي العظيم، إعلان حقوق الإنسان في ناحية الفكر والضمير والعقيدة. يُعلنه الله من فوق سبع سماوات، ويستنه لنا رسول الإسلام ﷺ.

يقول الله جل ثناؤه: إني خلقت الإنسان حُرًّا مفكرا مختارا مريدا.. إن شاء آمن بي، وإن شاء كفر. إن شاء دخل في الإيمان وإن شاء عدل عنه. فلو كانت مشيئتي أن يكون البشر جميعا من المهتدين العاملين حسب منهجي.. لخلقتهم جميعا كذلك، ولفَطَرْتهم على الهدى وجبلتهم على

الطاعة، ولكن كمال حكمتي اقتضى أن يكون من بين خلقي كائن حر مُريد، يختار محبتي ورضاي وطاعتي عن فهم مقامي وإدراك أسمائي الحسنى.. فيطمع في ثوابي ويهاب جلالي، ويطلب كمالاتي ويهوى جمالي. لذلك خلقت بشرا.. سويته بيدي وأكملته بروحي، وأطلقت له العنان في أرضي ورزقي. فإن هو اختار منهجي فبها ونعمت؛ حقق الهدف من خلقه وفاز برضاي ولأدخلنه جنتي. وإن هو اختار الكفر والفسوق والعصيان.. فبعزتي وجلالي لأدفعنه في جهنم وبئس القرار. الإنسان له مني حرية العقيدة.. أما الجزاء فهو حقي وحدي.. فأنا مالك يوم الدين، لا شريك لي في حساب خلقي.. أغفر لهم أو أعذبهم في الدنيا أو في الآخرة أو كيف ما شئت.. لا يملك الجزاء سواي. ومن ادّعى لنفسه حق مجازاة أحد على كفره أو عقيدته فقد نازعني مالكيتي وخالف إرادتي.

ويقول الله في الآية الكريمة إن الجزاء بيده، ولن يفلتَ منه وجيهٌ لجاهه.. ولا حاكم لسلطانه.. ولا ثري لماله. كما أن التابع والمحكوم والضعيف والفقير لن يفلتوا من العقاب بسبب أوضاعهم الاجتماعية. فالمنهج الإلهي مسئولية الجميع، والكل حر في اتباعه، والكل مسئول عن ذلك أمام صاحب المنهج وحده. والنعيم للجن والإنس، وجهنم للجِنة والناس أجمعين.

والآن، لو أن الجِنة صنف من الخلق غير البشر، فما مناسبة ذكرهم ههنا؟ إن الآيات السابقة

تتحدث عن بدء خلق الإنسان، وتكاثره، ونفخ الروح فيه، وتزويده بأدوات الإدراك، ثم كُفرانه بنعم الله وإنكاره الحساب، ثم موته وبعثه وحسابه. فأين دور الجِنَّ في كل هذا.. وسياق الحديث كله عن الإنسان؟

ثم تحدثت السورة عن المؤمنين وصفاهم وجزائهم.. دون أن تتعرض لخلقٍ يخالف البشر. وهل من المعقول أن تحشر الآية القرآنية ذِكر الجِنّة هنا من غير سبب؟ الحق أن الجِنة هم من البشر.. ولكنهم صنف متميز بموقعه الاجتماعي والسياسي.. مما قد يتوهمون به أن لهم امتيازًا في الآخرة، فلا يحاسَبون أو لا يعاقَبون، كما ظن أولئك الذين قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودة، اعتمادا على فوقيّتهم المزعومة على غيرهم من الناس، وظنا بأنهم شعب الله المختار الذي فضّله الله على العالمين. والآية تؤكد على أن جهنم عقاب لهم قبل العامة من الناس العاديين.

* * *

سورة سبأ

■■ وفي سورة سبأ يعدّد القرآن بعض نِعم الله على سليمان ومن قبله على أبيه داود عليهما السلام، فيقول:

﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا دَاوُدَ مِنَّا فَضْلاً، يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ، وَأَلَنَّا لَهُ الحَدِيدَ ۞ أَنِ اعْمَلْ

سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ، وَاعْمَلُوا صَالِحًا، إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ۞ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ، وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ، وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ، وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ، اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا، وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۞ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَآبَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ: ١٠-١٤)

تناولت سورة سبأ موضوع العلم الإلهي الذي لا تغيب عنه صغيرة ولا كبيرة في السماوات أو في الأرض، وأشارت إلى أن بعض الناس يظنون أن ساعة حسابهم لن تأتي أبدا، وأن عقابهم على ما اقترفوا من شر غير وارد. فتلفت السورة أنظارهم إلى أن القوة والازدهار والرخاء لا يدوم لمن يُفسد في الأرض، وأن نزول العذاب المهلك أقرب إلى المفسدين مما يتخيلون، وعليهم أن ينظروا فيما يدور حولهم من مظاهر قدرة الله في السماء والأرض.. ليرتد إليهم نظرهم بالآيات البينات على قدرة الله الذي لا يعجزه شيء.

ثم ذكرت السورة ما وصلت إليه بعض الأمم السابقة من تقدم وازدهار.. ولكنهم عندما

خالفوا منهج السماء تبدل حالهم، وزال عنهم عزهم ورخاؤهم. وليس هذا القَصص من باب تسجيل أحداث التاريخ أو من قُبيل التسلية، بل هو بشارة وتحذير للمسلمين.. يبشرهم بما قُدِّرَ لهم من العلو والازدهار، ويحذرهم من الوقوع فيما وقعت فيه الأقوام السابقة حين انحرفت عن منهج الله بعد ازدهارها.. فيصيب المسلمين ما أصاب تلك الأمم. وكانت من هذه الأمم أمة بني إسرائيل، التي ملك عليها داود عليه السلام، وتوطد ملكه في منطقة فلسطين وما حولها.

ولا شك أن هناك الكثير في الآيات المذكورة مما يحتاج للشرح والإيضاح، ولكن ليس موضعه في هذا البحث. فما يتعلق بموضوع هذا البحث في هذه الآيات هو أن (الجن) كانوا يعملون بين يدي سليمان عليه السلام.. أي تحت إمرته، حتى إن من يُقَصر منهم في أداء واجباته أو يخل بمسئولياته كان يتعرض لعقاب شديد. وكان الجن يعملون له ما يشاء من محاريب، وتماثيل، وجفان كالجواب، وقدور راسيات. والمحاريب جمع محراب وهو القصر أو المعبد، والجفان جمع جفنة وهي الإناء الذي يؤكل فيه الطعام، والجواب هو ما يُخزن فيه الماء، أي أن أواني الطعام كانت ضخمة ليأكل منها عدد كبير من الجند، والقدور الراسيات هي القدور التي يُطبخ فيها الطعام، وهي راسية لا تتحرك بسبب ضخامة حجمها.

ومن الواضح أن هؤلاء (الجن) كانوا هم العمال المهرة.. والبنائين.. وصانعي القدور الضخمة.

وكانت العادة في تلك الأزمنة أن الجيش المنتصر يقتل أهل البلاد المنهزمة ويُبقي على من يستطيع الإفادة منه في خدمة الدولة وجيشها المنتصر. وكان هؤلاء الأسرى يؤدون أعمالهم وهم مُقرّنين في الأصفاد، حتى يُؤمَن شرّهم من ناحية، ومن ناحية أخرى.. حتى لا يهربوا من السُّخرة والعمل الشاق الذي كانوا يُجبَرون على القيام به وأدائه رغم أنوفهم، ومن يحاول الهرب أو يمتنع عن العمل أو يزغ عن الأوامر التي تصدر إليه، كان يتعرض لأشد أنواع العقاب والعذاب المهين. ولا شك أن هؤلاء الأسرى كانوا دائما مصدر خطرٍ نظرا لأعدادهم الكبيرة التي تزيد بالطبع عن عدد من يُراقبونهم، ولذلك كانوا يعيشون في عزلة عن بقية الناس. ورغم هذا فكان هؤلاء الأسرى ينتهزون كل فرصة لقتل المراقبين والفرار من الأسر إلى الجبال. وبسبب الأخطار التي كانت تنجم عن هؤلاء الأسرى.. أطلق عليهم القرآن الكريم في سورة (ص) صفة الشياطين فقال:

﴿فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۞ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَّغَوَّاصٍ ۞ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ﴾ (ص:٣٦-٣٨)

ولو كان هؤلاء (الجن) و (الشياطين) هم تلك الخيالات التي يتوهمها الناس، والتي تستطيع أن تختفي عن الأنظار، فكيف يمكن تقييدها في الأصفاد والأغلال؟ وإذا كان الأدعياء الذين يدّعون أن بقُدرتهم السيطرة على الجن والشياطين بواسطة تهديدهم بالتعاويذ التي يزعمون أنهم يعرفونها

ويتمتمون بها، أما كان سيدنا سليمان هو الأَوْلى بمعرفة تلك التعاويذ المزعومة فيقرأها عليهم ويسيطر عليهم دون الحاجة إلى وضعهم في الأصفاد؟ وإذا كان يمكن تقييد الجن والشياطين بواسطة القيود والأغلال والأصفاد، فلماذا لا يقوم أحد أولئك الأدعياء الذين يزعمون السيطرة على الجن والشياطين بعرض بعض هؤلاء الجن مُقرَّنين في الأصفاد، فنرى.. على الأقل.. الأغلال تتحرك بحركة الجن أو الشيطان المقيد، رغم أننا قد لا نستطيع أن نراه شخصيا حسب ما يزعمون؟ أم أن هناك قيودا خاصة من مادة غير مرئية هي الأخرى.. تُستخدم في تقييد الجن والشياطين؟ تعالى الله وعز وعلا كلامه عن الخرافة والوهم والدجل!

ثم نأتي إلى الآية الأخيرة في مجموعة الآيات المذكورة عاليه، والتي أكثر المفسرون في الكلام عنها بما ساعد على انتشار الخرافات في أذهان الناس عن خصائص تلك الخيالات الأسطورية التي جعلها المشعوذون حقيقة يبتزون بها أموال البسطاء من الناس. يقول تعالى:

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَآبَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنْسَأَتَهُ، فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾ (سبأ: ١٤)

فقد زعم بعض المفسرين أن سليمان عليه السلام كان يُراقب الجن والشياطين الذين يعملون بين يديه وهم مُقيدين في الأغلال، وكان يقف وهو يرتكز على عصاه.. إلى أن وافاه الأجل ومات. ولكنه

بعد وفاته ظل واقفا لأن جسمه كان يرتكز على العصا فلم يسقط على الأرض. وظل على هذا الوضع مدة طويلة، فظنت الجن والشياطين أنه كان لا يزال على قيد الحياة، فاستمروا في العمل الشاق الذين كانوا يؤدونه في أغلالهم. ولكن حشرة من حشرات الأرض جاءت وأخذت تقرض العصا التي كان يرتكز عليها جسد سليمان الميت، ومع استمرار قرض العصا، اختل توازن الجسد الميت فسقط على الأرض. وحينئذ تبينت الجن أنهم لو كانوا يعلمون الغيْب.. لما لبثوا في هذا العذاب المهين.

ولن نخوض هنا في التفسير الذي نراه صحيحا يتفق مع ما لكلام الله تعالى من السمو والقدسية، فإن هذا مكانه في الحلقة الخاصة عن سيدنا سليمان من سلسلة "أخطاء شائعة". ونكتفي هنا بإلقاء بعض الأسئلة لهؤلاء الذين يعتقدون في وجود تلك الكائنات الأسطورية من الجن والشياطين. هل كانت الجن والشياطين ترى سيدنا سليمان طوال مدة عملها وهي مُقيّدة في الأغلال؟ وهل ظل سليمان واقفا لا يتحرك أثناء مراقبته الجن والشياطين؟ أما كان يجلس للراحة؟ أما كان يذهب لتناول الطعام؟ أما كان يذهب لقضاء الحاجة أو للإغتسال؟ أما كان يقضي بعض الوقت في الصلاة وعبادة الله تعالى؟ أما كان ينال قسطا من النوم؟ ولماذا كان يتحتم على سليمان أن يراقب الجن بنفسه؟ أما كان له أعوان ومساعدون وجنود لمراقبة الجن والشياطين؟ وهل ترك

سليمان شئون الدولة ومسئوليات الحكم وتفرغ لمراقبة الجن والشياطين؟ وإذا افترضنا أن سيدنا سليمان كان يقوم بهذه المهام كلها.. سواء ما كان منها من مقتضيات البشرية، أو ما كان منها من مقتضيات الحكم.. أثناء فترة الراحة التي يستريح أو ينام فيها الجن والشياطين فيتوقفون عن العمل، ألم يلاحظوا سيدنا سليمان وهو يقف في نفس المكان، وفي نفس الوضع، في اليوم التالي ثم اليوم التالي وهكذا بعد أن توفاه الله إلى أن قرضت دابة الأرض العصا التي كان يرتكز عليها؟ وأين كان رجال البلاط الملكي؟ ألم يُلاحظوا هم أيضا أن سليمان عليه السلام قد توفاه الله قبل أن تأكل دابة الأرض منسأته؟ ألم يكن لسليمان أزواج وأولاد يرونه كل يوم؟ هل غاب عنه كل البشر في مملكته فلم يدرك أحد منهم أنه قد مات؟

إننا نترك هذه الأسئلة لمن يؤمن بوجود الكائنات الأسطورية لكي يجيب عليها.. إذا كان يستطيع الإجابة عليها، ونكتفي هنا بما تقوله الآية الكريمة عن الجن، وهو أنهم لم يكونوا يعلمون الغيب، مما ينسف نسفا كل الشعوذات الباطلة التي يتشدق بها أدعياء وجود الكائنات الأسطورية. إن الغيب لا يعني فقط أمور المستقبل، ولكن كل ما غاب عن نظر وعلم وسمع المرء فهو غيْب. وبالتالي فإن ذلك الكائن الخرافي الذي يزعم الأدعياء تسخيره.. لا يستطيع عمل شيء مما يتعلق بأمور الغيب، ناهيك عن أمور المستقبل بطبيعة الحال.

وتستطرد سورة سبأ فتذكر أن من الأمم التي غفلت عن شكر نعم الله عليهم أهل "سبأ". كانت لهم وفرة في الثمار، بطيب المقام.. ولكنهم قابلوا النعمة بالجحود والركون إلى الترف والملذات، فسلب الله منهم ما لم يحفظوه، وانهار لهم "سد مأرب" الهائل.. الذي كان يحفظ لهم الماء للشرب والري، وتحولت جنتهم إلى أرض جدباء لا تنبت إلا الخبيث من الثمر.

إن الذين ساقهم الثراء والنعيم إلى الاغترار والركون إلى المتاع والتراخي عن الجهاد في الحياة.. أولئك نسوا منهج الله واتبعوا منهج إبليس. والذين يتنكبون عن طريق الأنبياء ويسلكون طرق الشهوات لا مهرب لهم من السقوط والدمار. إن نزعات الشر ودعوات الهدم والفساد لا سلطان لها على المؤمن التقيّ المتسربل بلباس التقوى. ولكنها تنال من أولئك الذين يركنون إلى الشهوات ويتكالبون على حطامها. وفي المثلين القرآنيين السابقين بيَّن لنا الله سببين أساسين لسقوط الأمم وزوال عزها ومجدها: أولهما- التراخي والتهاون والتسيُّب في الأخذ بالمنهج الإلهي؛ وثانيهما- الاغترار بما في اليد من نعم، والإعراض عن صونها بالشكر للمنعم والتمسك بحبله كي يحفظها عليهم. وفي ذلك تنبيه وتحذير لأمة المصطفى ﷺ حتى لا يصيبهم ما أصاب بني إسرائيل وسبأ. وليْتهم.. ليتهم تنبهوا ووعوا الرسالة!!

وفي سورة (سبأ) أيضا جاء قول الله جل وعلا:

﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلاَئِكَةِ: أَهَؤُلآءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ ۞ قَالُوا: سُبْحَانَكَ! أَنتَ وَلِيُّنَا مِنْ دُونِهِمْ. بَلْ كَانُوا يَعْبُدُونَ الجِنَّ. أَكْثَرُهُم بِهِم مُّؤْمِنُونَ﴾ (سبأ: ٤٠)

فسَّر الرسول الأكرم ﷺ قول الله في اليهود:

﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّنْ دُونِ اللهِ﴾ (التوبة: ٣٠)

بأن الأحبار والرهبان حللوا وحرَّموا لهم على خلاف ما جاء من الله، فأطاعهم العامة واتبعوهم. فالطاعة الكاملة هي العبادة، ومن استجاب طاعةً فقد عبد من أطاعه.. ذلك بالطبع في الأمور الدينية التي لله فيها شرْع وتوجيه واجب الطاعة قَبل توجيه وشرع كل من سواه.

أما الطاعة المطلقة والانقياد التام والاتباع الكامل.. فلا يكون إلا لله تعالى، من خلال طاعة أنبيائه، مصداقا لقوله سبحانه:

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (النساء: ٦٤)

ومثل هذه الطاعة تكون على بصيرة كما قال تعالى:

﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي. أَدْعُو إِلى اللهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾ (يوسف:١٠٨)

والملائكة جند الله تعالى، يتنزلون بوَحيه ومنهجه إلى الناس. وهم أيضا الشهداء على خلقه الموكلين بهم. ومن تأثيراتهم أنهم يساعدون الذين يمدّون أيديهم إلى الله.. يريدون هديه ويجدُّون في

طلب مرضاته. ومن ثَمَ فهم لا بد وأن يُدلُوا بشهادتهم أمام ذي العرش العظيم.. يوم يجمع الله الملائكة والرسل والناس. وسوف يُسألون: هل أطاع هؤلاء المقصرون المفرطون في مسئولياتهم توجيهاتِكم التي بعثتُكم بها إليهم؟ هل سعوا إلى طلب هداي ومنهجي، ومدُّوا أيديهم يسألون عوْني؟

وتجيب الملائكة الموكلة بهم. لا يا ربنا، إنهم ما أطاعونا وما استجابوا لتأثيرنا.. لأنهم كانوا مستسلمين تماما لغير ذلك. وما كانت بيننا وبينهم علاقات ولاية ومحبة.. بل كانوا ينفرون منا، وكنتَ أنت سبحانك وليّنا من دونهم. إنهم لم يُتمّوا سلسلة الولاية التي تمتد من الله إلى الملائكة ثم إلى الناس، ليتم الاتصال بين الأرض والسماء. يا رب! إن هؤلاء كانوا أصنافا متعددة: منهم المترفون الفراعنة الذين استسلموا لشهوات باطنة خفيّة من حب السلطة والجاه والمنصب والملذات الدنيوية والمتع المادية، وكانت هذه المؤثرات تغطي عيونَهم وتُخفي عنهم نور الحق. إنهم كانوا يعبدون (الجن). ومنهم من عطلوا ملكاتهم وإرادتهم واستسلموا تماما لساداتهم من الحكام والقادة وكهنة الدين الذين كانوا يصدون الناس عن الهدى بعد إذ جاءهم، ولم يحاولوا من جانبهم أن يفكروا ويعقلوا، وساروا من وراء كبرائهم مغمضين خاضعين طائعين مستمرئين لعاعات الدنيا. إنهم يا رب كانوا يعبدون (الجن). ومنهم الجهلة الذين كانوا يصدّقون المشعوذين والدجالين،

فيزعمون لهم أنهم قادرون على جلب نفع أو دفع مضرة. إنهم كانوا يعبدون (الجن).

إن الانقياد لتأثيرات الخير الملائكية ليس من قبيل الاستسلام الأعمى.. بل هو من توافق الإرادة البشرية مع الفعل الملائكي، وهو ليس عبادةً للملائكة.. وإنما هو طاعة لله تعالى. ولذلك لا يوجَّه السؤال إلى الملائكة بشأن هذا النفر الكريم المؤمن من البشر، وإنما السؤال بخصوص عبدة الجن الغافلين عن الجذب الملائكي.

وخلاصة القول: إن الملائكة يشهدون بأن أهل النار قد سلكوا طريقا مخالفا للطريق الذي تعمل الملائكة في تمهيده ودعوة الناس إليه، وأنهم ساروا في طرق سادتهم، متبعين هواهم وشهواتهم.

* * *

سورة الصافات

■■ وفي سورة (الصافات) يقول الله تعالى:

﴿وَجَعَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ الجِنَّةِ نَسَبًا. وَلَقَدْ عَلِمَتِ الجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ ۞ سُبْحَانَ اللهِ عَمَّا يَصِفُونَ ۞ إِلاَّ عِبَادَ اللهِ الْمُخْلِصِينَ﴾ (الصافات:١٥٨-١٦٠)

إفتتحت السورة الكريمة بقَسَم يؤكد على أن الله تعالى إله واحد، فقال تعالى:

﴿وَالصَّافَّاتِ صَفًّا ۞ فَالزَّاجِرَاتِ زَجْرًا ۞ فَالتَّالِيَاتِ ذِكْرًا ۞ إِنَّ إِلَهَكُمْ لَوَاحِدٌ ۞ رَبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَرَبُّ الْمَشَارِقِ ۞ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۞ لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۞ إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۞ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَّنْ خَلَقْنَا إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِنْ طِينٍ لازِبٍ﴾ (الصافات:٢-١٢)

والقسم استشهاد واستدلال على صدق القضية. فلو أن أحدا أقسم قائلا: والله إني فعلت كذا.. فمعنى ذلك أنه يستشهد بالله ذي العلم والقدرة على أنه صادق فيما قال.. ولو أنه كان كاذبا لعلم الله كذبه، وهو قادر على عقابه إذا حنث. ولا بد أن يكون السامع متفقا مع الحالف في استشهاده هذا.. وإلا كان اليمين لغوًا لا قيمة له. والله تعالى عندما يُقسم فإنه يدلل للمخاطبين بالقرآن على صدق جواب القسم، ويكون ذلك بتقديم حقيقة كونية أو حدث مستقبلي سوف يقع.. ليكون دليلا يُقاس عليه للتعرف على صدق ما ورد في القسم.

وفي هذه السورة أقسم الله بالجماعة الإسلامية المحمدية الأولى وترابُطها القوي، ووقوفها في وجه أعداء الله، واستمساكها بالمنهج القرآني.. كدليل على وحدانية الله تعالى الذي تكونت هذه الجماعة بعونه، وتحت رعايته، وجاهدت باسمه.

وأشارت الآيات إلى أن المصطفى ﷺ وأصحابه وخلفاءه المجددين.. شهب تماثل تلك الشهب التي تحمي السماء من أن يخترقها أحد. إنهم شهب روحانية، يحمون سماء الوحي الإلهي من التحريف والتزوير.. بفعل الشياطين المتمرّدة على منهج الله.. من المنافقين والكفار والمشعوذين والدجالين.

وأنذرت الآيات الكافرين من عذاب الله الأليم، ووجهت أنظارهم إلى ما جري للأمم السابقة التي رفضت أنبياءها، ووقفت في سبيل دعوتهم.. مثل أقوام نوح وإبراهيم وموسى وإلياس ويونس ولوط عليهم السلام. وأخبرت السورة بما ينتظر الأمة الإسلامية من خير عظيم. واستنكرت السورة تقديس الأصنام والأوثان وقُوى الطبيعة، وتقديس البشر أو الملائكة على وجه الخصوص، واستنكرت القول بأن لهذه الكائنات صلةَ بُنُوّةٍ أو قرابة بالله تعالى. فهناك من زعم أن لله ولدا، أو أن الملائكة بنات الله!!

كيف تكون لهذه المخلوقات صلة نسب بالله تعالى، وهم جميعا يعلمون أنهم خاضعون لقهر الله وسلطانه؟ إن الملائكة جند الله المسَخّرون لأمره، لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون. وقوى الطبيعة مخلوقات تسير وفقا لقَدره.. ولا تملك من أمرها شيئا. وقادة الضلال وسدنة الأوثان ومن على شاكلتهم من الزعماء الفاسدين والقادة المضلين ورجال الدين المنحرفين.. أي

الجن.. يعلمون جميعا أنهم خلق ضعيف عاجز أمام قَدَر الله وسُنته الجارية في مخلوقاته.. من جوع وشبع، ومرض وصحة، وحياة وموت.. وإن تظاهروا بغير ذلك فخداع وكذب، لأنهم في حقيقته أمرهم وقرارة أنفسهم يعلمون ذلك. فالجن جميعا خلق الله جل وعلا، وليس له صلة نسب عضوي بأحد من خلقه.

* * *

سورة فُصّلت

■■ وفي سورة (فُصلت)، قال تعالى:

﴿وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَآءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ. وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: لاَ تَسْمَعُوا لِهَذَا الْقُرْءَانَ وَالْغَوْا فِيهِ لَعَلَّكُمْ تَغْلِبُونَ ۞ فَلَنُذِيقَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا عَذَابًا شَدِيدًا، وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَسْوَأَ الَّذِي كَانُوا يَعْمَلُونَ ۞ ذَلِكَ جَزَآءُ أَعْدَآءِ اللهِ النَّارُ. لَهُمْ فِيهَا دَارُ الخُلْدِ جَزَآءً بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ ۞ وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا: رَبَّنَآ أَرِنَا الَّذِينَ أَضَلاَّنَا مِنَ الجِنِّ وَالإِنسِ نَجْعَلْهُمَا تَحْتَ أَقْدَامِنَا لِيَكُونَا مِنَ الأَسْفَلِينَ﴾ (فصلت:٢٥-٢٩)

تناولت السورة إعراض بعض الناس عن القرآن الكريم، وتغاضيهم عما يحمله لهم من تبشير ووعيد، وساقت بعض مظاهر قُدرة الله تعالى وخضوع الكون كله لمشيئته، وضربت أمثلة لأمم

سابقة عارضت منهج الله فنَزَل بهم عقاب استأصل شأفتهم ونجى الله المؤمنين ونصَرهم.

وكشفت الآيات عن السبب الرئيسي وراء فساد هؤلاء. فقالت إن أئمة الكفر وقادة الشر وجدوا لهم أصحابا شجعوهم على الفساد.. بالنفاق والمديح وتزيين الباطل، وسلَّموا لهم قيادهم، واكتفوا بالتصفيق والهتاف لهم. وقنعوا ببعض الفتات من مُتع الدنيا، فاستحقوا جميعا عقاب الله: الأئمة منهم والمقلدون.

ولقد سعى المفسدون من أعداء الإسلام أن يصرفوا الناس عن نبع الماء الشافي من أمراض الكفر، النبع الذي يحمل لهم سر الحياة الأبدية السعيدة. أرادوا أن يصرفوا الناس عن كلام ربهم وهديه وتوجيهاته وتعليمه في كتابه المجيد وقرآنه العظيم.. فحرَّضوا شياطينهم وأذنابهم، وتواصوا فيما بينهم على إثارة الضجيج والضوضاء كلما وُجِدوا في مجلس للقرآن الكريم.. حتى لا يدَعوا فرصة للحاضرين أن يتدبروا معانيه. وهي فكرة شيطانية لا ريب.. دبرها القادة ونفذها الأتباع. ويوم الحساب يدفع الجميع حسابهم.. من خطَّط ومن نفّذ ومن ضلَّ بضلالهم. وتحت لهيب النار يود الضحايا لو كان كبار المدبرين (الجن) وأذنابهم من المنافقين (الإنس) تحت الأقدام تشفيًّا منهم وإذلالاً لهم.. جزاء وفاقا لجرائمهم.

وإذا رجعنا إلى أحداث التاريخ، وجدنا زعماء الكفر من أمثال أبي لهب وأقرانه من زعماء قريش

(الجن).. كانوا يحرضون صعاليكهم (الإنس) ليسخروا ممن يقرأ القرآن. ويحولوا بينهم وبين من يريد الإنصات له.. إما بالتكذيب أو بالهزء أو بالتهديد والوعيد. ويوم (بدر) نزل عقاب الله بهم جميعا، فلم ينج منه صناديد قريش، ولم يسلم منه الأتباع والموالي. لقد هلك يومئذ جِنُّهم وإنسهم. فقد لقي رؤوس الكفر مصارعهم مع الأذناب والأتباع.

ولنتذكر جيدًا أن السورة تعلن في آياتها الأولى لمن يخاطبهم القرآن:

﴿قُلْ: إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ.. يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَآ إِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ..﴾ (فُصلت:٦)

ولو كان الجن من خلق يختلف عن البشر لما صلح للنبي ﷺ أن يخاطب الجن ليقول لهم أنه بشر مثلهم.. إلا إذا كان الجِن صنفا من البشر. وإذا اقتصر الخطاب على الإنس وحدهم فأين بلاغه للجن؟ وكيف يعرفون أنهم مكلفون بالاستماع إلى القرآن والعمل بما جاء فيه.. والخطاب لا يشملهم؟ وكيف يدخلون الإسلام.. وكتابه لا يخبرهم شيئا ولا يوجه إليهم حديثا.. اللهم إلا التهديد بالنار والوعيد بالعذاب؟!!

* * *

■■ أما سورة (الأحقاف) فقد تحدثت عن الوحي القرآني، وفنّدت عبادة الأوثان، بناء على أن الإله الذي يستحق العبادة والطاعة والمحبة.. ينبغي أن يكون إلها خالقا رازقا قديرا عزيزا. أما الأصنام فهي جمادات لا يعترف بها عقل، ولا سند لها من كتاب سابق، ولا دليل عليها من تجربة إنسانية. إن المعبود الذي لا يملك إجابة دعاء، أو دفع بلاء، أو هداية ضال.. لا جدوى منه.

والوحي المحمدي ليس أمرا مبتدعا، فقد جاءت الرسل من قبل لكل الأقوام، ومنهم قوم موسى، وكان لهم كتاب مثيل للقرآن.. إماما ورحمة، وذكرت السورة ثواب الذين استقاموا على منهج الله، وعقاب الذين تنكروا لفضل الوالدين وأنكروا وعيد الله وحسابه.. فتقول:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِم مِّنَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ۞ وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (الأحقاف:١٨)

يقول بعض أدعياء العلم أو المتعالِمين.. إن الجن حقا مكلَّفون بعبادة الله واتباع رسول الإسلام، وإنهم إذا أخفقوا في تحقيق المطلوب فجزاؤهم النار تماما كالبشر، ولكنهم إن أطاعوا وعبدوا الله وأصلحوا فيكفيهم من الأجر أن ينجيهم الله من النار، ولكنه لا يُدخلهم الجنة!!!

ما قدروا الله حق قدره.. إذ يتطاولون على عدله ورحمته، وينسبون إليه هذا الحيْف والظلم المبين!! وها هي الآيات هنا تقرع آذانهم أنه ﴿لِكُلٍّ دَرَجَاتٍ مِمَّا عَمِلُوا﴾.. ومجرد النجاة من العذاب ليست درجات؛ و﴿لِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ﴾.. وليس من الوفاء مجرد النجاة من النار؛ و﴿هُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾. أليس من الظلم أن تُهدر أعمالهم ولا ينالون جزاء إلا مجرد النجاة من النار؟

إن الجن والإنس سواء في نيْل الدرجات؛ سواء في توفيَتهم أعمالهم؛ سواء في نصيبهم من عدالة الله ورحمته. وفي مواضع أخرى من القرآن الكريم نجد الدلائل البينة على أحقية الجن في النعيم وحسن الجزاء، كما أن لهم استحقاقهم من العقاب إن هم أجرموا.

وقصّت السورة كذلك ما جرى لبعض الأقوام من عقاب أليم نتيجة اغترارهم بقوتهم وعلمهم، فأهلكهم الله، ولم تنفعهم تلك النعم التي جحدوها، ولم تنقذهم آلهتهم الباطلة من الهلاك. وقصّت السورة أيضا مثلا من الأمم العاقلة الذين نفعتهم الذكرى، وتفهَّموا آيات الله، واستجابوا للحق لما قرع آذانهم.

إنهم جماعة يعرفون الكتاب، ذَوو خبرة بدين سماوي.. مرّوا ذات يوم بمكة، وسمعوا عن النبي القرشي.. محمد بن عبد الله الهاشمي، وبلَغَهم ما يُنْزله به قومه من اضطهاد وأذَى، وكيف يحولون بينه وبين الناس بكل سبيل، فأرادوا أن يلقَوه ﷺ ويسمعوا منه، وتقابلوا معه خفية.. بعيدا عن

أعين قريش، وسعوا إلى خارج مكة تحت ستار الظلام. وتلا عليهم النبي الكريم بصوته العذب الندي آيات من التنْزيل السماوي.. من القرآن المجيد. وأنصت القوم بإجلال وأدب، وتلقَّت قلوبهم الواعية كلام الله من فم نبيّه بما يستحق من التقدير، فأخذ بمجامع عقولهم، ونفذ من فوره إلى أفئدتهم، وعرفوا صدقَه وحقيقتَه ومصدره. ومضوا في طريقهم مجتنبين أهل مكة.. وقد وطدوا عزمهم على أمر ما.

تكشف لنا أقوالهم.. كما أبلغنا العليم الخبير.. أن القوم كانوا على معرفة بموسى وبالكتاب الذي أنزل عليه. ويرى بعض رجال التفسير أنهم كانوا من أهل نصيبين بالشام أو نينوى من العراق. وأنهم سمعوا بأن نبي آخر الزمان قد ظهر في مكة.. وأنه جاء برسالة السماء التي تحيي الموتى وتجدد السماء والأرض. ولا بأس بهذا القول، ولكن يبدو أن سياق السورة يتضمن نبأً غيبيا عظيما.. يمُنَّ فيها الله على نبيه الكريم بذلك الفضل الكبير. ولنسمع ماذا تقول السورة:

﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْءَانَ. فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا: أَنصِتُوا. فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلى قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ۞ قَالُوا: يَا قَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَى، مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ، يَهْدِي إِلى الْحَقِّ وَإِلى طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ۞ يَا قَوْمَنَآ أَجِيبُوا دَاعِيَ اللهِ وَءَامِنُوا بِهِ؛ يَغْفِرْ لَكُم مِّنْ ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۞ وَمَن لاَّ يُجِبْ دَاعِيَ اللهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِي الأَرْضِ

وَلَيْسَ لَهُ مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَآءُ. أُولَئِكَ فِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ (الأحقاف:٢٩-٣٢)

أي.. وتذكر يا محمد وقت أن سُقنا إليك نفرا. والتذكير هنا تنبيه إلى فضل الله وتوفيقه. والتنكير لكلمة "نفر" لتعظيم شأنهم.

ويتلخص النبأ القرآني في اقتناع ذلك النفر من الجن بصدق الرسول ﷺ، وأن رسالته سماوية المصدر، إلهية المضمون. وعزمِهم الفعلي المؤثر على دعوة قومهم إلى ما آمنوا به. ويطمئن القلب– أشد الاطمئنان– إلى أن هذا النفر الكريم.. هم وفد "يثرب" الذين جاءوا مكة في موسم الحج.. وسمعوا من الرسول ﷺ، ووفقهم الله إلى أن يلتقوه بعيدا عن عيون قريش، حتى لا يحتكوا بهم ويحدث بين الفريقين ما لا تحمد عقباه. وعاد هذا النفر النبيل إلى المدينة ليبشر أهلهم من الأوس والخزرج.. أن النبي العظيم الذي طالما توَعدهم به جيرانهم اليهود.. قد ظهر في مكة في شخص النبي الهاشمي ﷺ. وعاد النفر إلى مكة في موسم الحج التالي وقد تضاعف عددهم، وما هي إلا فترة وجيزة حتى أقاموا جماعة إسلامية في يثرب، ودَعوا الرسول ﷺ ليهاجر إليهم، ويفر بدينه من مشركي مكة.. الذين قطعوا على أنفسهم العهد أن يقتلوه، ويقفوا حجر عثرة في طريق دعوته.

إن هذا النفر الجليل.. هو الرعيل الأول من الأنصار، وهم الجناح الثاني مع المهاجرين.. الذين

حَلَّق بهم الإسلام في أجواء العالم، وحملوا مسئولية نشر هَدْي السماء تحت قيادة المصطفى ﷺ. نعم.. إنهم النفر العظيم الذين سجل القرآن والتاريخ أمجادهم، وفازوا برضَى الله ومغفرته، ونَجوا ونجّوا قومهم من عذاب أليم. وكان صَرْفُ الله لهم لسماع القرآن فألاً حسنا وبشارة طيبة للرسول الكريم.. تستحق الإشادة والذكر، وتستوجب الحمد لصاحب النعمة جل وعلا.

وبعد هذا توجَّهت السورة إلى الرسول تطمئنه وتشد أزره.. فقالت:

﴿فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ.. وَلاَ تَسْتَعْجِل لَّهُمْ..﴾ (الأحقاف:٣٥)

وكلُّ رسل الله بلا استثناء من أولى العزم، ودَعْك مما يقول به البعض من الذين لا يفقهون حكمة الله وسُننه.. فيزعمون أن فلانا وفلانا هم من أولي العزم وسواهم ليس كذلك. إن الله أعلم حيث يجعل رسالته، وما اصطفى لهذه المهمة الشاقة إلا رجالَ صدْق من أولي العزم. وهذا التوجيه الإلهي بالصبر متكرر في القرآن المجيد ليربط على قلب المصطفى، ويطمئن فؤاده إلى ذكر الله وإن طال الانتظار لبعض الوقت. وقد جاء في موضع آخر بعد ذِكر ثمانية عشر رسولا.. آتاهم الله الكتاب والحكم والنبوة.. قول الله تعالى:

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ..﴾ (الأنعام: ٩٠)

مع أنه ﷺ كان خيرهم وخاتمهم.

وصَبَرَ الرسول ﷺ وجماعته صبرا جميلا. وصدق الله رسولَه البشرى. فما هي سوى لحظات بمقياس التاريخ.. إلا وهلك أعداء الله، وقام العهد الجديد ينير الدنيا ويملؤها خيرا وسعادة وسلاما.

وأطلقت السورة وصف (الجن) على ذلك النفر – سواء كانوا من أهل يثرب أو من غيرها.. لسببين: الأول.. أنهم استتروا من أهل مكة عند لقائهم بالنبي ﷺ، والثاني.. أنهم كانوا من الصفوة المختارة الذين يتميزون على أقران زمانهم، بل يندر لقاء أمثالهم في زمانهم، وفي كل زمان.

* * *

سورة الرحمن

■■ وإذا وصلت بنا التلاوة إلى سورة (الرحمن)، وجدنا سورة قرآنية توجه حديثها كله إلى فريقين من المخاطبين. فبعد ذكر بعض النعم الربانية من خلق الإنسان، وتعليم القرآن والبيان، وذكر الشمس والقمر والنجم والشجر ورفْع السماء ووضْع الميزان، ثم جعْل الأرض للأنام، وذِكْر ما فيها من نخل وفاكهة وحَب وريحان، تقول:

﴿.. فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ خَلَقَ الإنسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ كَالْفَخَّارِ ۞ وَخَلَقَ الجَآنَّ مِن مَّارِجٍ مِّن نَّارٍ ۞ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ (الرحمن:١٣–١٦)

وبعد ذكر عدد آخر من النعم والآيات والحقائق المشهودة المعروفة لأهل الأرض.. وبعد كل آية تسأل الفريقين اللذين يشهدان ويستمتعان وينتفعان بكل تلكم النعم.. تسأل سؤال تقرير وتوجيه ولفت انتباه: فبأي آلاء ربكما تكذبان؟ ثم تتبع ذلك بتحدّ وتحذير، أو هو شحذ للهمم ولفت نظر لآفاق جديدة في الكون، فتقول:

﴿سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلاَنِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبانِ ۞ يَا مَعْشَرَ الجِنِّ وَالإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ فَانفُذُوا لاَ تَنفُذُونَ إِلاَّ بِسُلْطَانٍ﴾ (الرحمن: ٣١-٣٣)

وتشير الآيات بعد ذلك إلى عقاب المجرمين فتقول:

﴿فَيَوْمَئِذٍ لاَّ يُسْأَلُ عَن ذَنبِهِ إِنسٌ وَلاَ جَآنٌّ ۞ فَبِأَيِّ ءَالاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالأَقْدَامِ﴾ (الرحمن: ٣٩-٤١)

وتتحدث عن النعيم لمن خاف مقام ربه فتقول:

﴿فِيهِنَّ خَيْرَاتٌ حِسَانٌ ۞ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ حُورٌ مَّقْصُورَاتٌ فِي الْخِيَامِ ۞ فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ۞ لَمْ يَطْمِثْهُنَّ إِنسٌ قَبْلَهُمْ وَلاَ جَآنٌّ﴾ (الرحمن: ٧٠-٧٤)

ولقد سبق أن تناولنا المراد من خلق الإنسان من صلصال، والمراد من خلق الجان من نار. ولا

بأس من أن نوجز هنا فنقول: حين يُذكر أن مخلوقا ما قد خُلق من شيء معين.. يراد به أن المخلوق يحمل في طبائعه بعض خصائص هذا الشيء الذي خُلق منه. فخلق الإنسان من طين يعني أنه يحمل من الطين ليونته، وخلقه من صلصال يشير إلى قابليته للتشكل والانقياد والتميز بالصوت، وخلقه من عجل يعني أنه يميل إلى التعجل في الحصول على نتائج عمله، وهذه طبائع عامة البشر. أما الجان فهم ذوو حمية وأنفة واندفاع ورغبة في السيطرة والقيادة والزعامة، ولهم تميز عن غيرهم في نزعاتهم ومسلكهم، وهذه طبائع السادة والقادة. ولو أن المراد كان غير ذلك.. فما دخل الجن أو الجان بكل تلك الماديات مثل الأشجار والفواكه، والسفن والبحار، والنجم والشجر، والميزان والنحاس، والفرش والحور المقصورات في الخيام؟ إن كل تلك الأمور تتعلق بالبشر وحدهم ولا دخل للجن بها إلا إذا كانوا بشرا مثلهم.. مع تباين المقام أو اختلاف الدور الاجتماعي وما إلى ذلك.

الواقع إن سورة (الرحمن) لهي من أعظم البراهين على أن القرآن عندما يتحدث عن الجن والإنس فإنما يتحدث عن وجهين لعملة واحدة.. هي عملة البشر، أو فرعين لشجرة واحدة.. هي شجرة بنى آدم.

ونلفت النظر هنا إلى أن (الثقلين) في السورة التي تحدث البشر في زمن التنْزيل تكلمهم اليوم أيضا. فالثقلان هما قادة الكفار وعامتهم في زمن التنْزيل، وهم الروم والفرس بعد ذلك، وهم اليوم

الأمم المتسلطة على مقدرات الشعوب والأمم التي تخضع لهم وتدور في فلكهم. كما أن (الإنس والجان) في الحديث عن حور الجنة من النساء المؤمنات – فيراد بهما البشر عامة.. والأفكار النفسية الباطنية، بمعنى أن تلكم الحور لم يمسس ظهرهن البشر.. أي الإنس، ولم يداخل نفوسهن أفكار أو ميول خفية.. أي الجن، مما قد ينال من صلاحهن وعفافهن.

ولا يفوتنا ملاحظة أن سورة (الرحمن) بدأت بذكر صفة الرحمانية التي تُذَكرنا برحمة الله التي تفيض على كل عباده من غير استحقاق من جانبهم، ولقد كان تعليم القرآن من أجَلّ فيوضات هذا الاسم الجليل. ثم ذكرت بعد ذلك خلق الإنسان وتعليمه البيان.. وفي ذلك إشارة جلية إلي أن الإنسان هو محل النعمة القرآنية، وأن الهدف الأسمى للقرآن هو أن يصل بالبشر إلى مرتبة الإنسانية الكاملة، التي تعرف ربها وخالقها وآلائه عليها.. ومن ثم تعبده العبادة التي تحقق الغرض من خلق الإنسان.

* * *

سـورة الجـن

■■ وفي سورة (الجن) نجد أن الحديث يتناول جماعة من العقلاء، سمعوا بعض آيات من القرآن الحكيم.. ربما من شفتي الرسول ﷺ وربما من بعض صحابته الكرام. ولم يكن المصطفى ﷺ على

علم بهذه الواقعة، وما ترتب عليها من آثار حميدة في مستقبل انتشار الإسلام. ولقد أوحى الله إليه خبرهم مبشرا إياه بإيمانهم وإسلامهم وعملهم على نشر الدعوة بين قومهم. وهؤلاء النفر غير النفر الذين حَكَت عنهم سورة (الاحقاف) آنفا. ذلك لأن أولئك كانوا يعرفون كتاب موسى عليه السلام أي التوراة، ولم يذكروا شيئا عن عيسى عليه السلام وإنجيله. واليهود هم الذين لا يعترفون بالمسيح بن مريم وكتابه. ولو أنهم كانوا من النصارى لأشاروا إلي ذلك. أما النفر هنا فهم من النصارى، لأنهم ذكروا معتقدا من المعتقدات الأساسية عند المسيحيين.. وهو البنوة لله تعالى. ويبدو أن بعضهم كان من رجال الدين.. الذين يعلمون بما فيه الناس من الضلال والتضليل وممارسات الدجل والشعوذة والتقَوّل على الله والرجم بالغيب. ولقد عرف هؤلاء من آيات القرآن أن سوق الباطل والجرأة على السماء قد كسد، وأن محمدا ﷺ وصحبه.. وفي أيديهم ذلك الكتاب السماوي ينير لهم طريقهم ويهديهم سواء السبيل.. سوف يصدون كل عدوان عقائدي على وحدانية الله تعالى، ولن يبقى الميدان بعد خاليا أمام الدجل والباطل.

إن إيمان هذا النفر الكريم من النصارى يبث بلا ريب في نفس النبي ﷺ وصحابته الأبرار روح الأمل بما يُقوي فيهم العزائم ويطمئنهم على مستقبل دينهم الحنيف.. الذي يبذلون كل غال رخيصا من أجل إذاعته في العالمين. ولا بد أن هؤلاء النفر قد أثمرت دعوتهم نورا في قلوب

أقوامهم، فما أن وصلت طلائع المسلمين إلى بلادهم في الشام ومصر والعراق حتى بادر أهل تلك البلاد يستقبلون الإسلام بالقبول والرضا والترحاب.. ولعل هذا النبأ العظيم كان وراء العناية النبوية ولفتته الكريمة.. إذ حث صحابته كي يستوصوا بالنصارى خيرا.

ونلاحظ في حديث الجن عن الإعجاز في الأرض والهرب والحطب والماء الغدق.. أنهم رجال من البشر، كل ما في الأمر أنهم لما سمعوا القرآن لم يتنبه لهم أحد.. كما أنهم كتموا أمرهم عن أهل مكة. وأراد القرآن أن يجعلهم بشارة مخبوءة للمسلمين.

* * *

ســورة النـاس

■■ وفي الختام عند آخر سور القرآن.. سورة (الناس).. كنا قد استعذنا في سورة الفلق برب النور الكاشف للمؤامرات والشرور.. أي مؤامرات أعداء الإسلام والمسلمين.. ومن شرور المتآمرين مدبري الشرور. ثم نستعيذ بالله.. برب الناس جميعا، ومالك أمرهم وزمامهم.. الجدير وحده بالتأليه والتوقير والمحبة والطاعة.. لكي يقي قارئ القرآن والعامل به والداعي إليه من شرور قد تتسرب إلى النفوس بتحريض فئة مضللة من الناس. والاستعاذة هنا ذات وجهين:

أولهما: أن الوسواس الخناس هو ذلك الذي يسعى للتسلل إلى النفوس جميعا.. سواء منها

نفوس العامة أو الخاصة.. فقوله ﴿مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾ يريد به أن موسوس الشر يسعى للتأثير في الخاصة المتميزين من البشر، كما يعمل على تضليل عامة الناس.

وثانيهما: أن وسواس الشر نفسه صنفان: الفاسدون من الحكام والقادة الذين يوعزون بالشر إلى الناس.. من أمثال فرعون وأبي جهل وغيرهم، وصنف من شرار العامة والرعية. ويمكن أن يكون المعنى أيضا أن الوسواس يكون من العوامل الشريرة الخفية الباطنة (الجنة)، أو من فعل البشر عموما (الناس). والآية تستدر الحماية الربانية الملكية الإلهية ضد كل تلك المؤثرات، ومن سلم منها فقد فاز بالمنهج القرآني الذي أتم قراءته بالمعوذتين.

* * *

■■ هذا هو كل ما جاء في القرآن الكريم بشأن الجن والجان والجنة. ويلاحظ أن الاستعمال القرآني يتسم بأسلوب معين، نجمله فيما يلي:

١– وصف (الجن) مُعرّفاً للدلالة على الكبار الذين يلفتون الأنظار، بينما يتضاءل ويختفي غيرهم في وجودهم.. أي أنهم ساترون. وأيضا للدلالة على الخاصة والكبار لأنهم ينأون عن العامة ولا يختلطون بهم ولا يظهرون لهم عادة.. أي أنهم مستترون. والكلمة تستعمل في مقابل (الإنس) وهم الأشخاص العاديون من العامة والرعية، أو ما يُسمى اليوم: رجل الشارع. ولا يميز الاستعمال

القرآني بين الفريقين في الخلق أو الدين أو الهداية.. الخ. والفرق بينهما هو في المركز القيادي والمنْزلة الاجتماعية للجن واختلافهم عن الإنس في ذلك الدور.

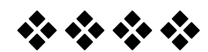
٢- وصف (الجان) مُعرّفًا للدلالة على البشر في بداية تطورهم قبل تسويتهم وتحضُّرهم، عندما كانوا يعيشون حياة الوحش النافر في الكهوف والمغارات مختفين من فرائسهم ومستترين من أعدائهم. والكلمة مستخدمة في مقابل (الإنسان) وهو البشر بعد تسويته وتحضره وتمدنه. وفي هذا الاستعمال يشير القرآن إلي خلق (الجان) من نار وخلق (الإنسان) من طين.

٣- كلمة (جان) منكرة للدلالة على المؤثرات الخفية الباطنة، في مقابل كلمة (إنس) منكرة للدلالة على التأثير البشرى المكشوف.

٤- وصف (الجِنة) معرفا للدلالة علي صنف معين من الكائنات الخفية أو المتوهمة. الخفية كالملائكة.. والمتوهمة كالأرباب الباطلة والآلهة التي تقوم عبادتها علي الوهم الكاذب. ومن أمثلة هذه الأرباب فسدة الكهنة وشرار السدنة والفراعنة والهامانات ورجال الكهنوت المرتزقة من كافة الديانات. وتُستعمل الكلمة في مقابل (الناس) وهم أفراد المجتمع العاديون الذين غالبا ما يكونون ضحية ممارسات (الجِنة). ويلاحظ في الآيات التي تتناول هذه الفئة الفاسدة المفسدة أنها تنذرهم بالعقاب الإلهي وتشير إلى فسادهم.

٥- كلما جاء ذكر الطائفتين معا قُدم الجن على الإنس دلالة على تميزهم من ناحية القوة والسلطان والمهارة وكافة الأمور الدنيوية. أما إذا كان المجال روحانيا كان التقدم للإنس.

وبهذا يتبين بكل وضوح أن الصورة الأسطورية التي لا توجد إلا في خيال الكثير من الناس.. ليس لها أي وجود في القرآن الكريم، ولا في آياته البينات. ولعل البعض يتساءل هنا عن الأحاديث النبوية الشريفة، وعما إذا كانت قد ألقت مزيدا من الإيضاح على هذا الموضوع، وللإجابة على هذا التساؤل ننتقل إلى الفصل الثالث.



الفصل الثالث

الجن.. في الأحاديث الشريفة

■■ لعلنا لا ننسى.. ونحن نبحث في الأحاديث النبوية الشريفة.. ما سبق أن ذكرناه في مقدمة هذا الكتاب. وليكن في اعتبارنا دائما أن الرسول الكريم لن يتفوّه بحرف يتناقض ويختلف مع القرآن المجيد. ولننظر .. في ضوء هذه القاعدة الأساسية.. في الاستعمال النبوي لكلمات (الجن والشياطين) كما جاءت في الأحاديث النبوية، أو تلك المنسوبة إلى النبي ﷺ.

■ أوْلى هذه الروايات بالنظر ما جاء في الصحيحين أن النبي ﷺ قال: "أُعطيتُ خمساً لم يُعطَهن أحد من الأنبياء قبلي.." وذكر منها ".. وكان النبي يُبعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة".

قال ابن عقيل: الجن داخلون في مسمى الناس لغة. وقال الراغب: الناس جماعة حيوان ذي فكر ورَوية، والجن لهم فكر وروية. وقال الجوهري: الناس قد تكون من الإنس ومن الجن.. ويقول إن الجن في الاستعمال القرآني صنف من الناس. ومعنى قولهم هذا إن كلمة (الناس) على إطلاقها تعني الجن والإنس. وفي رواية أخرى لهذا الحديث: "بعثت إلي الأحمر والأسود" أي الإنس والجن.

وفي رواية ثالثة: "أرسلت إلي الجن والإنس".

وقال الإمام ابن تيمية: أرسل الله محمدا ﷺ إلي جميع الثقلين: الإنس والجن، وأوجب عليهم الإيمان بما جاء به وطاعته، وأن يحلّوا ما أحل الله ورسوله، ويحرّموا ما حرّم الله ورسوله، ويحبوا ما أحب الله ورسوله، ويكرهوا ما كره الله ورسوله.

وإذا تأملنا في قول الإمام ابن تيمية تبين لنا أن تحليل ما أحل الله ورسوله، وطاعة الله ورسوله، يقتضي أن تقوم الجن بكل ما كُلّف به الإنس.. ولا يتأتّى هذا إلاّ إذا كان الفريقان من جنس واحد هو الجنس البشري.. والفرق بينهما هو الوضع الاجتماعي أو الوظيفي. وإلا.. فلماذا لم يخرج الجن المؤمن للقتال والجهاد مع المسلمين؟ وأين كان الجن المؤمن في غزوة أُحُد حين هزم المسلمون؟ أم أن القتال قد كُلِّف به البشر فقط؟ وأين كان الجن المؤمن عند تجهيز جيش العسرة؟ وما الذي ساهموا به في تلك الغزوة؟ وأين كانوا عند صلح الحديبية، وعند فتح مكة، ويوم حُنين؟ ولماذا لم يُقدموا إلى الرسول ﷺ خمس ما غنموه من قتالهم في سبيل الله.. إن كانوا قد خاضوا أية معارك على الإطلاق؟ وعشرات من الأسئلة التي ليس لها من جواب ولا بيان، إذا فهمنا الجن بأنه ذلك المخلوق الشبحي الذي يتخيله عامة الناس.

وعلى هذا.. حينما يُقال إن كلمة "الناس" تعني كلا من الإنس والجن، فهذا يعني أن كلا من

الإنس والجن هما من البشر، ولا يعني أبدا أن الإنس من البشر وأن الجن هو من المخلوقات الشبحية. فإن هذا الفهم الخاطئ يتعارض ويتناقض مع آيات القرآن المجيد. يقول تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾ (الحج:٥)

فالناس جميعا.. بما فيهم الجن والإنس.. كلهم مخلوقون من تراب. ومن يدّعي أن الجن جنس آخر من الأشباح يختلفون عن جنس الإنسان، إنما يجعلون القرآن يتناقض مع بعضه البعض، حيث يُصرح القرآن بأن الإنس قد خلق من تراب، وأن الجن قد خلق من نار. ولا مخرج من هذا التناقض إلا بالإقرار بأن كلا من الإنس والجن هم من البشر الذي خُلق من تراب الأرض، وأن خلق الجن من النار هو كمثل خلق الإنسان من عجل أو خلقه من ضعف.

ولا يغيب عنا قوله تعالى:

﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللهُ النَّبِيِينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ﴾ (البقرة:٢١٣)

والناس الذين هم أمة واحدة لا يمكن أن يكونوا في نفس الوقت أمتين من جنسين مختلفين في نوعية الخلقة. فلا يمكن أن يكون البشر والحمير أمة واحدة، تماما كما لا يمكن أن يكون الإنس والجن الشبحي أمة واحدة، اللهم إلا إذا كان الجن صنفا من البشر، تماما كما أسلفنا القول في

شرح هذا الأمر.

وكون أن كلا من الإنس والجن مكلف بعبادة الله تعالى يدل في حقيقة الأمر على أنهما نوع واحد وجنس واحد، خاصة وأن الله تعالى قد ذكر في كتابه العزيز:

﴿إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَاوَاتِ والأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ﴾ (الأحزاب:٧٢)

والآية واضحة الدلالة تماما على أن الإنسان وحده هو المكلف بالعبادة، وبالتالي فلا يمكن أن يكون الجن المكلف بالعبادة جنسا آخر يختلف عن الإنسان، وإنما هو اسم وصفي لصنف من البشر.

■ ثم هناك الحديث الذي أورده البخاري عن أبي هريرة ﷺ:

"إن الشيطان قد عرض لي، فشد عليّ ليقطع الصلاة عليّ، فأمكنني الله تعالى منه فذعته. ولقد هممت أن أوثقه إلى سارية حتى تصبحوا فتنظروا إليه، فذكرت قول سليمان: ﴿رَبِّ هَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي﴾، فرده الله خاسئا".

وفي رواية أخرى: "إن عفريتا من الجن جعل يخيل عليّ البارحة ليقطع عليّ الصلاة فرده الله خاسئا".

ومع أن هذا الحديث قد ورد في صحيح البخاري الذي يتميز في أغلبه بجمع الصحيح من الحديث، إلا أنه يثير الكثير من التساؤلات وعلامات الاستفهام، إذا فهمناه من منظور الصورة الأسطورية للجن في أذهان الناس. ولا مناص لصحته من أن يكون الذي تعرض له أحد شياطين البشر الذي لم يتعرف النبي على شخصيته لتَخَفيه وتنكره، فسماه الرسولُ شيطانا أو عفريتا من الجن. وربما كان الأمر من قبيل الكشف رآه النبي فحكاه لبعض الصحابة. أما أن يكون المعترض كائنا من الكائنات الأسطورية المزعومة فماذا يكون الجواب على ما يلي:

❁ شيطان الرسول قد أسلم فلا يأمره بِشَرٍّ، فكيف يحاول إفساد صلاته؟

❁ هل الشياطين والعفاريت تتعرض للبشر هكذا جهرة.. أم تتسلل وتوسوس، حسب ما هو شائع في أذهان الناس؟

❁ وهل كانت هذه الكائنات.. حسب زعمهم.. مما تُغَالَب بَدَنِيًا وتُقَيَّدُ بالحبال وتراها العيون البشرية؟

❁ وهل دعاء سليمان يمنع النبي ﷺ من تأديب العفريت، أم كان هذا وقفا على سليمان وحده؟ وهل من عمل النبي ﷺ أن يحفظ لسليمان دعائه بنفسه أم أن الله تعالى هو الذي لم يمكنه من تأديب العفريت حفاظا لدعاء سليمان عليه السلام؟ وإن كان تأديب العفاريت حقا وقفا على سليمان

فقط نظرا لدعائه الذي دعا به.. ألا ينبغي علينا أن نمتنع عن استخدام الريح والطير لأنها تدخل في دعوة سليمان وكانت فعلا مسخرة له؟

من الواضح أنه لا بد من استبعاد هذا الفهم العليل والتفسير الهزيل احتراما لمكانة النبي ﷺ أولا وقبل كل شيء، ثم لأنه يخالف العقل والواقع وسُنن الحياة.

■ ثم هناك الحديث الذي أخرجه أبو نعيم عن ابن الحارث ويتلخص فيما يلي:

(خرج النبي ﷺ لحاجته فأتاه راوى الحديث بماء للوضوء، فسمع عنده لغطا، فسأله: "يا رسول الله! سمعتُ عندك خصومة رجال ولغط ما سمعت أحَدّ من ألسنتهم". قال ﷺ: "اختصم عندي الجن المسلمون والجن المشركون، سألوني أن أسكنهم، فأسكنتُ المسلمين الجلس "المرتفع الغليظ من الأرض"، وأسكنت المشركين الغور" "المنحدر من الأرض").

ومثل هذا الحديث لا يصمد للعقل السليم. ففيم اختصام الجن والصحراء أمامهم تمتد واسعة مترامية الأطراف تسع الملايين منهم؟ وعلى أي أساس يحكم النبي ﷺ بينهم في مشكلة المسكن، هل يعرف متطلبات حياتهم وما يلزمهم للسكن؟ ولماذا يُفضل فريقا منهما على الآخر ولم يوزع بينهم الأرض بالتساوي؟ وهل يكون الاحتكام والحكم في مثل هذا الموضوع والظرف؟ وهل هم يتحدثون بأصوات ويحدثون لغطا كالإنس، حيث يسمع الناس لغطهم؟ وهل يعني هذا أن الناس

إذا لم يسمعوا لغط الجن فإنه لا يكون لهم وجود؟ وما الذي يُلزم المشركين منهم بقبول حكم النبي ﷺ؟ اللهم إن كل المواصفات التي وردت في الحديث تجعل منهم بشرا مثل كل البشر، ولكن الغرابة في تسميتهم بالجن دون ما سبب واضح!! ولماذا لم يبادر راوي الحديث بالدخول الى موضع اللغط ليستجلي الأمر ويدفع عن النبي الخطر إذا لزم الامر؟!

■ وهناك الحديث الذي رواه البيهقي عن ابن مسعود قال:

(استتبعني رسول الله ﷺ فقال: "إن نفرا من الجن خمسة عشر بني إخوة وبني عم.. يأتونني الليلة سأقرأ عليهم القرآن". فانطلقتُ معه إلى المكان الذي أراد.. فخط لي خطا وأجلسني فقال: "لا تخرج من هذا". فبت فيه حتى أتاني رسول الله ﷺ مع السَّحَر، في يده عظم حائل وروثة وحممة (خشب محترق) فقال: "إذا ذهبت الخلاء فلا تستنج بشيء من هؤلاء". قال: فلما أصبحت علمت حيث كان رسول الله ﷺ، قال: فذهبت فرأيت موضع مبرك ستين بعيرا).

وهذا الحديث أيضا دليل على أن النفر الذين قابلوا النبي ﷺ كانوا من إحدى القبائل التي تمر بمكة، وأرادوا لقاء النبي ﷺ بعيدا عن العيون التي كانت ترصد حركات النبي ﷺ وتحول بينه وبين الناس، فضربوا له موعدا في غسق الليل خارج شعاب مكة. واصطحب النبي ﷺ ابن مسعود ﵁ ليراقب الطريق ويحذر الجمع إذا لزم الأمر. ومن المعلوم أن البشر وحدهم هم الذين يركبون الجمال

المعروفة التي تترك آثار سيرها وبقايا بروكها في الأرض. ولو كان النفر من الجن حسب المفهوم الأسطوري ما ركبوا بعيرا، ولو كان لهم بعير لكان من الجن أيضا! ولما ترك أثر روث يُرَى على الارض. ولقد كنى النبي ﷺ عن النفر باسم الجن حتى لا يتعرف عليهم أحد، ولا يتسرب خبرهم عن طريق الخطأ إلى المشركين. ولقد صدق النبي ﷺ في اطلاق اسم الجن عليهم لأن القوم كانوا مستترين عن أنظار قريش بظلمة الليل. ولعل النبي ﷺ ذهب إلى الخلاء بعد اللقاء، وبحث عن أحجار ليستنجَى بها فوجد معها بعض العظم والروث والخشب المحترق، وهي أشياء لا تصلح لهذا الغرض، فوجدها فرصة لتعليم الصحابي حتى يتجنب استعمالها فتُلوث بدنه بدلا من أن تزيل عنه الخبث.

ولقد أدى الخلط بين واقعة لقاء الجن وتعليم النبي ﷺ بشأن المواد التي لا تصلح للاستنجاء.. إلى خلط أشد فيما يتعلق بمسألة الجن.. فقد أورَد أبو داود حديثا منسوبا إلى عبدالله بن مسعود قال فيه:

(قدم وفد الجن على رسول الله ﷺ فقالوا: يا محمد، إنْهَ أمتك أن يستنجوا بعظم أو روث أو حممة، فإن الله جاعل لنا فيها رزقا).

وفَهْمُ هذا القول.. على زعم أن الجن المكلفين بعبادة الله، المأمورين بذكره، هم الذين يأكلون

طعامهم مشتملا على هذه الأشياء.. لأمر مُغرق في الخرافة والسخافة. أولا لأنه طعام مادي لا يستقيم أن تأكله المخلوقات غير المادية وتبقى بعد ذلك مستترة. وثانيا لأنه يشتمل على نجاسات ونفايات محرمة على المسلمين بحكم القرآن نفسه الذي يقول:

﴿يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَآئِثَ﴾ (الأعراف:١٥٧)

﴿يَآ أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُلُوا مِن طَيِّبَاتِ مَا رَزَقْنَاكُمْ وَاشْكُرُوا للهِ﴾ (البقرة:١٧٢)

والجن يحرم عليهم ما يحرم على الإنس. فكيف يتطهر الجن ويتوضأ ويصلي وهو يأكل الروَث والنفايات. وكيف يأمرهم الله أن يأكلوا من طيبات ما رزقهم، فيأكلون العظم الذى ترمم ورَوَث البهائم الملوث بالنجاسات؟! ويمن الله على الجن ببعض نعمه من فاكهة وريحان ولحم وحب ورُمان، وما إلى ذلك من الطيبات فهل يستبدلون به الروث؟ وما دخل النبي ﷺ بطعامهم وهم (كما تقول التفاسير الأسطورية) قادرون على الانتقال من اليمن إلى الشام يحملون عرش بلقيس في طرفة عين، ويصعدون إلى السماء ليتسمعوا على الملأ الأعلى.. هل يعجزون عن إحضار طعام لهم من أي مكان علىالأرض حتى يطلبوا الطعام من النبي ﷺ.. وهم قادرون على الإتيان به من أقصى الأرض.. حسب قول الذين يعتقدون بأن الجن خلق مختلف عن البشر وخارق القدرة؟ أوَ ليس

من الغريب أن يقضي المسلمون الأوائل ثلاث سنوات في حصار بمكة، يقاطعهم المشركون ويمنعون عنهم الطعام حتى جف اللبن في أثداء الأمهات فلا يجدن ما يرضعن به أطفالهن.. ثم لا يمنحهم النبي ﷺ هذه التسهيلات الغذائية وهم في أشد الحاجة إليها، ثم يسارع إلى منحها لوفد الجن القادرين على التصرف بيسر؟ لو كان الأمر كذلك لكان الأطفال الرضع والعجائز أولى من الجن بذلك. ولو كان للجن تلك القدرات الخارقة التي ينسبها إليهم أدعياء وجود الكائنات الأسطورية، فلماذا لم يأت الجن المؤمنون منهم بالطعام إلى المؤمنين والمؤمنات الذين حبسهم المشركون في شعاب أبي طالب حتى اضطروا إلى أكل أوراق الشجر، وكان الوادي يردد بين جنباته صوت صراخ الأطفال الذين عضهم الجوع بأنيابه القاسية؟

لا شك أن الرواة خلطوا بين واقعتين مختلفتين: الأولى لقاء النبي ﷺ بالقوم الذين سماهم الجن، والثانية هي توجيه النبي ﷺ للصحابي بتجنب استعمال الأشياء الملوثة والنجسة في الاستنجاء. ويبدو أن الواقعتين كانتا متقاربتين فرواهما الصحابي في مقالة واحدة، واختلط الأمر على من نقلهما وربط بينهما في هذا المزيج المتنافر. وقد أدى الأمر بعد ذلك إلى سوء فهم وتحريف لأحاديث أخرى. فمثلا هناك روايات تقول:

- "نهى رسول الله ﷺ عن التمسح بعظم أو بعر"

(أحمد/مسلم/داود).

- "سأل الجن رسول الله ﷺ الزاد، فقال: "كل عظم ذكر اسم الله عليه يقع في يد أحدهم أوفر ما يكون لحما، وكل بعر علف لدوابهم زاد". وفسره ابن سلام فقال إن البعر يعود خضرا. (رواه مسلم)
- وفي رواية أبي داود: ".. كل عظم لم يذكر اسم الله عليه.."
- "بينما أنا مع النبي ﷺ يمشي جاءت حية فقامت إلى جنبه، فأدنت فاها من أذنه كأنها تناجيه أو نحو هذا. فقال النبي ﷺ: نعم. فانصرَفَت. فلما سأله جابر أخبره أنه رجل من الجن وأنه قال: "مُر أمتك لا يستنجوا بالرَّوَث ولا بالرِّمَّة فإن الله جعل لنا في ذلك رزقا" رواه ابن العربي.
- وعن ابن مسعود: "قال ﷺ: " أتاني داعي الجن، فذهبت معه فقرأت عليهم القرآن".. قال: فانطلق بنا فأرانا آثارهم وآثار نيرانهم. وسألوه الزاد.. الخ الحديث" (رواه الشيخان).

ويُلاحظ في تلك الروايات أن الجن الذين قرأ الرسول عليهم القرآن كانت لهم آثار بشرية عادية. أما موضوع الزاد فهو خلط بين النهي عن استعمال القاذورات النجسة في إزالة النجاسة بالاستنجاء وبين مقابلة الجن. كما أن الجن لو كان طعامهم حقا هو الروث..فلن يضيرهم أن يزداد

الروث بعض فضلات آدمية، وما نظن أن روث البهائم أنظف وأكثر فائدة للجن من فضلات الآدمي!! أما عن الحية التي تطلب من الرسول أن ينهى أمته عن فعل شيء.. فما نعتقد أن النبي يتلقى التشريع من الحيات وغيرها! ولو أنه أمر بشيء أو نهى عن شيء لكان ذلك بأمر من الله عز وجل، وليس بأمر أو بطلب من الجن أو من الأفاعي.. حتى لا يتطاول سفيه ويقول إن نبيكم يُشَرّع لكم من همسات الأفاعي!! أما حديث أبي داود إذا صح عن النبي ﷺ فيمكن أن يكون كشفا له ﷺ رأى فيه تلك المخلوقات الخفية الضارة التى تؤذي الإنسان.. والتي نعرفها اليوم باسم الميكروبات والفطريات والبكتريا والفيروسات.. والتي تتغذى وتتنفس وتجد حياتها في تلك الرمم والنفايات، وحق له أن يطلق عليها لفظ (الجن) بسبب استتارها عن أعين البشر. ونَهَى عن استعمال الأشياء التي تتغذى عليها.. مثل العظام والروث.. تجنبا لضرر هذه الجراثيم، وتطهرا من دنسها. وفي مثل هذا الكشف الغيبي إعجاز عظيم لنبي الطهر والنقاء.

وهناك شاهد لهذا المعنى في كشف ثان للنبي ﷺ قال فيه:

❁ " الطاعون وخز أعدائكم من الجن". (رواه احمد في مسنده)

ولا شك أننا نعرف اليوم أن الطاعون يصيب الانسان بوخز من حشرة البرغوث فتنتقل إلى جسمه جراثيم المرض. وكل هذه البراغيث والجراثيم هي من الكائنات المستترة عن النظر الآدمي.

إن هذا المعنى وحده هو الذي يُبين عظمة الخبر النبوي وأنبائه الغيبية الرائعة!

■ وهناك الحديث الذي أورده البيهقي عن جابر بن عبد الله قال: (قرأ رسول الله ﷺ سورة (الرحمن) حتى ختمها ثم قال: ما لي أراكم سكوتا؟ الجن كانوا أحسن منكم ردا.. ما قرأت عليهم هذه الآية من مرة – يعني: ﴿فَبِأَيِّ ءَالآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾ – إلا قالوا: ولا بشيء من آلائك ربنا نكذب، فلك الحمد).

والحديث الشريف يبين أن النفر الذين استمعوا إلى النبي ﷺ يتلو سورة (الرحمن) كانوا ممن صَفَت نفوسهم وصدقت قلوبهم، فاعترفوا لله تعالى بكل نعمة منَّها عليهم في السورة. ولعل الأنسب عند سماع الاستفهام التقريري أن يعلن السامع إقراره بالحق. ولو تأملنا النعم التي وردت في سورة (الرحمن) لوجدنا أنها كلها نعم تتعلق بالبشر الذين يعيشون على الأرض حياة البشر المألوفة، وليس منها ما يخص قوما من غير البشر المخلوقين من لحم وعظم.

■ وهناك رواية أخرجها الشيخان عن ابن عباس ﷺ أن رسول الله ﷺ لم يقرأ على الجن ولارآهم، وإنما لما حيل بين الشياطين وبين خبر السماء، وأُرْسِلت عليهم الشهب، بحثوا في الأرض ليعرفوا السبب حتى لقي جماعة منهم رسول الله ﷺ وهو يصلي بجماعة من أصحابه.

وهذه الرواية تفسير لآيات سورة (الجن) بحسب فهم ابن عباس أو بحسب ما اختار أنه المناسب

لمن فسرها له. ويبدو أنه أراد بيان أن الرسول ﷺ لم يقابل ذلك الصنف من الكائنات التي كان العرب يسمونها جنا. ومع ذلك فليس كل ما ورد عن ابن عباس قاله ابن عباس، وليس كل ما نُسب إلى ابن عباس ﷺ لا بد وان يكون حجة أو صوابا. ثم إن الشهب سُنة كونية أزلية.

* * *

■■ ولقد ساق كتاب (عجائب الجان) عددا من الروايات، بعضها عن الجن.. وبعضها عن الشيطان.. وبعضها عن ابليس.. ولم يُفرق بينها على أساس أن الجميع شيء واحد. ولقد سبق أن تناولنا هذه المسميات بالبيان بحيث ظهر لنا الفرق بينها. ومعظم الروايات التي ساقها مما ليس له سند يُعتد به، وسنحاول ذكر أهم هذه الروايات، ضاربين الصفح عن الهزليات التي لا يتردد عاقل في رفضها كروايات دينية، وكلها لا تصلح إلا على سبيل سرد العجائب للتسلية وازجاء الوقت.

■ فمن الأحاديث ما أورده ابن مردويه، وضعفه السيوطي:

(خلق الله تعالى الجن ثلاثة أصناف: صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنف كالريح في الهويّ، وصنف عليه الحساب والعقاب. وخلق الله تعالى الإنس ثلاثة أصناف: صنف كالبهائم، وصنف أجسادهم أجساد بنى آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وصنف في ظل الله تعالى يوم لا ظل

إلا ظله).

ومع أن السيوطي ضعَّف هذا الحديث إلا أنه في حقيقة الأمر من أصح وأبلغ ما قيل في تصنيف الجن والإنس. وربما كان فيه وحده الكفاية لفهم وإدراك موضوع هذا الكتاب. فلقد صنَّف الجن في ثلاثة أصناف:

١. صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وهي دواب الأرض التي تعيش عادة في استتار داخل الشقوق والجحور، ولا تسعى إلا تحت جنح الظلام مثل الحشرات والعناكب والهوام.

٢. صنف كالريح في الهويّ، وهي الكائنات الخفية التي تملأ الجو وتنتقل بفعل حركة الهواء، وتهوي على الناس فتصيبهم بشتى الأمراض والعلل، مثل الميكروبات والجراثيم.

٣. صنف عليه الحساب والعقاب، وهم كُبراء الناس وقادتهم وخاصتهم، وهم بالطبع مكلفون ومحاسبون على أمانة القيادة ومسئولية الحكم.

وصنَّف الإنس في ثلاثة أصناف:

١. صنف كالبهائم، وهم البشر البدائيون الذين لهم سمات البشر وطباع الأنعام والوحوش.

٢. صنف أجسادهم أجساد بني آدم وأرواحهم أرواح الشياطين، وهم البشر الفاسقون الذين هم شياطين الإنس.

٣. صنف في ظل الله تعالى يوم لا ظل إلا ظله، وهم البشر المؤمنون الصالحون المسلمون لمنهج الله.

وهذا التقسيم الرائع يتفق تماما مع الواقع، ولم نبتعد عنه فيما تناولناه آنفا عند فهم الآيات القرآنية المتعلقة بالجن والإنس. ومن المناسب هنا أن نُذكر القارئ بالميزان الهام في فهم الأحاديث النبوية والحكم على مدى صحتها. إن أعظم الموازين للحكم على الحديث هو مدى موافقته لآيات القرآن الكريم، ثم مدى موافقته لما نشهده من سنن الله الكونية. ولا بد قبل تضعيف أو تكذيب حديث منسوب إلى النبي ﷺ من محاولة فهمه وتفسيره بما يتفق وما ذكرناه آنفا، فإن أمكن ذلك فلا معنى لتضعيف الحديث أو إنكاره. أما إذا لم يتيسر ذلك على وجه من أوجه التفسير الذي تحتمله اللغة العربية وأساليبها، جاز التوقف عن الأخذ به والعمل بمقتضاه. ثم يأتي بعد ذلك أمر السند.. فكم من حديث صحيح السند لا يُقبل متنه، وكم من حديث ضعيف السند ولكنه صحيح المضمون. ويجوز أن يَصْدُق الكاذب أحيانا، ويجوز أن يتذكرَ الناسي في بعض الأوقات.

والقاعدة الذهبية.. رضي أو أبى من شاء.. إن القرآن الكريم.. كلام رب العالمين الذي تعهد بحفظه.. هو الحكم على الحديث والعكس غير صحيح أبدا.

■ وحديث آخر رواه الترمذي ووهَّن إسناده وغربه.. جاء فيه:

"ستر ما بين أعين الجن وعورات أمتي إذا دخل أحدكم الخلاء أن يقول: باسم الله".

ومن الممكن تفسير هذا الحديث باعتبار أن ذكر اسم الله تعالى يسبغ على المرء من الحفاظة الالهية ما يقيه من التأثيرات الخفية على مناطق الضعف البشري عندما يذهب إلى الخلاء بعيدا عن الناس. أما إذا كان المراد بأعين الجن.. ذلك الكائن الخرافي، فلماذا لا تستحي الجن وتغض من أبصارها، وماذا يهمنا لو رأت الجن عوراتنا، وما العيب في ذلك؟

ومن آداب قضاء الحاجة في الخلاء أن يجلس المرء عند التبول حتى لا يصيبه رذاذ البول بسبب الريح أو عند اصطدام البول بالأرض. كذلك فقد نهى الرسول ﷺ عن التبول في الجحور لأنها بيوت الجن. والمقصود هو أن الجحور بيوت الحيات والحشرات التي تختفي في تلك الجحور، وقد تخرج منها إذا نزل عليها البول فتؤذي الإنسان الذي لا يتمكن من سرعة الحركة بسبب جلوسه.

■ وفي حديثٍ مُرسل، فيه "ابن لهيعة"، قال: (نهى رسول الله ﷺ عن نكاح الجن).

ولا شك أن النص يكون غاية في التهافت، إذا فهمناه من منطلق تصور الجن الخرافي. فالرسول ﷺ لا ينهى عن شيء إلاّ ويوضح حكمة النهي، ولا يجوز منه ﷺ أن ينهى عن أمر محال.. إذ كيف تتناكح الأجناس المختلفة في خلقتها وتكوينها. إن تناكح البشر يتطلب جسدا عضويا ماديا، والجن الناري الخرافي غير ذلك! ولو زعم زاعم أن الجن قادرون على التشكل في صورة البشر - ولا سند

لأحد يقول بذلك إلا كتاب (ألف ليلة وليلة).. فإن حياة البشر على الأرض تصبح خرافة فوضوية هزلية، فكيف تعرف أي زوجة أن من يبيت معها هو زوجها حقا.. وليس واحد من الجن في صورته؟ ربما كان الذين رَوَّجوا لهذه الأفكار هم بعض من أصابتهم الأمراض العصبية فخُيل إليهم أنهم تزوجوا أو أحبوا أو كانت لهم علاقات مع صُوَرٍ جسّدها لهم خيالهم المريض. أما النبي ﷺ .. وأما القرآن الكريم.. فلا مجال لمثل هذه الخزعبيلات أن تتطرق إلى شيء مما جاءا به.

وعلى أية حال فإنه يمكن فهم هذا الحديث.. إن صح.. على أنه نهي من النبي ﷺ عن نكاح السر أو زواج الخفاء، فكلمة (جن) تعني الخفاء، كقولهم: لا جن في الأمر أي لا خفاء فيه. فمن سُنته ﷺ إعلان النكاح والوليمة له.

* * *

■■ ولا بأس أن نسوق بعض الاحاديث التي خلطوا فيها بين الجن والشيطان:

❁ "إذا أكل أحدكم فليأكل بيمينه، وليشرب بيمينه، وليأخذ بيمينه، وليعط بيمينه، فإن الشيطان يأكل بشماله.." (مسلم /أحمد/داود).

❁ "إن الشيطان يستحل الطعام ألا يذكر اسم الله عليه" - (مسلم)

وهذه الروايات من توجيهات الرسول الكريم ﷺ لتأديب المسلم، فيعلمه ذكر الله تعالى وشكره عند الطعام، حتى لا تنسيه شهوة البطن (الشيطان) فضل المنعم عز وجل. وفي الاقتداء بالنبي ﷺ أخذٌ بالفطرة السليمة وعمل بواجب متابعته، فهو المرسل من لدن العليم الخبير. وفي مخالفة سُنته خروج على منهج الله وبُعد عن الصراط السوي.. ومن ابتعد عن هديه فهو شيطان.

- "الغضب من الشيطان، وإن الشيطان من النار، وإنما تطفأ النار بالماء، فإن غضب أحدكم فليتوضأ". (البخاري)

وصدق رسول الله ﷺ، فالغضب انفعال ناري يخرج المرء من اتزانه، ويُوقعه في الخطأ والشطط.. ومن ثم فهو شيطان. فكل فعل شيطاني يوقع الإنسان في التهلكة ويذيقه نار الحسرة والندم. وكما يطفىء الماء النار، فإن ماء الوضوء.. والمراد هي فكرة الوضوء نفسها.. يعيد للمرء اتزانه وهدوء نفسه إجلالا لمن شرع الوضوء، فيطفىء نار الغضب.

- "يد الله مع الجماعة، والشيطان مع من يخالف الجماعة". (متفق عليه)
- "إن الشيطان ذئب الانسان كذئب الغنم يأخذ الشاة القاصية والناحية. فإياكم والشعاب، وعليكم بالجماعة والمسجد". (رواه أحمد)

والحديثان الشريفان يوضحان معنى الشيطان.. ألا وهو كل ما يُبعد الإنسان عن النهج المحمدي

والصراط المستقيم مع جماعة المسلمين وخلف إمامهم.

- عن السيدة حمنة بنت جحش أنها اشتكت إلى النبي ﷺ من استحاضة شديدة فقال: "إنما هي ركضة من ركضات الشيطان" (رواه الشيخان). وفي رواية أخرى ".. دم عرق انفجر".

ومن هذا الحديث يتبين أن الشيطان ليس هو بالضرورة روح الشر التي يزعم البعض أنها تجر الإنسان إلى الفساد، ولكن.. في هذه الحالة هو عرق شذ عن سائر العروق فهو شيطان، وانفجاره ركضة شيطانية.

- وعن عائشة رضي الله عنها: أن النبي ﷺ خرج من عندها ليلا فغارت عليه. فلما عاد وسألها: "ما لك يا عائشة أغرت؟" قالت: "وما لي لا يغار مثلي على مثلك؟" فقال ﷺ: "أفأخذك شيطانك؟" فقالت: "يارسول الله، أو معي شيطان؟" قال: "نعم، ومع كل إنسان". قالت: "ومعك يا رسول الله؟" قال: "نعم، لكن ربي عز وجل أعانني عليه حتى أسلم". (مسلم/ أبو داود)

- وفي رواية أخرى: "..ومع كل إنسان قرينه من الجن وقرينه من الملائكة"، وفي رواية: "فليس يأمرني إلا بخير". (مسلم)

وهذا القول النبوي الكريم يشرح معنى الشيطان شرحا جميلا، ويُبين فضل الهداية الإلهية في

التغلب على الشيطان، بل وتطويعه حتى يُسْلم فلا يأمر إلا بحق وخير. إن الغيرة النسائية من النَّزعات الفطرية التي جُبِل عليها الإنسان رجالا ونساء، وهي نزعة بناءة تحفز المرء إلى المحافظة على كل غال لديه. ولكن إذا استسلم المرء لها حتى خرج عن الجادة، فأساء الظن دون ما مبرر.. كانت الغيرة شيطانا يقود المرء إلى سوء التصرف. والرسول ﷺ يقول إن الاستسلام للميول والغرائز والنَّزعات دون سيطرة العقل عليها يحوّلها إلى شيطان مخرب، وإن كل امرئ عُرضة لهذا الشيطان، ولا يسلم منه وينجو من شروره إلا من استمسك بمنهج الله تعالى واستعان بهَدْيه. والرسول ﷺ هو الأسوة الحسنة، ولقد اصطبغت ميوله وغرائزه وملكاته جميعا بصبغة الله تعالى، فلا يمكن لها أن توجهه إلا إلى خير أو حق. نعم، لقد أسلمت كل طبائعه لله تعالى فلم تعد تتحرك أو تنشط أو تدفعه إلا نحو الهدي الإلهي. لقد كان خُلقه القرآن، وما قد يُوَلد تأثيرا شيطانيا عند غيره.. لم يعد ينفعل إلا لتأثيرات الملائكة عنده.. إنه المثل الأعلى للإنسان الرباني.. صلوات الله وسلامه عليه.

أما قوله "قرينه من الجن" فيُحمل على أن التأثيرات الشيطانية التي تلازم كل إنسان إنما هي مستترة في باطنه. إن الغرائز من فطرة الإنسان التي تفعل فعلها فيه دون أن يتنبه لها عادة، وتفعل فعلها من داخله.

- وفي رواية: "إن الشيطان جساس لحاس، فاحذروه على أنفسكم. من بات وفي يده ريح غمر فأصابه شيء فلا يلومن إلا نفسه". (الترمذى والحاكم)
- وفي حديث آخر: "إذا كان جنح الليل وأمسيتم فكفوا صبيانكم..فإن الشيطان ينتشر حينئذ، فأغلقوا الأبواب، واذكروا اسم الله تعالى، وخمروا آنيتكم، واذكروا اسم الله عز وجل، وأطفئوا مصابيحكم..".

باقة من الآداب المحمدية.. ترتقي بالانسان وتجعل منه كائنا نظيفا معافى سالما من الأخطار. إنها آخر ما عرفته الحضارة من قواعد الصحة العامة والخاصة والتربية والأمن. الرسول ﷺ يريد من المسلم أن ينام نظيفا مغتسلا من أثر الطعام حتى يبيت ويصبح سالما. إن الطعام في الفم واليد تفسد رائحة الفم وتضر بالأسنان واللثة، وتجذب الحشرات والهوام الضارة. ولقد سمى النبي ﷺ كل تلك الحشرات والجراثيم الضارة شيطانا.

ثم إن الليل مسرح الهوام والوحوش والمجرمين.. إنه مسرح الشيطان. فكف الصبية وحجزهم داخل البيوت يحميهم من كل تلك الشياطين. يحميهم من لدغات الحشرات، ويحميهم من عدوان الأشرار، ويحميهم مما تُسَول لهم به أنفسهم تحت ستار الظلام. وغلق الأبواب يرد العيون المتلصصة، ويكف أذى من يهم بالأذى. وتغطية الآنية يحمي ما فيها من التلوث ووصول الهوام

اليها. وذكر اسم الله تعالى دعاء لصفتي (الحفيظ والقيوم) فتكمل للمسلم كل أسباب الوقاية بفضل الله تعالى بعد الأخذ بالأسباب وسد الذرائع.

- وفي حديث آخر: "إن للشيطان لُمة بابن آدم وللملَك لمة. فأما الشيطان فإيعاد بالشر وتكذيب بالحق. وأما لمة الملَك فوعد بالخير وتصديق بالحق. فمن وجد ذلك فليعلم أنه من الله فليحمد الله تعالى، ومن وجد الأخرى فليتعوذ من الشيطان". (الترمذى)

إن التأثير الملائكي معروف بتوجيه المرء نحو الخير والسعادة والسلامة للفرد والمجتمع. أما التأثير الشيطاني فهو في اتجاه الفساد والضلال والشر والإيذاء. فمن وجد ميلا نحو الخير فليحمد الله على ذلك وليمض في طريقه، ومن وجد أن مراده فيه إضرار وإيذاء بالنفس أو بالغير فليلجأ إلى الله يسأله الحماية من توجيه الشيطان.. أي النفس الأمارة بالسوء.

- وفي حديث آخر: إن جارية نذرت أن تضرب بالدف بين يدي النبي ﷺ فسمح لها. ودخل عليه بعض صحابته الكرام، ثم دخل عمر، فألقت الجارية بالدف وانفلتت هاربة. فقال ﷺ: "إن الشيطان يخاف منك يا عمر". (رواه النسائي والترمذي)

وإذا كان الشيطان.. الذي يتصوره الناس.. يخاف من عمر فلا شك أنه من رسول الله ﷺ أخوف ألف مرة. وأين ذلك الشيطان من موقع يكون فيه الرسول الكريم ﷺ؟

إن ما أراد النبي ﷺ بيانه في تلك المناسبة هو أن هيبة عمر ﷺ التي أخافت جارية تلهو لهوا بريئاً بين يدي البيت النبوى الشريف.. لهيبة حَرِيَّة بأن يفزع منها كل من تُسَول له نفسه تجاوز حدود الله في حضرة عمر ﷺ. والتاريخ شاهد عدل على صدق فراسة النبي ﷺ في شخصيات صحابته. ومن ذا الذي كان يجرؤ على فعل منكر أو قول باطل أمام عمر.. سواء أكان الشخص ملكا من الملوك أو فردا من عامة الناس؟ ألم نر كيف اقتص من ابن عمرو بن العاص أمام أبيه وقال للرجل الذي ضُرِب ابنه: "اضرب ابن الأكرمين"؟ ألم نر الأمير الذي فر من المدينة قبل أن يُصفع على وجهه قصاصا لأنه فعل ذلك بواحد من عامة المسلمين؟ ها هما فردان من علية القوم.. أي من الجن.. يرتجفان أمام عمر لأنهما أخطآ.. فكيف بسائر الرعية التي هي من عامة الناس.. أي من الإنس؟

- ومثل ذلك ما رُوي عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ سمح لها أن تشهد بعض الأحباش والصبيان وهم يضربون بالدف، فلما طلع عليهم عمر ﷺ انصرفوا، فقال النبي ﷺ: "إني لأنظر إلى شياطين الجن والإنس قد فروا من عمر".

صدق رسول الله ﷺ. ولا يغيبن عن البال أن الرسول ﷺ لا يتساهل ولا يتهاون في باطل أبدا، ولا يسمح بفعل شيطاني أن يقع أمامه ولا ينهى عنه.

وبعد.. فكتاب (عجائب الجان) مليء بالعجائب حقا.. روايات بينة السخف بادية البطلان..وكلها بحمد الله واهية السند، ركيكة المعنى، ولا تحتمل وجها معقولا للتأويل، ولذلك صرفنا النظر عن ذكرها لأننا لسنا بصدد تسلية القارىء بأساطير من الآداب الشعبية والفلكلور الخرافي، أو بأقاصيص واهية من خيالات (ألف ليلة وليلة).



بعد أن قرأ العديد من الأصدقاء مُسودة هذا الكتاب.. كانت ردود الفعل لديهم متباينة ومختلفة. فقد أبدى البعض حماسة وتأييدا، مطالبين بسرعة نشره لتعم الفائدة. وذكر البعض أنه مهما قدم الكتاب من أدلة منطقية وشواهد قرآنية، فإن الناس لا يغيرون ما نشأوا عليه من أفكار، فليس من السهل عليهم أن يقتلعوا من عقولهم المعتقدات التي ترسخت في أذهانهم من أقاصيص وحكايات سمعوها في طفولتهم، وعاشوا معها في مجتمع تؤمن غالبيته بها، ويشهد الكثير من رجال الدين فيه على صحتها وحقيقتها.

كذلك فقد أبدى البعض منهم أن محتويات الكتاب تبدو عقلانية ومنطقية، وتتفق تماما مع آيات الكتاب العزيز، كما أنها تتفق أيضا مع الأحاديث النبوية الصحيحة، غير أنها لا تزال تبدو

غير مقنعة تماما، وكأن شيئا ما لا يزال ناقصا. ثم ذكر لي أخ كريم أن الكتاب لم يذكر آيات سورة الجن بالتفصيل، ولم يتناول بالشرح بعض الآيات التي تتعلق بالجن.. وشياطين الجن.. التي تلمس السماء وتتسمع على الملأ الأعلى.

ورغم أني وعدت بالحديث عن سيدنا سليمان ﷺ وعن الجن الذي كان مُسخرا لخدمته في حلقة أخرى من سلسلة "أخطاء شائعة"، إلا أن القارئ الذي ترسخت في ذهنه الصور التقليدية عن أشباح الجن.. قد يرفض التخلي عن هذه الصور.. انتظارا لشرح سوف يأتيه فيما بعد. بل لعل بعض القراء يساورهم الشعور بأن عدم معالجة هذه الآيات لم يكن بسبب الخوف من الإطالة وازدياد حجم الكتاب، وإنما بسبب الخوف من الخوض فيها والعجز عن مناقشتها، وبذا يكون الهروب من مواجهتها تحت بعض الأعذار هو المخرج الوحيد من الأزمة.. الأمر الذي يترك القارئ بغير اقتناع كامل.. يلزم توفره لكي يدفعه للتخلي عن التفسير التقليدي للجن الشبحي، الذي سمعه من الأهل والأصدقاء، ومن المجتمع ووسائل الأعلام، والذي يقول به أيضا الكثير من رجال الدين.

وأدركت على الفور مدى صدق نصيحة الصديق العزيز. وكان عليّ أن أختار بين أحد أمرين.. إما أن أعيد كتابة الموضوع برمته، أو أن أضيف إليه جزءا في النهاية.. يتناول ما يشعر القارئ أنه

لا يزال في حاجة إلى مزيد من الشرح والإيضاح. وقد استقر الرأي على الاختيار الثاني.. حتى لا أضطر إلى إعادة صياغة الكتاب، خاصة وأن فضل السبق في صياغة هذا الكتاب يعود إلى أخي وأستاذي الحاج محمد حلمي الشافعي، رحمه الله تعالى ورضي عنه وأرضاه.. وحتى أبدد ظن القارئ بوجود أية محاولة لتجنب مناقشة أمر من الأمور، أو التهرب من مواجهة أي موضوع من الموضوعات التي تتعلق بالجن، سواء كان ذلك هو الجن الذي كان منه إبليس، أو كان الجن المسخر لسليمان ﷺ، أو الجن الذي يتلمس السماء ويتسمع على الملأ الأعلى. وبذلك.. لعل القارئ يطمئن تماما إلى أنه ليس هناك من أعذار واهية للتهرب من التحدي، ولا من حجج مفتعلة لعدم التصدي.

وقد أضيفت ثلاثة فصول تعالج الموضوعات التالية:

١) الجن في زمن آدم ﷺ

٢) الجن في زمن سليمان ﷺ

٣) الجن والشياطين التي تتسمّع على السماء

* * *

الفصل الرابع
الجن.. في زمن آدم عليه السلام

من المتفق عليه أن آدم عليه السلام كان أول الأنبياء. ويعتقد الكثير من الناس أنه كان أيضا أول البشر. ولا يختلف أحد على أن الجن قد خُلق قبل خلق الإنسان، حيث يقول الكتاب العزيز:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِنْ صَلْصَالٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ۞ وَالْجَآنَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِنْ نَّارِ السَّمُومِ﴾ (الحجر:٢٦-٢٧)

والسؤال الذي يعرف الجميع إجابته هو: لماذا خلق الله تعالى الجن والإنس؟ والإجابة المعروفة التي قدمها القرآن المجيد هي:

﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات:٥٦)

ونفهم من آيات الكتاب العزيز أن إبليس كان من الجن، حسب قوله تعالى:

﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ فَسَجَدُوا إِلاَّ إِبْلِيسَ كَانَ مِنَ الْجِنّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِ ﴾ (الكهف:٥٠)

ومن هذا يتضح أن الجن في زمن آدم عليه السلام كان مكلفا بإطاعة آدم عليه السلام باعتباره خليفة الله في الأرض، أي باعتباره نبي مُرسل إليهم من لدن الله تعالى.

ويؤكد القرآن المجيد على أن النبي الْمُرسل من عند الله يكون من جنس المرسل إليهم، حيث يقول تعالى:

﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ ءَايَاتِي ﴾ (الأنعام: ١٣٠)

ونحن الآن أمام قضية منطقية غاية في الوضوح.. فحيث إن آدم عليه السلام كان مُرسلا إلى الجن، وحيث إن آدم عليه السلام كان من البشر، وحيث إن الْمُرسَل يكون من جنس المرسل إليه، يتعين من ذلك أن يكون الجن، ومنهم إبليس، من جنس البشر. ولا ننسى هنا قول سيد الأنبياء ﷺ الذي ذكره القرآن المجيد:

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ ﴾ (الكهف: ١١٠)

وحيث إنه ﷺ كان رسولا إلى الجن والإنس فهو من جنسهم، أي أن الجن والإنس كانا كلاهما من جنس البشر، تماما كما نقول إن الرجال والنساء من جنس البشر، أو أن نقول.. كما ذكرنا من قبل.. إن الخاصة والعامة من جنس البشر، أو أن نقول إن القادة والرعية من جنس البشر، وهكذا. أي أن لفظ الجن هو لفظ وصفي، ويمكن إطلاقه على البشر الذي يتصف بصفة خاصة.

فيمكن إطلاقه على الخاصة من الناس، لأنهم يتميزون باجتناب الاختلاط مع العامة، وهذا يُضفي عليهم ظلالا من الاحتجاب والخفاء. ويمكن إطلاقه على القادة دون الرعية، فالقادة أيضا يكونون في معزل عن الرعية، وهم قلة بين الناس مما يُضفي عليهم أيضا ظلالا من الخفاء. ويمكن إطلاق اللفظ على القبائل البدائية التي تعيش في الغابات بعيدا عن الأعين، ولا تختلط بغيرها من الأجناس البشرية. وكما يُطلق اللفظ على الحيوانات التي لم تُستأنس بل تتبع غرائزها دون أن تخضع لأي تأثير من غيرها، كذلك يمكن إطلاق اللفظ على الأقوام التي تتشابه مع تلك الحيوانات في اتباع غرائزها دون الخضوع لقوانين الاستئناس. وحين يبعث الله تعالى نبيا يكون معظم الناس من بين أبناء قومه في هذه الحالة شبه الحيوانية، التي يتّبعون فيها غرائزهم دون الخضوع لأوامر الله تعالى، ومن هنا يمكن إطلاق لفظ الجن عليهم.

كان هؤلاء هم البشر الذين يعيشون في زمن آدم عليه السلام، والذين جعل الله تعالى آدم خليفة عليهم، كما جعل سبحانه داود عليه السلام خليفة على بني إسرائيل، حسب قوله تعالى:

﴿يَا دَاوُدُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُمْ بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ﴾ (ص:٢٦)

كذلك حين قال تعالى:

﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ (البقرة:٣٠)

فإنه سبحانه جعل آدم خليفة على هؤلاء البشر الذين كانوا يحيون حياة البهائم والحيوانات التي تتبع غرائزها دون أن تخضع لقوانين الاستئناس، ولذلك وصفهم الله تعالى بأنهم كانوا من الجن الذي خُلق من نار السموم. وكما أن نار السموم لا يسهل السيطرة عليها أو كبح جماحها، فكذلك كان هؤلاء البشر في زمن آدم.. الذين لم يخضعوا للقوانين الإلهية التي تهذب النفس وتُلزمها بقوانين التقوى والهداية الربانية.

لقد ذكرنا فيما سبق أنه من الممكن أن نفهم من التعبيرات: خُلق من عجل، وخُلق من ضعف، وخُلق من طين، وخُلق من نار، أن المخلوق الموصوف يميل في طبيعته إلى التعجل واستعجال النتائج، أو أنه يميل في طبيعته إلى التكيف والخضوع للقوانين التي تُشكل حياته.. كالطين، أو أنه يميل في طبيعته إلى التمرد ولا يخضع للسيطرة ولا للقوانين.. كالنار. والبشر الذي يخضع للقوانين ويُكيّف حياته حسبما تأمره به قوانين الله تعالى، فإنه يكون إنسا أو إنسانا. وأما الذي يتمرّد على القوانين ولا يسهل السيطرة عليه ولا يتبع إلا غرائزه الجامحة فهو جن أو جان أو مارد متمرد.

ونستخلص من كل ما سبق أن قوما كانوا يعيشون في مجتمع بدائي، أشبه بمجتمعات البهائم والحيوانات، لهم رئيس.. هو إبليس.. تماما كما تتبع البهائم والحيوانات التي تعيش في جماعات قائدا لها. وأرسل الله تعالى إلى هذا القوم نبيا.. هو آدم عليه السلام.. وأمرهم بطاعته، فآمن به من آمن،

وتمرد عليه إبليس رئيس القوم، وتبعه من تبعه، تماما كما يحدث مع كل قوم يأتيهم نبي من عند الله تعالى.

وهكذا تتضح الأمور.. ببساطة وسهولة ويسر.. وبشكل يتفق مع العلم والعقل، وينأى عن السخافة والخرافة. إن علماء السلف الأفاضل الذين لم يُتح لهم من المعارف والعلوم ما يتاح الآن، لا يقع عليهم لوم إذا آمنوا بأن الأرض كانت مسطحة، وأنها كانت مركز الكون، وأن الشمس والقمر والكواكب كانت هي التي تدور حولها. ولكن اللوم كل اللوم على هؤلاء الذين يصرّون.. بعناد لا مبرر له.. على التمسك بأفكار الجهل الماضي في زمن العلم الحاضر، والذين يتمسكون بتفاسير للقرآن المجيد تتعارض مع ما ثبت من العلوم والمعارف. أليس الأولى بالمسلمين الذين نهضوا بالإسلام فحملوا مشاعل العلم والحضارة في الشرق من الهند وبخارى إلى بغداد، وفي الغرب من مصر وتونس إلى قرطبة في الأندلس، في الوقت الذي كانت أوربا تغط فيه في سبات عميق خلال ليل طويل من عصور الظلام.. أليس الأوْلى بهؤلاء المسلمين أن يكونوا هم السبّاقين إلى إعادة التفكير فيما لديهم من تفاسير تتناقض مع العلوم التي تكشفت، والمعارف التي اتضحت وترسّخت؟

إن العقبة الكأداء أمام الكثير من الناس هي قبول فكرة أن آدم عليه السلام لم يكن هو أول البشر. إذ

على الفور تقفز إلى الأذهان نظريات دارون عن التطور، وأن الإنسان قد تطور عن القردة والشمبانزي، وأن هذه كلها أمورا تتناقض مع ما يقول به القرآن المجيد. ونحن لا نقول بأن الإنسان قد تطور عن القردة أو الشمبانزي، ولا نقول بأن ما قاله دارون هو علم ثبتت صحته، فإن ما قاله دارون لا يخرج عن كونه مجموعة من النظريات التي لم يقم على صحتها دليل علمي. غير أن مبدأ التطور في حد ذاته أمر لا يستطيع أن ينكره عاقل. والقرآن المجيد يقف شاهدا على ذلك حيث يقول:

﴿أَوَلَمْ يَرَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَنَّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَاهُمَا وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَآءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ أَفَلاَ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٠)

ومن الواضح أن الآية الكريمة تتحدث عن بداية خلق الأرض حين فُصلت عن السماء، وفي نفس هذا السياق تذكر الآية أن الله تعالى جعل من الماء كل شيء حي، أي أن بداية الحياة كانت من الماء، وهذا بالضبط ما يقول به العلم الذي ثبتت صحته. لقد بدأت الحياة بشكلها البدائي الأوَّلي من الماء، ثم تطورت هذه الحياة وتنوعت، تماما كما يصفها ويقررها القرآن المجيد في قوله تعالى:

﴿وَاللهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِّن مَّاءٍ فَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِهِ وَمِنْهُمْ مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُمْ

مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ اللهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (النور: ٤٠)

والعجب كل العجب أن المسلمين يقرأون في كتابهم العزيز قوله تعالى الواضح كل الوضوح:

﴿مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا ۝ وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (نوح:١٣)

ومع ذلك يريدون أن يُقصروا هذا التطور على طور الطفولة فالشباب فالكهولة. ونحن لا ننكر أن الإنسان يمر بهذه الأطوار، ولكن لماذا نُقصر التطور على هذه الأطوار فقط؟ ولماذا لا تكون نظرتنا وفهمنا للكتاب العزيز أوسع وأشمل، فنقول إن الإنسان مر أيضا بأطوار من الخلق، من مرحلة التخلق من الماء إلى مرحلة التخلق من الطين. ولعله في مرحلة من مراحل تطوره كان يمشي على بطنه أو على أربع إلى أن صار يمشي على رجلين. إن الله تعالى هو الخالق، وهو الذي يحكم شكل التطور الذي يمر به خلقه. ونحن لا نقول إن الطبيعة هي التي تتحكم في التطور، فإن الطبيعة ليست كائنا عاقلا له إدراك وحكمة لكي تقرر الطريق الذي يسير فيه التطور، ولا الهدف الذي يصل إليه هذا التطور. كذلك فإن القوانين التي يزعم البعض أنها تتحكم في الخلق، مثل قانون البقاء للأصلح وقانون الانتخاب الطبيعي، ليست أيضا ذاتا عاقلة لكي تقرر من الذي يبقى ومن الذي يهلك، فالله تعالى هو الذي يختار، وهو سبحانه الذي يخلق ويهلك، ويحيي ويميت. يقول عز وجل:

﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ سُبْحَانَ اللهِ وَتَعَالَى عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (القصص:٦٨)

فالله تعالى هو وحده الذي يختار من الذي يبقى ومن الذي يهلك، والأوْلى والأصح أن نُطلق على قانون الانتخاب الطبيعي اسم قانون الانتخاب الإلهي، لأن الله تعالى هو الذي يضع القوانين، وليست القوانين هي التي تضع نفسها.

وباختصار.. إن التطور ليس أمرا يتعارض مع خلق الله، بل إن كتاب الله يؤكد على حقيقته، تماما كما يؤكد على أن الله تعالى وحده هو الخالق، وليس من خالق سواه.

المشكلة هي أن الناس قد ترسخ في أذهانهم ما قرأوه من تفاسير العصور الوسطى، وبالتالي فقد انطبعت في أذهانهم مفاهيم لا يبغون عنها حوَلا. فمثلا.. حين يقرأون قوله تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء:١)

يتبادر على الفور أن هذه النفس الواحدة هي آدم عليه السلام، وأن زوجها الذي خُلق منها هو حواء، مع أن الآية الكريمة لا تذكر آدم ولا حواء. إنها تذكر نفسا واحدة، قد تكون هذه النفس هي الأميبا، أو نوعا من أنواع البكتريا، أو نوعا من الحياة التي لا تُرى بالعين المجردة، بل يلزم استخدام

الميكروسكوبات لرؤيتها. ألم يقل الله تعالى بأسلوب الاستفهام التقريري.. دلالة على حدوث وتحقق ما يُستفهم عنه:

﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإِنْسَانِ حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان:١)؟

أي أنه كان شيئا ما، ولكنه لم يكن شيئا مذكورا.. أي أنه كان نوعا من الحياة ضئيلا لا يكاد يُرى. وهنا يقول لنا المفسرون القدامى أن المقصود بهذا النوع من الحياة هو المني الذي يقذفه الرجل، ولا مانع أن يكون الأمر كذلك، ولكن.. لماذا يقتصر التفسير على الحيوان المنوي وحده؟ لماذا لا نفهم الآية على أنها تنطبق أيضا على الإنسان حين كان يمر في مراحل خلقه الأولى، فكان نوعا من الحياة التي خلقها الله تعالى، تماما كما خلق المني؟

وهنا نقطة هامة تذكرها الآية الكريمة، ونود أن نلفت أنظار القارئ إليها. فالآية تقرر بأن حينا من الدهر قد مر على "الإنسان" لم يكن فيه شيئا مذكورا، ولم تقل الآية بأن حينا من الدهر قد مر على "بني آدم" لم يكونوا فيه شيئا مذكورا. فلفظ "الإنسان" اسم جنس.. أي أنه يشمل جميع أفراد الجنس، فإذا حصرنا نوع الحياة التي مر بها الإنسان على الحيوان المنوي فقط، فكيف تنطبق الآية على آدم عليه السلام وعلى حواء وهما من جنس الإنسان، وهما.. حسبما تقول به تفاسير العصور الوسطى.. لم يُخلقا من مني، بل إن آدم خُلق من تراب الأرض، وحواء أيضا لم تخلق من حيوانات

منوية بل خُلقت من أحد أضلاع آدم، رغم أن علم التشريح قد أثبت أن الأضلاع لدى الرجل والمرأة متساوية العدد؟

إن الخوف من نظريات خاطئة للتطور وضعها دارون أو غيره، تقوم على استبعاد وجود الخالق تعالى، أو إسناد الخلق إلى مجموعة من القوانين التي لا عقل لها، يجب ألا يصرفنا عن قبول التطور الذي يتحكم فيه الخالق سبحانه وتعالى. وفي آية سورة النساء السابق ذكرها.. يمكن أن نفهم النفس المذكورة فيها على أنها نوع من الحياة المرحلية التي مر فيها خلق الإنسان، لم يكن فيها لهذه الحياة جنسا معينا يختص بالذكورة أو الأنوثة، تماما كما هو الحال بالنسبة للبكتريا أو الأميبا. ثم طَوّر الله تعالى هذه الحياة.. وفي مرحلة أخرى جعلها تتنوع إلى ذكر وأنثى. أي أن الله تعالى خلق من هذه النفس الواحدة ذات الجنس الواحد جنسا آخر، راحا يتزاوجان، وفي النهاية.. التي قد تكون قد استمرت طوال عدة ملايين من السنين.. بث الله منهما رجالا كثيرا ونساء. ويقول سبحانه في هذا الشأن:

﴿وَهُوَ الَّذِي خَلَقَ مِنَ الْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُ نَسَبًا وصِهْرًا وَكَانَ رَبُّكَ قَدِيرًا﴾ (الفرقان: ٥٤)

أي أن الله تعالى بدأ خلق البشر من الماء، وشأن البشر في ذلك شأن جميع أنواع الحياة الأخرى التي بدأت أيضا من الماء. وربما خلال ملايين السنين.. تطورت هذه الحياة البشرية بأمر الله تعالى

الذي جعل منها الذكر والأنثى، ثم تقدمت الحياة البشرية خلال ملايين أخرى من السنين، وصارت تعيش في مجتمعات تقوم على علاقات القرابة وأواصر النسب والمصاهرة. وهذه الحياة التي بدأت من الماء يُمكن أن يُطلق عليها حياة بشرية باعتبار ما سوف تؤول إليه فيما بعد، ولا يُفهم بالضرورة أن الله خلق مباشرة من الماء بشرا فجعله مباشرة نسبا وصهرا. إن القرآن المجيد يقص علينا أمورا قد تبدو أنها متتالية، ولكنا نفهم أنها تنفصل عن بعضها البعض بمراحل زمنية طويلة.

فمثلا يقص علينا القرآن المجيد أن السيدة مريم تلقت البشارة بأنها سوف تُرزق غلاما زكيا، ويقول تعالى عن هذه البشارة وما تلاها من أحداث:

﴿قَالَتْ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلاَمٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ وَلَمْ أَكُ بَغِيًّا ۞ قَالَ كَذَلِكِ قَالَ رَبُّكِ هُوَ عَلَيَّ هَيِّنٌ وَلِنَجْعَلَهُ آيَةً لِلنَّاسِ وَرَحْمَةً مِّنَّا وَكَانَ أَمْرًا مَّقْضِيًّا ۞ فَحَمَلَتْهُ فَانْتَبَذَتْ بِهِ مَكَانًا قَصِيًّا ۞ فَأَجَآءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِزْعِ النَّخْلَةِ﴾ (مريم: ٢٢)

ومن الواضح بالطبع أن هناك فترة زمنية بين بداية الحمل وبين الذهاب إلى المكان القصي، كذلك هناك فترة زمنية أخرى بين الذهاب إلى المكان القصي وبين مجيء المخاض، ولكن الأحداث التي وقعت في تلك الفترات الزمنية لم تكن بذات أهمية بالنسبة للموضوع الذي تتناوله

الآيات، لذا لم تشر إليها الآيات.

وفي مكان آخر يدمج القرآن المجيد البشارة التي تلقتها السيدة مريم في الدعوة التي نادى بها المسيح بن مريم ﷺ، دون أي ذكر للأحداث التي وقعت بين الزمنين، فيقول:

﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ۞ وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنْجِيلَ ۞ وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (آل عمران:٤٧)

وهنا لا يوجد أي ذكر للحمل ولا للمخاض ولا أية أحداث وقعت خلال الفترة الزمنية التي امتدت على الأقل إلى ثلاثين عاما أو يزيد، بين البشارة التي تلقتها مريم عليها السلام، وبين بداية الدعوة التي أعلنها عيسى ﷺ مخاطبا قومه بقوله ﴿أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ﴾.

وعلى هذا.. حين يقول الله تعالى:

﴿إِنِّي خَالِقٌ بَشَرًا مِّنْ طِينٍ﴾ (ص:٧١)

فلا يعني هذا بالضرورة أن البشر المخلوق قد خُلق في التو واللحظة من الطين، وإنما يعني أن البشر قد تم خلقه في مراحل عديدة، بدأت بمرحلة تكوين الحياة في الماء، ثم أخذت هذه الحياة تنتقل من الماء إلى الطين في مراحل متتالية، قد تكون استغرقت الملايين من السنين، إلى أن اكتمل

في النهاية تكوين البشر في صورته الحالية.

ولكن.. أليس الله تعالى بقادر على أن يخلق من الطين بشرا في التو واللحظة، أليس هو القائل: ﴿اللهُ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٤٧)

والجواب بالإيجاب بالطبع، فإن الله على كل شيء قدير. ولكنه سبحانه لم يذكر أبدا أن ما يقول له ﴿كُنْ﴾ فإنه لا بد أن يكون في التو واللحظة، وإنما يمكن أن تتم كينونته خلال ملايين من السنين، ولكنه حتما يكون، ولا يمكن إلا أن يكون. إنه سبحانه يقول عن المسيح عيسى بن مريم عليه السلام:

﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (آل عمران:٥٩)

غير أننا نعلم من القرآن المجيد.. كما سبق ذكره.. أن السيدة مريم قد حملت الجنين في رحمها كما تحمل النساء، وجاءها المخاض كما يأتي النساء، ووضعت جنينها وليدا كما تلد النساء. فكيف تم خلق عيسى عليه السلام من تراب، ولماذا لم يتم خلقه في التو واللحظة حينما قال الله له كن، كما يفهم بعض الناس من قوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾؟

إن الآية الكريمة تؤكد أن عيسى عليه السلام بشر كسائر البشر، وعلى هذا كانت بداية خلقه من

الأرض كما هو الحال مع سائر البشر، وكما هو الحال مع آدم عليه السلام، وذلك في المراحل الأولى من خلق البشر التي يمكن أن تكون قد تمت منذ ملايين السنين، ثم راحت تتطور خلال سلالات طويلة. ومولد عيسى عليه السلام من رحم أمه لا يغير من حقيقة أن بداية خلقه كانت من تراب. كذلك فإن مولد آدم عليه السلام من رحم أمه لا يغير من حقيقة أن بداية خلقه كانت من تراب. والقرآن المجيد يؤكد أن آدم عليه السلام لم يكن هو أول الجنس البشري، إذ أن الله تعالى يخاطب الجنس البشري فيقول:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾ (الأعراف: ١١)

والآية تذكر ثلاث مراحل مر بها الجنس البشري. المرحلة الأولى هي مرحلة الخلق، أي الإيجاد من العدم، بغير أن يكون للمخلوق صورة معينة: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ﴾. والمرحلة الثانية هي مرحلة التصوير أو إعطاء صورة وشكل محدد للجنس البشري: ﴿ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ﴾. وتأتي المرحلة الثالثة بعد اكتمال استعداد الجنس البشري لتلقي الوحي الإلهي وبعث آدم عليه السلام وخضوع الملآئكة له: ﴿ثُم قُلْنَا لِلْمَلآئِكَةِ اسْجُدُوا لآدَمَ﴾. ونحن نعلم من اللغة العربية أن حرف "ثم" يفيد الترتيب مع التراخي، أي أنه يستعمل للتعبير عن حدثين وقعا متتاليين ويفصل بينهما فترة زمنية. والآية تعني أن الجنس البشري قد تم خلقه دون أن تكون له صورة محددة أو صورة مرئية، مثل الأميبا أو

البكتريا، أي أنه ﴿لَمْ يَكُنْ شَيْئًا مَّذْكُورًا﴾ (الإنسان:١). وخلال مراحل التطور التي مر بها أعطاه الله تعالى شكلا خاصا وصوَّره في الصورة أو الصور التي شاءها سبحانه، إلى أن جاء آدم عليه السلام وكان أول الأنبياء، فأمر الله الملائكة أن تخضع له لتكون وسيلة الاتصال بين الله وبين البشر.

ويزيد القرآن المجيد الأمر وضوحا في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنْسَانَ مِن سُلاَلَةٍ مِّنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّعِينٍ﴾ (المؤمنون:١٢)

﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ ۞ ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلاَلَةٍ مِّنْ مَّآءٍ مَّهِينٍ ۞ ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة:٧)

ففي الآية الأولى يبين الله تعالى أن الإنسان قد خُلق من سلالة، وأن هذه السلالة بدأت من طين. ومن الممكن أن هذه السلالة في بدايتها لم تكن تتصف بالذكورة ولا بالأنوثة، وفي المراحل التالية بدأت مرحلة الذكورة والأنوثة، وصارت السلالة تتكون من ماء مهين، كما تشير إلى ذلك الآية الثانية، ثم تمت تسوية الإنسان وإعداده لكي يحمل الأمانة، فجعل الله له الأفئدة لكي يعي بها ما يسمع وما يرى. وفي المرحلة النهائية بعد أن تم تسوية هذا المخلوق البشري، نفخ الله فيه

من روحه، أي شرفه سبحانه وتعالى بتلقي الوحي الإلهي.

أما الصورة الساذجة التي لم تكن عقول المفسرين في المراحل السابقة تتحمل سواها، وهي أن الله تعالى قد أمر جبريل عليه السلام أن يأتي إليه بقبضة من تراب الأرض، لأنه سبحانه كان يريد خلق الإنسان، فلما أتى إليه جبريل بالتراب، سكب عليه الماء ليتحول التراب إلى طين، ثم أخذ الخالق تعالى يصوغ ويُشكل بيديه الطين في شكل تمثال على شكل البشر الحالي، ثم نفخ فيه من روحه فتحول التمثال الطيني إلى إنسان هو آدم عليه السلام، هذه الصورة لم يعد لها معنى لكي تؤخذ بشكلها الحرفي. ولا يوجد في القرآن المجيد آية واحدة تصف خلق الإنسان بأنه تم بهذه الكيفية. وإذا كانت هناك بعض الأحاديث المنسوبة إلى سيدنا رسول الله ﷺ فهي إما ضعيفة أو منكرة، وأغلب الأقاويل في هذا الشأن هي من الإسرائيليات. أما ما يثبت صحته من أحاديث سيدنا رسول الله ﷺ فيجب أن نفهمه بما يتفق مع القرآن المجيد، لا أن نفهم آيات الكتاب العزيز بما يتفق مع تلك الأحاديث. ولذلك فلا بد أن نأخذ هذه الأحاديث، بفرض ثبوت صحتها، على المعنى المجازي الذي لا يتعارض أحدها فيه مع آيات القرآن المجيد.

إن نفخ الله من روحه في إنسان ما.. لا يعني أبدا أن هذا الإنسان كان بلا حياة وأنه اكتسب بالنفخ الحياة، إلا إذا كان المقصود هو المعنى المجازي. فإن نفخ الله ليس كما ينفخ أحدنا بالونة،

أي أن لا شيء يخرج من الله تعالى ولا شيء يدخل في الإنسان المنفوخ فيه، وإلا لتحتم القول بأن جزءا من الله تعالى قد انفصل عنه ودخل في الإنسان، وهذا باطل بداهة، فالله تعالى لا ينقسم ولا يتجزأ. إن تعبير "روح الله" هو تعبير يُطلق على من يتولى نقل رسالة من الله تعالى إلى من يريد سبحانه إبلاغه بهذه الرسالة، والنفخ من هذا المنطلق هو الإبلاغ. ألا نقرأ في الكتاب العزيز قوله تعالى عن مريم عليها السلام:

﴿وَالَّتِي أَحْصَنَتْ فَرْجَهَا فَنَفَخْنَا فِيهَا مِن رُّوحِنَا﴾ (الأنبياء: ٩١)

فكيف تم النفخ في مريم عليها السلام؟ يجيب الكتاب العزيز فيقول:

﴿ فَأَرْسَلْنَآ إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا ۞ قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنكَ إِن كُنتَ تَقِيًّا ۞ قَالَ إِنَّمَآ أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لأَهَبَ لَكِ غُلاَمًا زَكِيًّا﴾ (مريم: ١٧)

من هذا نستخلص أن ﴿رُوحَنَا﴾ أي روح الله تعالى، هو ﴿رَسُولُ رَبِّكِ﴾. أي أن من يرسله الله تعالى لتبليغ رسالة منه عز وجل هو "روح الله". ولما كان جبريل عليه السلام يتولى نقل رسائل الله تعالى إلى البشر، سُمّيَ روح الله، ولما كان المسيح.. بصفته رسول الله إلى الناس.. ينقل إليهم رسالة الله تعالى، سُمّيَ أيضا روح الله. وبهذا المعنى.. يكون كل رسول يتولى نقل رسالة من الله تعالى إلى الناس، سواء كان من الملائكة أو من البشر، هو روح الله.

وعلى هذا.. حين يقول تعالى عن آدم عليه السلام:

﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ (الحجر:٢٩، ص:٧٢)

﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ﴾ (السجدة:٩)

يكون المقصود بالتسوية هو الإعداد لتلقي الوحي الإلهي، وليس هو تشكيل الجسم البشري من الطين. ويكون المقصود بالنفخ فيه من روح الله تعالى هو تبليغه بالوحي الإلهي والرسالة التي يُكلف بتبليغها للبشر. ويكون المقصود بالسجود هو الخضوع لمقتضيات هذه الرسالة الربانية.. الملائكة بصفتهم مكلفون بتبليغ الرسالة إلى من يختاره الله تعالى من بين خلقه، والعمل على حفاظته وحفظ الرسالة والعمل على تحقيق الإرادة الإلهية.. والبشر بصفتهم مكلفون بطاعة النبي المرسل إليهم، لأن في طاعته تحقيق للإرادة الإلهية. والتسوية بمعناها العام هي إعداد المخلوق لما خُلق من أجل تحقيقه. لذلك فإن كل مخلوق مُهيء جسديا لتحقيق الغرض من وجوده. فالحيوان المفترس الذي يقتات باللحوم مُزود بأنياب لقطع اللحم، وسرعة لاصطياد الفريسة، وقوة.. فردية أو جماعية.. للتفوق على الفريسة. والحيوانات التي تقتات على الأعشاب أقل سرعة، وتفتقر إلى الأنياب الحادة. لذلك يقول تعالى بشكل عام:

﴿سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الأَعْلَى ۞ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ (الأعلى:١)

فكل مخلوق خلقه الله تعالى قد سواه سبحانه لكي يحقق الغرض الذي خُلق من أجله. وبالنسبة للبشر، بصنفيه الإنس والجن، فقد خُلق لكي يعبد الله تعالى. وقد سبق في مقدمة هذا الكتاب شرح معنى العبادة، وأنها ليست مجرد رسوم وشعائر تُؤدَّى فحسب، وإنما العبادة هي التعرف على الأسماء الحسنى واستيعابها والتخلق بها وإشعاعها، والرسوم والشعائر ليست سوى وسيلة لتحقيق العبادة. وحين تم تسوية البشر، أي تم إعداده للمهمة التي خُلق من أجلها، وهي عبادة الله تعالى والتعرف عليه ووصاله، اختار الله سبحانه واحدا من بين هؤلاء البشر، هو آدم ﷺ، وأوْحَى إليه.. أي نفخ فيه من روحه.. لكي يقوم هو بتبليغ الرسالة إلى قومه من البشر. ولما كان قومه من البشر لا يلتزمون بمنهج إلهي، وكانوا يتبعون أهواءهم وغرائزهم كما يفعل الحيوان، أطلق القرآن عليهم لفظ الجن. وعملية تأنيس هؤلاء الجن.. أي تحويلهم من جن إلى إنس، وتحويل الفرد من جان إلى إنسان، هي العملية التي سيقوم بها آدم ﷺ، وهي العملية التي يقوم بها كل نبي يبعثه الله تعالى لتحويل المجتمع البشري الذي يُبعث إليه، من مجتمع الجن.. الذي يعيش فيه على غرائزه الحيوانية، إلى مجتمع الإنس.. الذي يعيش فيه على الأخلاق والمبادئ والْمُثُل والتعاليم الربانية، المجتمع الذي يتخلق فيه البشر بالأخلاق الربانية ويهتدي بهدى الأسماء الإلهية.

هذا هو المجتمع الذي أراد الله تعالى أن يقوم على الأرض، ومن أجل هذا بعث الله تعالى آدم

ﷺ. ومن أجل هذا أخبر الله الملائكة بأنه سوف يجعل في الأرض خليفة.. سوف يجعله في الأرض.. وليس في السماء، ولا في جنة الخلد. ومن أجل هذا خلق الله البشر من الأرض، وفي الأرض، وجعل الأرض مستقرا لهم. وأما الفكرة التي شاعت بين بعض الناس.. أو الكثير منهم.. عن أن الله تعالى قد خلق آدم وحواء في الجنة التي وَعد الله بها المتقين في الحياة الأخرى، فليس لها أساس من الصحة، ولا يؤيدها القرآن المجيد، بل إنه يناقضها ويختلف معها. إن من سوء الظن بالله تعالى، ومن سوء الفهم لحكمته عز وجل، أن نتصور أن إرادته الإلهية توجهت إلى أن يجعل آدم خليفة في الأرض، ومع ذلك فقد راح يخلقه في مكان آخر.

إن الأفكار التي تسربت إلى الدين من الإسرائيليات هي التي أوجدت هذه المتناقضات التي لا أصل لها في الإسلام. ولعل بعض الرجال أرادوا أن يُلقوا باللائمة على المرأة.. في كل ما يلقونه في الدنيا من تعب وعناء.. فنسبوا إليها أنها هي السبب في إخراج آدم من الجنة.. وهم الذين وجدوا في هذه الإسرائيليات مرتعا ومتكأ يستندون عليه في نشر خيالاتهم السقيمة، وتعصبهم المقيت ضد المرأة.

ولكن.. ليس المجال هنا هو الحديث عن الأخطاء الشائعة عن آدم ﷺ، وإنما كان لا بد من الحديث عنه في نطاق الحديث عن الجن، وإيضاح أن هذا الجن المشار إليه في زمن آدم ﷺ هو

المجتمع البشري الذي بُعث فيه، والذي كان يعيش فيه أفراد المجتمع حسب مقتضيات الغرائز كالبهائم والحيوان، فأراد الله تعالى أن يبعث فيه آدم لكي يُعَرفه على الإله المعبود، فيحقق بعبادته إياه الغرض من خلق الإنسان ووجوده.

ونكتفي بهذا القدر عن الجن في زمن آدم ﷺ، ونترك تفاصيل الأحداث في قصة آدم عليه السلام إلى حلقة أخرى من حلقات "أخطاء شائعة"، حيث يمكن أن نتناول فيها هذه الأحداث بتوضيح أكثر إن شاء الله تعالى.

* * *

الفصل الخامس
الجن.. في زمن سليمان عليه السلام

لعله لم يحدث في التاريخ أن نُسبت الخرافة إلى نبي من الأنبياء كما نُسبت إلى سليمان عليه السلام، حتى صار عصره.. أو لعله من الأصح أن نقول.. صارت الخرافات التي شاعت عن عصره، هي مصدر الإلهام للقصاصين والأدباء ورواة الحكايات عن العجائب والغرائب التي يروونها في حكاياتهم وأقاصيصهم، مما أضاف رصيدا إلى الخرافات السابقة. ولكثرة ترديدها على مدى أزمنة طويلة، وطوال قرون عديدة، غابت فيها أجهزة التسلية والإعلام.. من مذياع وتلفاز.. صارت تلك الحكايات والأساطير مع مرور الوقت حقائق ووقائع، يرويها الجيل السابق للجيل الحالي، ويتلقفها الجيل التالي من الجيل الحالي، إلى أن ترسخت في العقول، وترسبت في النفوس. وكان من الطبيعي أن يبحث البعض عن تبرير لهذه الأساطير التي صارت في ذهن العامة حقائق، فانبرى بعض المفسرين لتقديم التفسير الذي يُكسب هذه الأفكار شرعية دينية، ويُضفي عليها سُلطة قرآنية.

ولن نتعرض في هذه العجالة إلى كل ما شاع عن سليمان عليه السلام، فهذا محله حلقة خاصة من

سلسلة "أخطاء شائعة". ولكن سوف نكتفي هنا بالتعرض فقط لذكر الجن والشياطين الذين ذكر القرآن المجيد أن الله تعالى قد سخرهم له. وقد جاء ذلك في خمسة مواضع كما يلي:

الموضع الأول: سورة الأنبياء: الآية ٨٢

﴿وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَن يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ وَكُنَّا لَهُمْ حَافِظِينَ﴾

الموضع الثاني: سورة النمل: الآية ١٧

﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾

الموضع الثالث: سورة النمل: الآيات ٣٨ إلى ٤٠

﴿قَالَ يَآ أَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾

الموضع الرابع: سورة سبأ: الآيات ١٢ إلى ١٤

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن

مَحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۞ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمُهِينِ﴾

الموضع الخامس: سورة ص: الآيات ٣٥ إلى ٣٩

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنْبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۞ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۞ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۞ وَءَاخَرِينَ مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ۞ هَذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

هذه هي كل الآيات التي جاءت عن سليمان عليه السلام وذُكر فيها الجن والشياطين، وأما الآيات الأخرى التي تتعلق به عليه السلام ولم يُذكر فيها الجن ولا الشياطين، فلن نتعرض لها في هذا الكتاب، حيث أرجأنا ذلك إلى الحلقة التي تتناول كل ما شاع من أخطاء عن سيدنا سليمان عليه السلام.

ويذهب الكثير من الناس إلى أن تفرد سليمان عليه السلام بهذه الأمور العجيبة والشاذة.. حسب فهمهم.. كان بسبب هذا الدعاء الذي توجه به سليمان إلى الله تعالى أن يهبه ملكا لا يعطيه لأحد من بعده، كما هو مذكور في الموضع الخامس من سورة ص:٣٥، واستجابة لهذا الدعاء سخر الله تعالى له الريح التي تجري بأمره، وسخر له الجن والشياطين، وأَسَال له عين القطر، وعلّمه

لُغات الطيور والحيوانات والحشرات، حتى إنه كان يفهم لغة النمل، إلى آخر هذه الأفكار التي شاعت عنه ؊. لذلك فالأجدر بنا أن نتناول بالمناقشة أولا آيات سورة ص المذكورة في المجموعة الخامسة قبل أن نتناول الآيات الأخرى.

تقول آيات سورة ص إن سليمان ؊ دعا الله تعالى أن يهبه مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، فما معنى هذا الدعاء؟ هل كان سليمان.. الذي عُرف بالحكمة فصار اسمه يقترن بها حتى إنه كان يُسمى باسم سليمان الحكيم.. والذي وصفه الله تعالى في القرآن الكريم فقال عنه:

﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص: ٣٠)

﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَى وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (ص: ٤٠)

وقال عن داود وسليمان عليهما السلام:

﴿وَكُلاًّ ءَاتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (الأنبياء: ٧٩)

هل كان سليمان هذا رجلا يطمع في الْمُلك الدنيوي، بل ويريد أن يقتصر هذا الملك الدنيوي عليه وحده فقط، فلا يؤتي الله أحدا من الناس من بعده مُلكا مثله؟

هل يليق هذا بسليمان الحكيم؟ وإذا كان الطمع في الملك الدنيوي يليق برجال الدنيا، فهل يليق بنبي من أنبياء الله تعالى أن يكون مطمعه هو ليس فقط في الحصول على الملك الدنيوي، بل

في منع الله تعالى من أن يُنعم على غيره من البشر بملك مثله إلى يوم القيامة؟ هل هذه هي أخلاق الأنبياء الذين ذكر الله تعالى عنهم، ومن بينهم سليمان ﷺ:

﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ فَإِن يَكْفُرُ بِهَا هَؤُلآءِ فَقَدْ وَكَّلْنَا بِهَا قَوْمًا لَّيْسُوا بِهَا بِكَافِرِينَ ۞ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللهُ فَبِهُدَاهُمُ اقْتَدِهْ﴾ (الأنعام: ٨٩-٩٠)

إن سيدنا رسول الله ﷺ لم يقتد بهدي سليمان ﷺ.. حسب هذا الفهم الخاطئ لدعائه.. فهو لم يسع للمُلك، وإنما الْمُلك هو الذي سعى إليه. ولم يَرِد عنه بتاتا أنه دعا الله تعالى طلبا للمُلك، ناهيك عن أن يدعو الله بأن يهبه مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده.. بالمعني الذي يشيع في ذهن الناس.. حسبما قال به بعض المفسرين في العصور الوسطى، في شأن سليمان ﷺ.

إن التفاسير التي تَنسب إلى سليمان الحكيم هذه الأثرة والأنانية وحُب النفس وتعظيم الذات.. لا يمكن أن تكون تفاسير صحيحة. فهي لا تليق بأنبياء الله، بل إنها لا تليق بالرجال الصالحين.. فضلا عن أنبياء الله الذين آتاهم من لدنه حُكماً وعلما. ونحن نحترم ونقدّر ونبجل جميع من تولى تفسير القرآن المجيد، ولكنهم كانوا رجالا صالحين.. اجتهدوا بكل أمانة وإخلاص، فأصابوا في الكثير.. وأخطأوا في القليل، ولهم أجر كريم على ما أصابوا وما أخطأوا فيه. ولكن.. لقد آن الأوان لهذه الأمة أن تدرك أنها تعيش في القرن الحادي والعشرين، وعليها أن تعيد التفكير في فكر

العصور الوسطى، وتتناوله من منطق العلم الذي آتاه الله تعالى لسليمان ﷺ، وليس من منطق أقاصيص الخيال العلمي.. أو الخيال الأسطوري.. الذي شاع في أساطير اليونان، أو الخرافات التي تسربت من الإسرائيليات.

ولنتناول التفسير الشائع لهذا الدعاء بالتحليل لكي نرى ما يمكن أن يتكشف عنه هذا التحليل.

أولا:

يدّعي أصحاب هذه التفاسير أن سليمان طلب من الله تعالى أن يُؤتيه مُلكا لا يُؤتي مثله لأحد من بعده. ولا يمكن إنكار أن مثل هذا الطلب يتضمن إحساسا بالأنانية وتمجيدا للنفس عن طريق الحصول على الْمُلك الدنيوي. ونحن نرى أن إلصاق مثل هذه المشاعر والتصرفات بأحد أنبياء الله هو أمر لا يجوز ولا يصح، بل إن فيه افتئاتا على نبي من أنبياء الله، وفيه حط من خُلق الأنبياء، وإن الإساءة لخلق واحد من الأنبياء إساءة لجميع الأنبياء، تماما كما أن الكفر بواحد من الأنبياء هو كفر بجميع الأنبياء.

ثانيا:

لا يقتصر الأمر على الإساءة والحط من خُلق سليمان ﷺ، بل إن فيه إساءة لله تعالى. فكيف

قَبِل الله تعالى من نبيه هذا الدعاء؟ وهل نسينا ماذا فعل الله تعالى مع سيدنا نوح عليه السلام حين ظن أن وعد الله بنجاة أهله من الغرق يشمل أيضا ابنه غير المؤمن، فكان أن قال له الله تعالى:

﴿إِنَّهُ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُ عَمَلٌ غَيْرُ صَالِحٍ فَلاَ تَسْئَلْنِ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ إِنِّي أَعِظُكَ أَنْ تَكُونَ مِنَ الْجَاهِلِينَ﴾ (هود: ٤٦)

فكيف سكت الله تعالى عن مثل هذا الدعاء الذي دعا به سليمان عليه السلام.. إن كان معناه حقا كما يقولون؟ ولماذا لم يلفت الله نظر سليمان بأنه قد تدخل بدعائه هذا في أمر يختص به الله تعالى وحده، لأنه هو وحده صاحب الفضل، وهو وحده الذي ينعم بما يشاء على من يشاء، وهو وحده الذي يرزق من يشاء بغير حساب، ولا يليق بل لا يحق لأحد أن يضع حدودا أو قيودا على أسمائه الحسنى.. المنعم، الرزاق، الوهاب، الباسط، المعز، الكريم، الواسع، المغني، المنان، وغيرها من أسمائه عز وجل التي تشير إلى اختصاصه وحده بالفضل والعطاء ؟

ثالثا:

يقول تعالى إنه قد استجاب لدعاء سليمان عليه السلام، وأوضح نتيجة الاستجابة فقال:

﴿قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ ۞ فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَآءً حَيْثُ أَصَابَ ۞ وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّآءٍ وَغَوَّاصٍ ۞ وَءَاخَرِينَ

مُقَرَّنِينَ فِي الأَصْفَادِ ۞ هَذَا عَطَآؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾

أي أن الله تعالى أعلن بطريقة عملية عن استجابته لدعاء سليمان عليه السلام وحصرها في أمور ثلاثة هي:

١- سخر له الريح تجري بأمره رخاء حيث أصاب

٢- وسخر له الشياطين كل بناء وغواص

٣- وسخر له شياطين آخرين مقرنين في الأصفاد

وقد حدد الله تعالى هذه الأمور الثلاثة كنتيجة للدعاء، فقال بعدها مباشرة: ﴿هَذَا عَطَآؤُنَا﴾

والسؤال الآن هو.. هل كانت هذه الأمور الثلاثة وقفا على سليمان عليه السلام؟ وهل صحيح أن الله تعالى لم يسخرها لأحد غيره، كما تدّعي التفاسير التي تقول أن دعاءه كان بهذا المعنى؟

١- تسخير الرياح لتجري بأمره.

أما الرياح فقد سخرها الله تعالى للإنسان عامة، وهو سبحانه لم يجعل تسخير الرياح وقفا على سليمان عليه السلام وحده، لا في زمنه ولا من بعده. وليست الرياح وحدها هي التي سخرها الله تعالى للإنسان، إذ يقول عز وجل:

﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارُ ۞ وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ

وَالْقَمَرَ دَآئِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ ۝ وَءَاتَاكُمْ مِّن كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ﴾ (إبراهيم: ٣٢)

بل إنه سبحانه سخر للإنسان كل ما في السماوات وما في الأرض، حيث يقول:

﴿أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً﴾ (لقمان: ٢٠)

وهنا قد يعترض علينا بعض هؤلاء الذين يلذ لهم أن يتمسكوا بما يسمونه تُراثا، ويظنون أنهم بتمسكهم بهذا التراث يجعلون من أنفسهم سلفيين يتبعون ما كان عليه السلف الكريم من عقيدة وشريعة، فيقولون: إن تسخير الرياح لسليمان عليه السلام كان يختلف عن تسخير الرياح للإنسان، فقد كانت الرياح تجري بأمره حيث يشاء.. أي أنه كان يأمر الرياح أن تهب في هذا الاتجاه أو في ذاك، فتتبع الرياح أمره.

ونحن نسأل.. من أين أتوا بهذا التفسير الأسطوري الميثالوجي، وكأنه عليه السلام قد تحوّل فصار كأحد آلهة اليونان القديمة، التي كانت في زعم القدامى من أهل اليونان تسيطر على الرياح وعلى قوى الطبيعة الأخرى؟

إن الله تعالى يقول إن الريح كانت ﴿ تَجْرِي بِأَمْرِهِ﴾ ولم يقل إنها كانت (تجري طاعة لأمره)، والفرق بين التعبيرين كبير. التعبير الثاني يدل على أن الريح كانت تأتمر بأوامره، وأما التعبير الأول،

وهو التعبير القرآني، فيعني أن الريح كانت تجري بما يعمل على تحقق أموره وتحصّل أغراضه. إنك حين تقول إن الأم تقوم بأمر طفلها، لا تعني أن الأم كانت تتلقى الأوامر من طفلها، أو أنها كانت تطيع أوامره، وإنما تقصد أن الأم كانت تعمل على تحقيق ما يلزم طفلها من أمور، وتأدية ما فيه مصلحته.

وبهذا المفهوم.. ألم يُسخر الله تعالى الرياح لنبيه محمد ﷺ وللمسلمين في غزوة بدر؟ ألم يُلق الرسول الكريم ﷺ بحفنة من التراب في اتجاه جيش قريش قائلا: شاهت الوجوه، وفي الحال هبت الريح لتحمل الرمال في عيون المشركين فتعوق قدرتهم على الرؤية؟ ألم تحمل الريح سهام المسلمين وتزيدها سرعة وقوة، بينما كانت تعوق سهام المشركين وتغير من اتجاهها؟ أليس صحيحا القول بأن الله سخر الريح لرسوله وللمسلمين في غزوة بدر فكانت تجري بأمرهم؟ فكيف يُقال إن تسخير الريح لسليمان عليه السلام كان وقفا عليه وحده، وأن هذا لم يتحقق لأحد من بعده.. كما يقول بعض المفسرين؟

٢- تسخير الشياطين كل بنّاء وغوّاص.

لماذا يستنتج البعض من هذه الآية الكريمة أن الله تعالى سخر لسليمان عليه السلام الجن والشياطين.. بالصورة الأسطورية الشائعة بين الناس؟ إن الله تعالى يقول إن هناك شياطين من الإنس وشياطين

من الجن، ويوحي بعضهم إلى بعض، إذ يقول تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا شَيَاطِينَ الإِنْسِ وَالْجِنِّ يُوحِي بَعْضُهُمْ إِلى بَعْضٍ زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُورًا﴾ (الأنعام:١١٢)

إذن.. ما دام هناك شياطين من الإنس، فما هو ذلك الذي تحتويه الآية الكريمة بصدد سليمان عليه السلام مما يجعل المفسرين يُقْصرون لفظ "الشياطين" على الجن فقط.. بمفهومه الأسطوري.. دون الإنس؟ هل لكونهم موصوفين بأنهم بناءون وغوّاصون؟ إن الشائع المعروف هو أن عمليات البناء والغوْص يقوم بها البشر، وعلى هذا.. فكونهم بنائين وغواصين يدل على أنهم شياطين من الإنس، وليسوا بالضرورة شياطين من الجن الذي يتخيله العامة من الناس.

إن البنائين والغواصين من البشر قد بلغوا من المهارة والقدرة الشيء الكثير، من قبل سليمان عليه السلام ومن بعده. فأولئك الذين بنوا الأهرام كانوا أشد مهارة من أولئك الذين بنوا معبد سليمان، وكانوا أكبر قدرة من أولئك الذين بنوا المحاريب والتماثيل والقدور الراسيات التي بناها الشياطين البناءون لسليمان عليه السلام. وقد تساءل صديق عزيز فقال: لو أن الذين بنوا هيكل سليمان هم من الجن الشبحي الذين لهم هذه القدرات الأسطورية، فكيف استطاع ملك بابل أن يحطم الهيكل وينقضه حجرا حجرا، بينما الأهرامات التي بناها البشر ولم يبنها الجن، ظلت شامخة تتحدى

التاريخ؟ كذلك فإن الغواصين في زمننا هذا بلغوا من المهارة ما لم يبلغه أولئك الغواصون الذين كانوا في زمن سليمان عليه السلام. لقد استخرج الإنسان البترول من قاع البحار والمحيطات، ووصل باستعمال الآلات الحديثة إلى أعماق لم تحلم بها الشياطين الغواصون في زمن سليمان عليه السلام. فكيف يُقال إن المهارة في البناء والغوص كانت وقفا لسليمان وحده، ولم تنبغ لأحد من بعده، كما يدّعي بذلك بعض المفسرين؟

٣- تسخير الشياطين المقرنين في الأصفاد.

مرة أخرى نقول إنه ليس في الآية ما يحتم حصر كلمة الشياطين هنا في الجن الشبحي، بل كونهم مقرّنين في الأصفاد يدل على أنهم من شياطين البشر المقيدين في الأغلال، كالمساجين وأسرى الحروب، ولم يكن هؤلاء وقفا على زمن سليمان عليه السلام وحده. فالواقع المشهود يقول لنا إنه بعد زمن سليمان ظل الشياطين من جنود الأعداء يقعون أسرى ويُقرّنون في الأصفاد، فكيف ينكر البعض هذا الواقع ويزعم أن سليمان عليه السلام دعا ربه أن يؤتيه هذا الملك ولا يؤتيه لأحد من بعده؟

من كل ما سبق من تحليل وتفنيد، يتبين أن ما يدّعيه بعض المفسرين من أن سليمان عليه السلام سأل الله تعالى أن يؤتيه مُلكا لا يؤتيه لأحد من بعده غير صحيح. فكل هذه الأمور الثلاثة التي آتاها الله تعالى لسليمان.. قد آتاها الله تعالى أيضا للكثير من قبله ومن بعده. فما هو المعنى الحقيقي

للآية إذن؟

إن سليمان عليه السلام كان نبيا من أنبياء بني إسرائيل، واشتُهر بالحكمة وفصل الخطاب، وآتاه الله الملك العظيم، فلم يطمع في ملك مادي ولا دنيوي، وحاشا له أن يسأل الله الملك أو يسعى له، فليست هذه هي مهمة الأنبياء، وإن سعى إليها بعض الناس الذين يتخذون من الدين ستارا وذريعة للقفز على كراسي السُلطة. أما إذا سعى الْمُلك إلى الأنبياء، وحمّلهم الله تعالى أمانة الحكم والسُلطة، فإنهم يحملونها لعمل ما يرضيه عز وجل، وللقيام بما يعظم شأن الله سبحانه، كما يقول:

﴿الَّذِينَ إِنْ مَكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاَةَ وَءَاتَوْا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَللهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج:٤١)

هذه هي الأمور التي يقوم بها الصالحون من الناس، سواء كانوا من الأنبياء أو من غير الأنبياء، لا أن يسألوا الله تعالى أن يؤتيهم من الفضل ما يمنعه عن غيرهم إلى يوم القيامة، أو أن يسبغ نعمه عليهم ويحرم منها غيرهم إلى يوم الدين. لا.. إن سليمان عليه السلام لم يدْعُ الله تعالى أن يؤتيه ملكا لا يؤتي مثله لأحد غيره من الناس أبد الدهر، وقد رأينا أن هذا لم يتحقق في واقع الأمر.

لقد سأل سليمانُ اللهَ تعالى أن يؤتيه مُلكا لا ينبغي لأحد من بعده، والمفتاح الصحيح لفهم هذه العبارة هو في التعبير "من بعدي"، الذي فسره معظم المفسرين على أنه يعني من بعد زمنه.

نعم.. إن كلمة "بعد" يمكن أن تحمل هذا المعنى، ولكنه ليس المعنى الوحيد الذي تحمله، بل تحمل أيضا معنى المغايرة والمخالفة. فالله تعالى يقول:

﴿أَوَ لَمْ يَنظُرُوا فِي مَلَكُوتِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا خَلَقَ اللهُ مِن شَيْءٍ وَأَنْ عَسَى أَن يَكُونَ قَدِ اقْتَرَبَ أَجَلُهُمْ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف:١٨٥)

﴿تِلْكَ ءَايَاتُ اللهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَ اللهِ وَءَايَاتِهِ يُؤْمِنُونَ﴾ (الجاثية:٦)

وكلمة (بعد) في كل من الآيتين الكريمتين لا تعني البعدية الزمنية، وإنما تعني المغايرة أو المخالفة، أي فبأي حديث غير حديث الله وآياته يؤمنون، أو فبأي حديث يخالف حديث الله وآياته يؤمنون. وحينما ننظر إلى دعاء سليمان عليه السلام من هذا المنطلق.. يمكن أن نفهمه على أنه كان يدعو الله تعالى أن يهبه مُلكا لا يهب مثله لأحد ممن يغايره أو يخالفه في زمنه. فحيث إنه كان ملكا على بني إسرائيل، فهو لا يريد بالطبع أن يؤتي الله أحدا من ملوك زمانه الذين يخالفونه مُلكا مثله، حتى لا تتعرض دولته للعدوان منهم. فهو يقصد هنا بعدية المغايرة أو المخالفة، ولا يعني أبدا البعدية الزمانية – التي تضع قيودا على الله الوهاب أن يهب ما يشاء لمن يشاء حين يشاء – وأن تستمر هذه القيود إلى يوم القيامة. لذلك فإنه يُقر في آخر دعائه بأن الله تعالى هو الوهاب، حيث يقول:

﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّن بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص:٣٥)

أي رب اغفر لي وهب لي ملكا لا ينبغي لأحد ممن يخالفني، أو لأحد ممن يغايرني.. في الدين مثلا، فأنا أقر بأنك أنت الوهاب، الذي تهب ما تشاء لمن تشاء، ولا يصح لأحد أن يضع قيودا على أي من صفاتك أو يفرض عليك ما لا يليق بك.

وقد استجاب الله تعالى لدعاء نبيه سليمان، وطمأنه بأنه سوف يؤيده بفضله. فسوف يجعل الريح تجري بما يحقق أموره ويتمم أغراضه، وبأنه سوف يمكنه من استخدام البنائين لبناء المعبد الذي يريد بنائه لعبادة الله تعالى، والغواصين الذين يستخرجون له من البحر حلية يلبسها الناس، وبأنه سوف ينصره على أعدائه فيتخذ منهم أسرى مقرّنين في الأصفاد.

وهكذا تتضح الصورة، بغير خرافة ولا أساطير، وبغير إساءة إلى سليمان عليه السلام، وبدون الحط من خُلقه أو نسبة ما لا يليق إلى الله عز وعلا، وبدون مغايرة الواقع واختلاق المتناقضات مع القرآن المجيد.

* * *

كان لا بد من الاستفاضة في شرح دعاء سليمان عليه السلام حتى لا يزعم أحد بأن الله تعالى قد قضى بأن يهبه مُلكا من الجن والعفاريت.. حسب ما هو شائع في أذهان العامة من الناس.

ولكن ما معنى قوله تعالى إنه حُشر لسليمان جنوده من الجن والإنس والطير؟

لقد ذكرنا فيما سبق أن الجن هم المهرة من الجنود الذين يقومون بالمهام الخاصة، ويمكن أيضا أن يكونوا من سكان الجبال الأشداء. وكل من الصنفين يمكن أن يُطلق عليه لفظ الجن، لأن المهرة من الناس يندر وجودهم، ولهذه الندرة يغلب عليهم طبيعة الاستتار أو عدم الظهور كما يظهر عامة الناس. كذلك يمكن إطلاق لفظ الجن على سكان الجبال، لأنهم أيضا تغلب عليهم ظاهرة الاختفاء لعزلتهم عن الناس وعدم الاختلاط بهم.

* * *

وبذلك يتبقى لدينا المجموعة الثالثة والرابعة من الآيات التي تتحدث عن سليمان ﷺ وعلاقته بالجن. وتذكر المجموعة الثالثة من آيات سورة النمل قصة ملكة سبأ. وبدون الدخول في تفاصيل هذه القصة وما انتهت إليه، وهو ما سوف نتناوله إن شاء الله في حلقة خاصة، فإن ما يهمنا معالجته هنا هو رغبة سليمان أن يأتيه أحد بعرشها. يقول الكتاب العزيز:

﴿قَالَ يَآ أَيُّهَا الْمَلَؤُاْ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ ۞ قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ وَإِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ ۞ قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِنْدَهُ قَالَ هَذَا مِنْ فَضْلِ

رَبِّي ءَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ وَمَنْ شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ﴾ (النمل:٣٨-٤٠)

لعل سوء الفهم الذي ارتبط بهذه الآيات الكريمة كان هو السبب الأكبر والأعظم في شيوع الأفكار الخاطئة عن الجن وقدراتهم الأسطورية التي تفشت بين الناس. والقصة.. باختصار شديد.. هي أنه قد نما إلى علم سليمان عليه السلام أنه يوجد مملكة قوية من ممالك الجوار.. تقوم على أمرها ملكة قوية تتميز بالحكمة والعقل ﴿وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ﴾، غير أن أهل هذه المملكة كانوا يسجدون للشمس من دون الله، وزين لهم الشيطان أعمالهم فصدهم عن سبيل الله. فأراد سليمان أن يأمن شرهم وذلك بأن يدعوهم للإيمان بالله الواحد القهار، وبذلك يكون قد أنقذهم من براثن الشيطان، وأمن أيضا شرهم فلا يعتدون عليه، خاصة وأنهم قوم أقوياء ﴿نَحْنُ أُولُواْ قُوَّةٍ وَأُولُواْ بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾. وقررت الملكة زيارة سليمان عليه السلام في مملكته، وكان قد تنامَى إلى علمها أنه قد أخذ في تجهيز جيش عظيم يضم جنودا لا قِبَل لهم بها وأقاموا على طرف مملكتهم. وكان من عادة الملوك في ذلك الزمن حين يستقبلون ملوكا ضيوفا عليهم أن يقيموا لهم عروشا تليق بمكانتهم. فسأل سليمان عليه السلام مستشاريه والعاملين في بلاطه ﴿قَالَ يَاأَيُّهَا الْمَلَؤُاْ﴾ أيكم يستطيع أن يصنع لي العرش الذي سوف تجلس عليه الملكة حين استقبالها، أي من يُعِدّ لي عرشها، بشرط أن ينتهي العمل قبل وصولهم؟

فقال أحد القادة المهرة الذي يتميز بالذكاء والقوة ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ أنا أصنعه لك قبل أن تنتقل من هذا المقام الذي تقيم فيه ﴿قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِن مَّقَامِكَ﴾. وقال آخر يتميز بغزارة العلوم التي استقاها من الكتب ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ﴾ أنا أستطيع أن أعده لك قبل أن يعود الرسول الذي أرسلته إليهم من طرفك ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾. فلما تم إعداد العرش وراح سليمان عليه السلام يتفقد العمل الذي تم تنفيذه ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ شكر الله تعالى على ما حباه به من فضل وما أنعم عليه في مُلكه من قوة وعظمة.

هذه.. ببساطة.. قصة إعداد عرش الملكة التي اختلف المفسرون في تقديمها. وهنا قد يسوق البعض سؤالا هو.. لماذا لا نقبل التفسير الشائع بين العامة من الناس؟ ولماذا نعتبره أسطوريا وميثالوجيا وخرافيا.. أليس الله بقادر على كل شيء؟

وقضية أن الله تعالى على كل شيء قدير هي كثيرا ما تندرج تحت المقولة التي تقول إنها حق يُراد به باطل. نعم.. إن الله على كل شيء قدير، ولكن ما علاقة كونه على كل شيء قدير بالتفسير الخرافي الذي قال به بعض المفسرين؟ إن السؤال الذي يجب أن يُسأل هنا هو ما إذا كان التفسير الذي قدمناه يتفق مع اللغة العربية التي نزل بها القرآن المجيد؛ ويتفق مع الآيات الأخرى في الكتاب العزيز؛ ويتفق مع العقل والمنطق؛ أم لا. فإن ثبت أنه يتفق.. فلا بد من الأخذ به وقبوله،

وإن لم يتفق فلا بد من تبيين أوجه الخلاف وعدم الاتفاق. ولكن لا يصح أن يُقال إنه جاء في الحديث كذا وكذا، أو أنه جاء في الأثر كيت وكيت. إننا لا نفهم آيات القرآن المجيد بما يتفق مع ما جاء في الأحاديث، وإنما نفهم الأحاديث بما يتفق مع ما جاء في القرآن المجيد. أما ما يُذكر على أنه من الآثار، فلا محل له للحكم على آيات الكتاب العزيز.

وفي مجموعة الآيات موضوع المناقشة.. هناك بعض الكلمات التي نختلف على معناها، وهي كما يلي:

١- كلمة "يأتي" في الجملة: أيكم يأتيني بعرشها، وجملة: أنا آتيك به

٢- كلمة "عفريت" في الجملة: عفريت من الجن

٣- الجملة: "قبل أن تقوم من مقامك"

٤- الجملة: "قبل أن يرتد إليك طرفك"

أما بقية الكلمات فلا خلاف على معناها الواضح الذي تحمله ظاهر الألفاظ. ولنتناول كلا من هذه الكلمات والجمل الواحدة بعد الأخرى.

١- كلمة "يأتي" في الجملة: أيكم يأتيني بعرشها، وجملة: "أنا آتيك به".

لقد فُسّرت هذه الكلمة على أن قائلها.. أيا كان.. سوف يذهب إلى مكان ما، وسوف يُحضر

من ذلك المكان شيئا آخر، هو في هذه الحالة.. عرش الملكة. وقد جاءت هذه الكلمة بهذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى على لسان موسى عليه السلام:

﴿إِنِّي ءَانَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي ءَاتِيكُمْ مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى﴾ (طه:١٠)

أي أن موسى عليه السلام رأى نارا فأراد أن يذهب إلى مكان النار ويعود وقد أحضر معه قبسا منها.

ولو كان هذا هو المعنى الوحيد لهذه الكلمة لصدقنا وآمنا بما يقول به المفسرون، ولكن ليس هذا هو المعنى الوحيد للكلمة، وهي لم تأت في القرآن المجيد بهذا المعنى وحده. لاحظ.. أيها القارئ.. هذا التعبير الذي استعملناه وقرأتَه وفهمتَ معناه بدون الحاجة إلى أي تفسير، وهو: "ولم تأت (الكلمة) في القرآن المجيد بهذا المعنى وحده". والكلمة لم تذهب إلى مكان ما ولم تعد وقد أحضرت معها شيئا ما، وإنما المقصود من هذا التعبير هو أن الكلمة لم تقع في القرآن المجيد بهذا المعنى وحده.

وفي هذا يقول الكتاب العزيز:

﴿وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا﴾ (البقرة:١٨٩)، تأتوا البيوت أي تدخلوا البيوت، وليس تذهبوا إلى مكان ما وتعودوا ومعكم البيوت.

﴿وَلاَ يَأْتُونَ الْبَأْسَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (الأحزاب:١٨)، لا يأتون البأس أي لا يحضرون للقتال، وليس

أنهم يذهبون إلى مكان ما ويعودون ومعهم البأس.

﴿أَوَ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ (الرعد:٤١)، أي أنّا نُؤثر في الأرض، وليس نذهب إلى مكان ما ونعود ومعنا الأرض.

والأمثلة كثيرة عديدة، ويعرفها جيدا من تعَوّد على قراءة القرآن الكريم. ولكن.. لعل البعض ممن يحبون الاعتراض يعترض علينا قائلين إن إتيان شيء ما يختلف في معناه عن الإتيان بشيء ما، فإتيان شيء ما يعني القيام بفعل شيء ما، وأما الإتيان بشيء ما يعني الذهاب إلى مكان ما والعودة بذلك الشيء.

وحيث إن القرآن المجيد هو الحكم الفصل في هذه الأمور، فلا بد من الرجوع إليه. يقول تعالى:

﴿فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ﴾ (الطور:٣٤)، أي فليقدموا حديثا مثله، وليس فليذهبوا إلى مكان ما ويعودوا بحديث مثله.

﴿مَن يَأْتِ مِنْكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ﴾ (الأحزاب:٣٠)، أي من ترتكب الفاحشة، وليس من تذهب إلى مكان ما وتعود ومعها الفاحشة.

﴿فَعَسَى اللهُ أَن يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ﴾ (المائدة:٥٢)، أي عسى أن يحقق الله الفتح، وليس أن يذهب الله إلى مكان ما ويعود ومعه الفتح.

هذه مجرد أمثلة من الكثير الذي ذكره القرآن المجيد، وأوضح أن فعل "يأتي شيئا ما" أو "يأتي بشيء ما" لا يعني بالضرورة الذهاب إلى مكان ما والعودة بشيء ما.

وفي الآية التي نحن بصددها.. يكون معنى الإتيان بالعرش في قوله تعالى: ﴿أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا﴾، ﴿أَنَا ءَاتِيكَ بِهِ﴾، هو من منكم يصنع لي عرشها، أنا أصنعه لك.

٢– كلمة عفريت في الجملة: عفريت من الجن.

وقعت كلمة عفريت مرة واحدة في القرآن المجيد في هذه الآية الكريمة. ولذلك لن نستطيع نحن ولا من يعارضنا أن نستشهد على معناها بآيات القرآن، وليس من سبيل سوى اللغة العربية.

وكلمة عفريت مشتقة من الفعل عَفَرَ، فيقال عفره أي غطاه بالتراب أو طرحه أرضا. ويُقال عفّره أي أهانه وحط من شأنه. وتعني كلمة عفريت: ١) القوي القدير ٢) المتفوق في الذكاء والنشاط ٣) الرئيس ٤) ذو الميول الشريرة ٥) المتعجرف بسبب الكبْر والغطرسة ٦) من يمرغ أعداءه في التراب. (راجع أقرب الموارد وموسوعة لين)

وحيث إن هذا الشخص كان من بلاط الملك، فمن الممكن أن ينطبق عليه المعنيان الأول والثاني، أي القوي القدير والمتفوق في الذكاء والنشاط. والقرآن المجيد يؤيد هذا المعنى إذ يذكر قوله: ﴿إِنِّي عَلَيْهِ لَقَوِيٌّ أَمِينٌ﴾، وحيث إنه من النادر أن تجتمع هذه الصفات في شخص ما.. أي

أن يكون قويا وأن يكون أيضا أمينا، لذلك فقد وُصِف بأنه من الجن، بسبب هذه الندرة التي قل أن يراها الناس.

٣- الجملة: "تقوم من مقامك".

ظن بعض المفسرين أن هذه الجملة تعني قبل أن تقف من مقعدك أي تهب واقفا. ولا شك أن هذا الظن يعتمد على الفهم الخاطئ لما سبق من تصور أن عفريتا من الجن الشبحي سوف يذهب بسرعة البرق إلى مملكة سبأ في اليمن لكي يسرق من هناك عرش الملكة ويأتي به إلى سليمان عليه السلام. والعجيب أن الذين يقولون بهذا التفسير الخاطئ ينسبون أمر السرقة هذا إلى نبي كريم من أنبياء الله.. مدحه الله وأثنى عليه في كتابه الكريم. ألا يعلم هؤلاء أن السرقة إثم عظيم لا يليق بالصالحين من الناس العاديين، فكيف يُلصقون هذا الإثم بنبي من الأنبياء في منْزلة سليمان الحكيم؟ إن هذا العمل لا يقتصر فقط على السرقة.. بل إنه عدوان صارخ على الدولة الأخرى، لأنه كان أمرا بسرقة عرش الملكة الذي يرمز للمملكة كلها. وإنه لمما يثير الرثاء حقا ما يذكرونه من أسباب لتبرير هذه السرقة من أن سليمان عليه السلام أراد أن يُبهر الملكة بقوته وعظمة مُلكه لكي تؤمن معه بالله تعالى وتمتنع عن عبادة الشمس. ويا له من تبرير ساذج ينم عن عقلية بسيطة قد تليق بعقول العصور الوسطى، ولكن لا تليق بالعقول التي تعيش في عصر التفكير والتنوير. إن

الانبهار بعظمة أو قوة أي ملك لم تكن أبدا سببا لأن يميل الإنسان إلى الإيمان، ولذلك فقد جاء أكثر الأنبياء من بين عامة الناس رغم كرم محتدهم ونُبل أصولهم. أما العظمة والملك فلم تكن في جانب الأنبياء إلا ما شذ وندر، حتى لا يظن الناس أنه من المستحيل أن تجتمع العظمة والملك مع خشية الله تعالى وطاعته. ولو كان الانبهار بعظمة الملك يؤدي حتما إلى الإيمان بدين أصحاب الملك والعظمة، لآمن كل الناس من الشعوب المتخلفة بدين أمريكا لما حققته من عظمة وتفوق باهر في الكثير من المجالات العلمية والعسكرية وغيرها.

على أية حال.. إن القيام ليس معناه دائما أن يهب المرء واقفا من مجلسه. يقول تعالى:

﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِنْ ثُلُثَيِ اللَّيْلِ﴾ (المزمل:٢٠)، يعني أنك تتعبد ولا يعني أنك تهب واقفا من مجلسك.

﴿وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَى بِالْقِسْطِ﴾ (النساء:١٢٧)، يعني أن تلتزموا بالقسط في معاملة اليتامى، ولا يعني أن تهبوا واقفين من مجالسكم لليتامى.

أما المقام فليس هو الكرسي أو العرش الذي يجلس المرء عليه، وإنما هو المكان الذي يعيش أو يقيم فيه، لمدة قصرت أو طالت. يقول تعالى:

﴿ وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى﴾ (البقرة:١٢٥)، أي المكان الذي كان يقيم فيه، وليس

الكرسي الذي كان يجلس عليه.

﴿كَمْ تَرَكُوا مِن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ۞ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ﴾ (الدخان:٢٦)، أي كم تركوا من مبان كريمة كانوا يقيمون فيها، وليس كراسي كانوا يجلسون عليها.

من كل ما سبق نستخلص أن معنى "قبل أن تقوم من مقامك" هو قبل أن تقوم بالانتقال من المكان الذي تقيم فيه، وليس قبل أن تهب واقفا من الكرسي الذي تجلس عليه.

٤- الجملة: "قبل أن يرتد إليك طرفك".

جاء هذا التعبير مرتين في القرآن الكريم، مرة في الآية التي نحن بصددها، ومرة أخرى في سورة إبراهيم حيث يصف الله تعالى أحوال الكافرين حين يؤخرهم إلى يوم تشخص فيه الأبصار، فيقول:

﴿مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وأَفْئِدَتُهُمْ هَوَآءٌ﴾ (إبراهيم:٤٣)

أي أن أنظارهم تظل شاخصة، ونظراتهم تظل معلقة لا يملكون الالتفات ولا تحويلها عما تثبتت عليه.

ولكن كلمة "طرف" لا تعني دائما النظر، فإن أطراف الإنسان هي يديه ورجليه. وفي قوله تعالى:

﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَآئِبِينَ﴾ (آل عمران:١٢٧)

فإن التعبير "ليقطع طرفا" يعني ليقطع جزءا من الذين كفروا.. أي يهلكهم.

وفي اللغة.. يقول الشخص المرسل إلى شخص آخر: أنا من طرف فلان، أي أنا رسوله. وأحيانا يكون الرسول عينا لمن أرسله، فهو طرفه. وهذا هو المعنى الذي اخترناه لكلمة طرف في الجملة: قبل أن يرتد إليك طرفك، أي قبل أن يعود إليك رسولك الذي أرسلته إليهم، خاصة وأن الآية السابقة مباشرة تشير إلى بعث هذا الرسول. إذ يقول سليمان عليه السلام لرسوله:

﴿ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهِمْ بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُمْ بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُمْ مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ﴾ (النمل:٣٧)

وهكذا تتضح الصورة كلها.. بغير مبالغات ولا خرافات.. فحاشا لكتاب الله أن يحتوي على تلك الخرافات الأسطورية التي تَصَور بعض الناس حقيقة وجودها في فترة من الفترات. وقد أوضحنا من خلال آيات الكتاب العزيز نفسه، ومن اللغة التي نزل بها ذلك الكتاب، وليس من خلال قول فلان أو تفسير علان، أن الشرح الذي قدمناه هو الشرح الصحيح الذي يتفق مع الكتاب، ويتفق مع اللغة، ويتفق مع العقل، ويتفق مع وقائع الأمور وحقائقها، لا مع الأساطير والخيالات. فمن يختلف معنا فعليه اتباع نفس المنهج والأسلوب، وليبين لنا ما يؤيد رأيه من القرآن الكريم ومن اللغة العربية، وليفند ما ذكرناه.. الحجة بالحجة، والدليل بالدليل، ﴿وَيَمْحُ اللهُ الْبَاطِلَ وَيُحِقُّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ

إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (الشورى: ٢٤)

* * *

بقيَت آيات المجموعة الرابعة حيث يقول تعالى:

﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ۞ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَآءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ ۞ فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمَهِينِ﴾ (سبأ: ١٢-١٤)

وحيث إننا تحدثنا فيما سبق عن تسخير الرياح، فلا معنى لإعادة الحديث عن ذلك. وأما الجن الذي يعمل بين يديه.. فيبدو أنهم لم يكونوا يقتصرون فقط على المهرة من العمال وحدهم، بل يبدو أنهم كانوا ينقسمون إلى مجموعتين.. المجموعة الأولى هم المهرة من عمال بني إسرائيل، والمجموعة الثانية هم من العمال الأسرى الذين كانوا يعملون وهم مقرّنين في الأصفاد. ونعلم من التاريخ أن البعض من بني إسرائيل كانوا يتآمرون على ملوكهم، وأن هذه المؤامرات وصلت إلى ذروتها في زمن داود وسليمان عليهما السلام، وأخذت بعض المجموعات السرية تعمل في الخفاء.

ويُقال إن تنظيم الماسونية.. الذي يقوم على السرية التامة في تركيبه الهرمي.. قد بدأ في عهد الملك سليمان، وإن الكثيرين ممن أقاموا هذا التنظيم السري كانوا من بين أولئك البنائين الذين كان يستعملهم سليمان ﷺ، ومن هنا جاء اسم الماسونيين.. أي البنائين. وبالطبع كان في هذا التنظيم السري خروجا على أمر الله تعالى، ولذلك يقول تعالى عن هؤلاء: ﴿وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾. والملاحظ هنا أن الله تعالى يقول: من يزغ منهم عن أمرنا، أي أن هؤلاء المتآمرين من بني إسرائيل كانوا يعملون ما يخالف شريعة التوراة، ومن هنا كان التهديد لهم بعذاب السعير.

ولكن.. بطبيعة الحال.. لم يكن كل من يعمل في البناء من هؤلاء المتآمرين، إذ كان فيهم أيضا العمال المهرة الذين سخّروا مواهبهم وملكاتهم للبناء وتقوية الدولة وإقامة المعبد الذي يريد سليمان أن يخصصه لعبادة الله تعالى. ولهؤلاء يقول تعالى: ﴿اعْمَلُوا ءَالَ دَاوُدَ شُكْرًا﴾. والملاحظ هنا أنه رغم أن الله تعالى قد وصف هؤلاء بأنهم من الجن الذي يعمل بين يدي سليمان ﷺ، إلا أنه قال عنهم أيضا أنهم من آل داود، مما يدل على أنهم لم يكونوا من الجن الشبحي الأسطوري كما هو شائع في مخيلة العامة من الناس، وإنما هم من بني إسرائيل الصلحاء الذين وضعوا مهاراتهم وقدراتهم في خدمة سليمان ﷺ.

هذه هي المجموعة الأولى من الجن من بني إسرائيل، بشقيها.. الصالح الذي يخدم الدولة، والطالح الذي يتآمر على الدولة. ثم يأتي بعد ذلك ذكر المجموعة الثانية من الجن الذين كانوا يؤدون أعمالهم وهم مقيدون في الأغلال، كما كانت العادة في استخدام الأسرى للقيام بأعمال السخرة. وهؤلاء كانوا مصدر خطر لكثرتهم العددية، ولضرورة وضعهم تحت المراقبة المستمرة. ولما كان داود وسليمان على علم بما يُحاك ضدهما من مؤامرات فقد كانا على حرص شديد، واستحدثا من الأنظمة الصارمة التي يقوم على رعايتها الرجال المخلصون ما يضمن سلامة الدولة من أعدائها في الداخل وفي الخارج. ومن الطبيعي أن يكون ولي العهد، وهو رحبعام.. ابن سليمان عليه السلام.. هو من يعتمد عليه سليمان، ويتكئ عليه، في رعاية أمور الدولة.

وبعد وفاة سليمان عليه السلام تولى ابنه رحبعام شؤون الحكم. غير أنه لم يكن في حنكة أبيه ولا في حكمته، بل كان يميل إلى العبث والانحلال، فالتف حوله مستشارو السوء الذين راحوا شيئا فشيئا يعزلونه عن أمور الرعية بعد أن احتالوا عليه لكسب ثقته، وبذلك راحوا يجردونه من سلطاته الواحدة بعد الأخرى، بعد أن نجحوا في إقناعه بتفويض هذه السلطات إليهم. ولم يمض وقت طويل حتى صاروا هم الحكام الحقيقيون للدولة، بينما الملك غارق في ملذاته.. الأمر الذي أدى في النهاية إلى انهيار الامبراطورية العظيمة التي أقامها داود وسليمان عليهما السلام. فبدأت الممالك

التي كان سليمان قد أخضعها لحكمه في التمرد والثورة، وفي النهاية أدرك الأسرى الذين كانوا يقومون بأعمال السخرة أنهم لو كانوا على علم بما يجري من أمور في هذه الدولة التي أصابها الضعف والوهن، لثاروا وتمردوا لكي ينالوا حريتهم، ولما ظلوا طوال هذه المدة في العذاب المهين.

﴿فَلَمَّا قَضَيْنَا عَلَيْهِ الْمَوْتَ مَا دَلَّهُمْ عَلَى مَوْتِهِ إِلاَّ دَابَّةُ الأَرْضِ تَأْكُلُ مِنسَأَتَهُ فَلَمَّا خَرَّ تَبَيَّنَتِ الْجِنُّ أَن لَّوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِي الْعَذَابِ الْمَهِينِ﴾ (سبأ:١٢-١٤)

وترسم الآية صورة رمزية باستخدام المجاز الذي يُكسب الأسلوب حلاوة وطلاوة. فرحبعام ابن سليمان الذي كان "يتكئ" عليه سليمان في أواخر أيامه في رعاية شؤون الدولة، كان بمثابة المنسأة.. أي العصا.. التي يتكئ عليها المرء في سيره. ودابة الأرض هم مستشارو السوء الذين حاموا حول رحبعام وأخذوا يجردونه شيئا فشيئا من سُلطات الْمُلك، وكأنهم بذلك كانوا يأكلون تلك المنسأة، إلى أن خر الْمُلك العظيم وانهار الصرح الكبير الذي أقامه سليمان. ويقول المثل العربي: من أنجب لم يمت، أي من أنجب ولدا يحمل اسم أبيه ويستمر في أداء رسالته، فكأن ذلك الأب لم يمت بل ظل حيا بحياة ابنه. والعمال الأسرى.. الذين هم في العادة من رعايا الممالك الأخرى التي أخضعها سليمان لنفوذه وسلطانه، ظلوا يعانون من آلام وعذاب الأسر المهين، وهم لا يدركون وفاة سليمان.. إما لأنهم كانوا أغرابا فلم تصل إلى علمهم أنباء وفاته، أو أنهم لم يدركوا حقيقة وفاته إلا

بعد أن انهارت الدولة وتمردت الأمصار، فتمردوا هم أيضا إلى أن نالوا حريتهم.

ولما كان المجاز يحتمل الكثير من المعاني، فمن الممكن أيضا فهم المنسأة.. أو العصا.. التي كان يتكئ عليها سليمان عليه السلام على أنها ترمز لقوة الْمُلك العظيم الذي كان سليمان يعتمد عليه في إخضاع الممالك المعادية له والسيطرة على الأسرى المقرنين في الأصفاد. وبعد وفاته تولى ابنه رحبعام زمام الملك، ولكنه لم يتمسك بأهداب التقوى والصلاح، وغرق في ملذاته، مما أدى في نهاية الأمر إلى انهيار صرح الملك بأكمله. فكان ابنه هذا بمثابة دابة الأرض التي أكلت ذلك الملك العظيم حتى خر وانهار.

أما التفسير الساذج الذي أشرنا إليه فيما سبق عند الحديث عن آيات سورة سبأ، والذي يمكن أن يرجع إليه القارئ في الفصل الثاني من هذا الكتاب تعليقا على سورة سبأ (ص ٦٩-٧٠)، فلعله كان معقولا في العصور الوسطى، ولعل الناس كانوا يستسيغونه لأنهم كانوا يسمعون الكثير من الحكايات والروايات والأساطير، ولم يكن من المستغرب عليهم تصور وقوف سليمان عليه السلام وهو يراقب الجن الذي كان يعمل بين يديه، فيداهمه الموت وهو واقف متكئ على عصاه، ويظل هكذا واقفا أمام الجن وهو ميت، والجن لا يعرف بموته لأنهم لم يكونوا يعلمون الغيب. ولكن لما أخذت حشرات الأرض تأكل العصا، خر سليمان فأدركت الجن أنه مات!!

ولعل غرابة القصة وعجائب أحداثها كانت تسيطر على العقول، فتمنعها من التساؤل والتفكير والاعتراض وإثارة الأسئلة التي ذكرنا بعضها فيما سبق. ولكن.. لعلنا هنا نكتفي بالإشارة إلى ما يقرره الكتاب العزيز، من أن الجن لا يعلمون الغيب. وحبذا لو علم العامة من الناس ذلك حتى يمتنعوا عن دفع أموالهم للدجالين والمشعوذين الذين يدّعون تسخير الجن لاسترجاع المصاغ المسروق، أو لإخراج الأعمال والأحجبة التي أخفتها الحماة ضِيقًا بزوجة ابنها، او أخفتها الزوجة ضيقا بحماتها أو زوجة أخيها.

* * *

الفصل السادس

الجن والشياطين التي تتسمّع على السماء

لقد شاع بين الناس أن الجن والشياطين تستطيع أن تصعد إلى السماء وتتسمع على ما يقوله الله تعالى للملائكة لتختلس بعض المعلومات عن أمور الغيب، فتوحي بها إلى بعض المنجّمين الذين هم على صلة بهؤلاء الجن والشياطين، فيخلطون هذا الفتات من الغيب ببعض الأقوال، ثم يزعمون أنهم على معرفة بأمور الغيب.

ولن ندخل هنا في أسباب شيوع هذه الأفكار بين الناس، ولكن يكفي أن نشير إلى أن هذه الأفكار لم تكن موجودة بين المسلمين في عصر الرسول ﷺ، بل كانت موجودة بين المشركين، فكان ﷺ يُكذب أولئك الذين يدّعون معرفة الغيب من بين المشركين، ومن المعروف عنه أنه كَذّب المنجمين ولو صدقوا. وفي العصور التي يبتعد الناس فيها عن التعاليم الصحيحة للدين، أو يتعرضون فيها لظروف تكبلهم بقيود قاهرة تحد من حريتهم أو تقلل من أرزاقهم، فإنهم يسعون وراء الأماني الكاذبة، ويهرولون خلف الآمال الضائعة. وأما الأثرياء والمترفون منهم فإنهم يبحثون عن المتعة والتسلية، ويبتغون اللهو والعبث بالأمور الإلهية التي لا يشعرون بأهميتها ولا بحاجتهم

إليها، وحينئذ تنتشر فيهم هذه الأفكار. حتى إذا ما شاعت وعمّت هذه الخرافات بين جميع طبقات المجتمع، أخذ بعض رجال الدّين يبحثون لها عن مبرر في الدين ليُضفي عليها شرعية ومصداقية. وقد يتم ذلك بحسن نية، أو بدافع البحث والتقصي الذي قد يخطئ النتيجة، ويحيد عن الحق.

ونحن نرى أن موضوع صعود الجن والشياطين إلى السماء، وتلصصها لمعرفة غيب السماء، هو من الأمور التي أخطأ فيها بعض الباحثين والمفسرين، الذين راحوا يؤوّلون آيات القرآن المجيد لتتفق مع ما يؤمن به العامة من الناس. ولعلهم.. في ظروف الحياة التي كانوا يعيشونها، وما وصل إليهم من علوم ومعارف عن السماء، رأوا في اجتهاداتهم رأيا سليما وفكرا صحيحا. لذلك لا بد لنا قبل الدخول في بحث هذا الموضوع أن نبدأ بتعريف السماء، لنتبين الفرق بين مفهوم السماء في الأزمنة الماضية، ومفهوم السماء كما جاء في القرآن المجيد، ومفهوم السماء كما وصل إلينا في عصور العلم والتنوير.

التعريف اللغوي للسماء

السماء لغة هي كل ما علا، وكل ما علا فقد سما، وسقف الحجرة هو سماء الحجرة لأنه أعلى ما

فيها. ويُطلَق لفظ السماء على تلك الزرقة التي نراها تحيط بالأرض أثناء النهار، وعلى ذلك الأديم الذي يحتوي على النجوم والكواكب أثناء الليل. وكل ما هو سوَى الأرض فهو سماء. وما ارتفع وعلا من الأرض فهو أيضا سماء.

تعريف القرآن للسماء

القرآن نزل بلسان عربي مبين، ولذلك فإن تعريف القرآن للسماء لا يخرج عن المعنى اللغوي للسماء.

(١) فالسماء هي كل ما علا الأرض، وكل ما هو غير الأرض، يقول تعالى:

﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَآءِ﴾ (إبراهيم: ٢٤)

أي أن فروع هذه الشجرة الطيبة تعلو عن الأرض، فهي ليست كالأشجار الزاحفة التي تلتصق فروعها بالأرض بل تعلو عليها، وهذا العلو عن الأرض يصفه القرآن بأنه سماء.

(٢) وكل ما علا فهو سماء، حتى ما علا من الأرض. يقول القرآن المجيد:

﴿وَمَن يُرِدْ أَن يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقًا حَرَجًا كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَآءِ﴾ (الأنعام: ١٢٥)

ويعرف العرب أن التصعّد في السماء هو تصعّد الجبل العالي، الذي يجعل التنفس صعبا نظرا لقلة الأكسجين في الجو مع تواصل الصعود. وعلى هذا فالجبل العالي يُعتبر أيضا سماء.

(٣) كذلك فإن السحاب الذي يعلو الأرض هو أيضا سماء. يقول تعالى:

﴿وَأَنزَلَ مِنَ السَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾ (البقرة: ٢٢)

(٤) وكل ما علا السحاب فهو أيضا سماء. يقول تعالى:

﴿وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَآءِ وَالأَرْضِ﴾ (البقرة: ١٦٤)

(٥) والغلاف الجوي هو أيضا سماء. يقول الكتاب العزيز:

﴿أَلَمْ يَرَوْا إِلى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ في جَوِّ السَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلاَّ اللهُ﴾ (النحل: ٧٩)

(٦) وطبقة الأوزون التي توجد في طبقات الجو العليا وتحفظ الإنسان من الموجات الإشعاعية القادمة من الشمس هي أيضا سماء. يقول القرآن المجيد:

﴿وَجَعَلْنَا السَّمَآءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا وَهُمْ عَنْ ءَايَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٢)

وقد حدث أن سأل بعض الصحابة الرسول ﷺ عن السماء التي هي سقف محفوظ فقال: موجٌ كُفَّ عنكم. ولعل الناس ظلوا لمئات من السنين يتساءلون عن ذلك الموج الذي كَفَّته السماء عنهم إلى أن قدّم عصر العلم والتنوير الإجابة الشافية على ذلك في طبقة الأوزون.

(٧) وأخيرا.. فإن الأديم الذي يحتوي على الشمس والنجوم هو أيضا سماء. يقول تعالى:

﴿تَبَارَكَ الَّذِي جَعَلَ فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا﴾ (الفرقان:٦١)

وعلى هذا.. فإن لفظ السماء في القرآن المجيد ينسحب على سبعة أنواع من السماوات، أو سبع سماوات. ولما كانت هذه السماوات متداخلة غير منفصلة عن بعضها البعض، ولما كان علم الإنسان لا يزال قاصرا مهما بلغ، فإن لفظ "سبع سماوات" يمكن أن يُؤخذ بحرفيته، كما هو مذكور فيما سبق، أو يُفهم بأنه يدل على عدد كبير غير محدد، كما هو المدلول العربي للفظ "سبعة" و "سبعين" و "سبعمائة". كذلك يمكن فهم التعبير القرآني: ﴿سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا﴾ بأنها سماوات تعلو بعضها البعض. ومن الممكن أيضا فهم هذا التعبير بما يعني أنها سماوات تشابه بعضها البعض، حيث إن لفظ الطباق يعني التشابه، خاصة وأن القرآن المجيد يقرر أيضا أن هناك سبع أراض تماثل السماوات السبع. وفي هذه الحالة تكون الأراضي السبع هي القارات السبع: آسيا، أفريقيا، أوربا، أمريكا الشمالية، أمريكا الجنوبية، أستراليا، أنتارتيكا (قارة القطب الجنوبي)، أو تكون الأراضي السبع هي عدد كبير غير محدود من الكواكب الأرضية التي تماثل كوكب الأرض في تركيبها، والتي يُجزم علماء الفلك على وجودها منتشرة في مجرتنا وفي المجرات الأخرى.

تصَوّر الإنسان للسماء

كان الناس في سالف الزمن يظنون أن السماء التي تحتوي على الشمس والقمر والنجوم والكواكب لا تبعد كثيرا عن الأرض، حتى إن فرعون مصر طلب من وزيره هامان أن يبني له صرحا كي يصعد عليه إلى السماء، فيطلع على الإله الذي يدّعي موسى وجوده. يقول الكتاب العزيز:

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا هَامَانُ ابْنِ لِي صَرْحًا لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ ۞ أَسْبَابَ السَّمَاوَاتِ فَأَطَّلِعَ إِلى إِلَهِ مُوسَى وَإِنِّي لأَظُنُّهُ كَاذِبًا﴾ (غافر:٣٥)

وظلت هذه الفكرة عن السماء هي السائدة في أفهام عامة الناس إلى وقت قريب. وبعد أن تم تصنيع التلسكوبات الحديثة.. استطاع الإنسان أن يكشط الغلالة التي كانت تخفي أسرار السماوات. وبدأ عامة الناس يدركون أن الشمس تبعد عنهم بمقدار ٩٢ مليون ميل، وأن المجموعة الشمسية بأكملها ليست سوى نقطة لا تكاد تُرى في مجرة درب اللبانة التي تحتوي على ملايين النجوم والشموس التي تماثل الشمس وتزيد عن حجمها ألوف المرات، وأن هناك ألوف الملايين من هذه المجرات التي تمتد على مدى البصر، الذي لم يستطع الوصول (حتى الآن) إلا إلى مسافة لا تُقاس بالأميال، وإنما تقاس بسرعة الضوء التي تبلغ ١٨٦٫٠٠٠ ميل في الثانية الواحدة.

وعلى هذا تكون المسافة التي تفصل الأرض عن الشمس هي ٨ دقائق ضوئية، بينما يبلغ مدى الرؤية التي استطاع البصر الوصول إليه حتى الآن يتراوح ما بين ١٥ إلى ٢٠ مليار سنة ضوئية. ولكن.. ماذا هناك بعد هذه المسافة؟ لا أحد يعلم. فقد تزيد هذه المسافة كلما استطاع الإنسان أن يُطوّر ويُحسّن من آلات الإبصار، وقد يكتشف الإنسان أن هناك أجراما سماوية تبعد عنا بمسافة ١٥ إلى ٢٠ مليار سنة ضوئية أخرى. وربما كلما تمكن الإنسان من تحسين بصرياته كلما اكتشف وجود أجرام أخرى، وهكذا.. بلا حدود ولا نهاية. وقد يكتشف الإنسان غير ذلك، ولكن.. لنترك المستقبل لما يكشف عنه المستقبل، ولنتحدث عن الحاضر بما فيه من حقائق ووقائع.

لنفترض أن هذا الكون المادي ينتهي على مدى ١٥ مليار سنة ضوئية فقط. ولنفترض أنه بعد هذه المسافة يوجد هناك بناء يحيط بكل هذا الكون، وهو السماء التي ظن فرعون أن الله وملائكته يقيمون فيها، والتي.. إلى حد ما.. لا يزال الناس حتى وقتنا الحالي يشاركونه أيضا هذا الظن. فهل هذه هي السماء التي يمكن أن يتسلق إليها الجن والشياطين لكي يتسمّعوا على الله والملائكة ويختلسوا بعض معارف الغيب، كما هو شائع في أذهان بعض الناس؟ أم أن السماء التي يتسمع عليها الشياطين هي سماء روحانية؟

الواقع إن القرآن الكريم يرسم لنا صورا متوازية للعالم المادي والعالم الروحي، وذلك حتى نستطيع أن نفهم كيفية عمل العالم الروحي بمعرفتنا لكيفية عمل العالم المادي. فكما أن هناك سراجا منيرا.. هو الشمس.. ينير العالم المادي للبشر ﴿وَجَعَلَ فِيهَا سِرَاجًا وَقَمَرًا مُّنِيرًا﴾ (الفرقان:٦١)، كذلك فإن سراجا منيرا.. هو الرسول ﷺ.. ينير العالم الروحي للبشر ﴿وَدَاعِيًا إِلَى اللهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا﴾ (الأحزاب:٤٦). وكما أن الناس يتخذون النجوم التي في السماء علامات يهتدون بها ﴿وَعَلاَمَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ﴾ (النحل:١٦)، كذلك هناك نجوم في السماء الروحية يهتدي بها الناس، منهم صحابة الرسول ﷺ الذي قال عنهم: "أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم". وكما أن هناك حياة مادية وموتا ماديا، فكذلك هناك حياة روحية وموت روحي ﴿اسْتَجِيبُوا للهِ ولِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ﴾ (الأنفال:٢٤). وكذلك هناك أسماع مادية وأسماع روحية، وأعين مادية وأعين روحية، ﴿لَهُمْ قُلُوبٌ لاَّ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَّ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ ءَاذَانٌ لاَّ يَسْمَعُونَ بِهَا﴾ (الأعراف:١٧٩).

وفي الكثير من الأحيان يسرد القرآن المجيد ما يجري في العالم المادي، ثم يخرج بالنتيجة التي تتم أيضا في العالم الروحي. فمثلا يقول القرآن المجيد:

﴿وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيَاحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالاً سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ

فَأَنزَلْنَا بِهِ الْمَآءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ (الأعراف:٥٧)

فإخراج الموتى الماديين لا يتم بإنزال المطر من السماء، ولكن إخراج الموتى من الناحية الروحية هو الذي يتم عن طريق الوحي الإلهي الذي يتنزل من السماء. وكما أن المطر المادي يتسبب في إحياء الأرض وإخراج الثمرات مختلفة الأنواع، كذلك فإن المطر الروحي.. أي الوحي الإلهي.. الذي يتنَزل أيضا من السماء، يتسبب في إحياء أرض القلوب وظهور الثمرات المختلفة من المؤمنين الصالحين.

كذلك في أمور الحفاظة الإلهية للوحي الروحاني، يسوق الله تعالى صورا وأمثلة من أمور الحفاظة الإلهية في العالم المادي الذي هو مرآة للعالم الروحي. فمثلا.. يذكر الله تعالى أنه أوجد مصابيح في السماء الدنيا وجعلها زينة لهذه السماء كما أنه جعلها رجوما للشياطين. يقول تعالى:

﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينَ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ (الْمُلك:٥)

لقد فسر بعض العلماء الأفاضل هذه الآية بالطريقة الوحيدة التي كانت متاحة لهم في عصرهم، وهي أن النجوم التي تزيّن أديم السماء في الليل هي تلك التي ترجم الشياطين التي تحاول التسمع

على الملأ الأعلى في السماء. ذلك لأن الناس كانوا يرون بعض الشهب التي تنير ظلام الليل لبعض لحظات، فكانوا يظنون أن إحدى تلك النجوم التي تزين السماء الدنيا قد سقطت على أحد الشياطين أو الجن الذين يحاولون الصعود إلى السماء والتصنت على الله تعالى. لقد ظلت هذه الأفكار سائدة بين الناس، حتى إن الكثير منا قد سمعها في طفولته، والكثير أيضا لا يزال يؤمن بها. ولعله لا يخطر ببال أحد أن أصغر نجم من النجوم التي نراها بأعيننا وتزين أديم السماء في الليل هي أكبر من حجم الأرض ملايين المرات، بل إن بعض هذه الأجرام التي نراها تبدو كالنجم الصغير.. هي في حقيقة الأمر مجرات تحتوي على الملايين من الشموس التي تفوق في حجمها حجم الشمس التي تنير لنا النهار. وبالتالي فمن المستحيل أن تسقط هذه النجوم لتكون رجوما للشياطين. فما معنى الآية إذن؟

في العالم المادي.. أوجد الله تعالى ذرات الهواء في جو السماء، وهذه الذرات هي بمثابة مصابيح تنير للناس النهار عندما يقع عليها ضوء الشمس.. السراج المنير في سماء العالم، فتُزين منظر السماء بهذه الزرقة الجميلة التي نراها. ولولا هذه الطبقة التي تحتوي على ذرات الهواء لَبَدَا كل شيء أسود اللون، إلا ما وقع عليه ضوء الشمس مباشرة، ولكان منظر كل ما يحيط بنا يبدو كئيبا، ولما سطع ضوء الشمس ولا ظهر فرق في السماء بين الليل والنهار. وفي العالم الروحاني

أوجد الله تعالى العلماء الكرام والصالحين من الأولياء والقديسين، الذين يستمدون النور من الله تعالى الذي هو نور السماوات والأرض، ومن الرسول الكريم الذي هو السراج المنير في سماء الدين. وهؤلاء هم الذين يتوَلون التصدي للشياطين من الناس الذين يُعادون الدين ويهددون الأمن الروحي للناس، فيرجمونهم بالأدلة والبراهين التي تحرقهم وتنير سماء الدين. وفي العالم المادي تكون ذرات الهواء في جو السماء بمثابة الحماية التي تحمي الناس من شر النيازك التي تنقَضّ على الأرض، فتتصدى لها ذرات الهواء في الغلاف الجوي وتحرقها حماية للناس، فتستنير السماء بذلك.

لقد ذكرنا فيما سبق أن لفظ "الشيطان" يمكن أن يُطلق على كل ما هو ضار يتسبب في الأذى أو الضلال، سواء كان ذلك الشيطان صديقا أو عدوا من البشر، أو كان حشرة أو فيروسا أو بكترية ضارة، أو كان رغبة نفسية أو دافعا جسديا، أو كان ظاهرة طبيعية كالحر الشديد أو البرد القارس أو الأشعة الحارقة أو النيازك المدمرة. وكما وضع الله تعالى نظاما للحماية من هذه الشياطين في عالم المادة، كذلك أيضا وضع نظاما للحماية في عالم الدين. وهو سبحانه يستخدم نظام الحماية في العالم المادي المشاهد والمحسوس ليدلل به على نظام الحماية في عالم الدين.

ففي سورة الحجر مثلا.. يذكر الله تعالى الحماية الربانية للسماء الروحية، فيقول:

﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر: ٩)

ثم يذكر نظام الحماية الربانية للسماء المادية فيقول:

﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَآءِ بُرُوجًا وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ ۞ وَحَفِظْنَاهَا مِن كُلِّ شَيْطَانٍ رَّجِيمٍ ۞ إِلاَّ مَنِ اسْتَرَقَ السَّمْعَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ مُّبِينٌ ۞ وَالأَرْضَ مَدَدْنَاهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ﴾ (الحجر:١٦)

أي أنه سبحانه جعل في السماء المادية نظاما للحفاظ عليها، وكذلك جعل في الأرض نظاما للحفاظ عليها بأن ألقى فيها رواسي وأنبت فيها من كل شيء موزون. وكما أنه سبحانه قد جعل في السماء المادية بروجا ونجوما تحافظ عليها بما أودعه الله فيها من قوى مغنطيسية وقوى أخرى قد لا يعرفها الإنسان، كذلك جعل الله سبحانه في السماء الروحية بروجا ونجوما للحفاظ على الوحي الإلهي بما أودعه الله في هؤلاء.. سواء كانوا من الأنبياء أو الأصفياء.. من فطرة الله التي فطر الناس عليها، والتي حافظ عليها هؤلاء من خلال التزامهم باتباع الوحي الإلهي.

وكما أن البروج والنجوم المادية لا تخضع للنفوذ الضار عليها من الإنسان، بمعنى أنه لا يستطيع أن يتدخل في منع هذه النجوم من هداية الناس، فكذلك الحال مع النجوم الروحية، إذ لا يخضع هؤلاء العباد الصالحين للنفوذ الضار عليهم من الشياطين، فلا ينجح هؤلاء الشياطين في منع الأنبياء والأصفياء من هداية الناس، ولهذا يقول تعالى عنهم في نفس السورة:

﴿إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ إِلاَّ مَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْغَاوِينَ﴾ (الحجر: ٤٢)

وكما أن أحدا لا يستطيع أن يمنع فضل السماء من التنَزّل على الناس.. أي لا يستطيع أحد أن يحجب عنهم نور الشمس ولا أن يمنع عنهم سقوط المطر أو استنشاق الهواء الذي تقوم به الحياة، فكذلك لا يستطيع أحد أن يمنع نزول الوحي من السماء، ولا أن يحجب عن الناس نور الهداية ولا أن يمنع عنهم كلام الله تعالى الذي تقوم به الحياة الروحانية. غير أن فضل السماء حينما يصل إلى الأرض.. حيث يوجد الإنسان.. فإنه يتعرض لتأثير الإنسان، إذ يستطيع الإنسان أن يحجب عن نفسه نور الشمس، أو أن يلوث الهواء المحيط به، أو أن يلوث مياه الأنهار والبحار التي هي من أمطار السماء. وكذلك الحال في العالم الروحي.. فإن كلام الله تعالى ووحيه لا يزال محفوظا من نفوذ الإنسان وتأثيره عليه طالما كان في السماء، فإذا نزل إلى الناس.. أخذ الشياطين منهم يعملون على تلويثه وتحريفه. وبطبيعة الحال تختلف طرق التلويث حسب أنواع الشياطين. فالكفار من الشياطين يحاولون تغيير الحقائق وتحريف الوحي الإلهي وصرف الناس عنه، وهؤلاء الشياطين يتصدى لهم شهاب مبين. والشهاب المبين في هذه الحالة هو الرسول الذي يتنَزل عليه الوحي الإلهي، لأن مهمته هي البلاغ المبين والتصدي لادعاءات شياطين الكفر ودحض أكاذيبهم التي يشيعونها عن الوحي الإلهي بعد أن يستمعوا إليه.. أو يسترقوا السمع إليه.. كما كان يحدث

في زمن الرسول ﷺ حينما كان يذهب الأخنس بن شُرَيْق وعمرو بن هشام والوليد بن المغيرة ليتسمّعوا على الوحي القرآني، ثم يتعاهدون فيما بينهم على إشاعة الأكاذيب عنه.

وأما النوع الآخر من الشياطين الذين يحاولون الإساءة إلى الدين.. فهم المنافقون الذين يتظاهرون بالإيمان، ولكنهم متمردون يحاولون التجسس على المسلمين وعلى قيادتهم. وهؤلاء أشار إليهم القرآن المجيد في سورة الصافات حيث يقول تعالى:

﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَآءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ ۞ لاَّ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۞ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ۞ فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَم مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لاَّزِبٍ﴾ (الصافات:٦-١١)

فهؤلاء الشياطين المردة.. أي المتمردون.. هم من المنافقين الذين يعيشون في وسط مجتمع المسلمين، ويحاولون التسمع والتجسس على المسلمين وعلى قيادتهم التي أُشير إليها بتعبير "الملأ الأعلى"، فيتصدى لهم صحابة الرسول ﷺ الذين هم بمثابة النجوم والكواكب التي تزين سماء الدين، ولذلك فإن المنافقين يُقذفون من كل جانب، لأن المسلمين يحيطون بهم من كل جانب. ويقرر القرآن المجيد أن هؤلاء.. رغم الخطر الذي يمثلونه.. إلا أن نصيبهم الدحر والفشل في

مقصدهم، بالإضافة إلى العذاب الواصب.. أي المستمر.. الذي ينتظرهم.

ومن خصائص القرآن المجيد أن آياته تحتمل أكثر من معنى، وتحمل أكثر من مقصد، بغير أن يكون هناك تعارض أو اختلاف بين المعاني المتعددة والمقاصد المتنوعة. وحينما ننظر إلى هذه الآيات الكريمة من هذا المنطلق.. يمكن أن يكون المقصود بالشياطين المتمردة هم اليهود الذين اتبعوا أسلوب إبليس في التمرد على آدم ؑ، فرفض أن يؤمن به مدّعيا أنه أفضل منه. وكذلك ظن اليهود أنهم شعب الله المختار، وأنهم أفضل من بني إسماعيل، فرفضوا الإيمان بالرسول ﷺ. ورغم أنهم دخلوا في تحالف معه.. إلا أنهم خانوا العهود وتمردوا عليه، فكان أن قذفهم المسلمون من كل جانب، ولم يهزموهم فحسب بل دحروهم.. أي هزموهم وطردوهم من المدينة. ولا يخفَى أن هؤلاء اليهود كانوا أيضا يحاولون التسمع على المسلمين وعلى قيادتهم، كما كانوا يحاولون أن يشيعوا البلبلة بين المسلمين بانتقاء بعض الآيات والاعتراض عليها والعمل على تحريف معانيها، والتظاهر بقبول الإسلام في أول النهار ثم الخروج منه في آخره. وكثيرا ما كان الرسول ﷺ يتصدى لهؤلاء ويتنَزل الوحي لتفنيد ادعاءاتهم.

ولعلنا نجد في هذه الآيات الكريمة القول الفصل الذي يبدد فكرة شياطين الجن الشبحي الذي يختلف في نوعية خلقه عن نوعية خلق الإنسان. إذ يقول تعالى:

﴿فَاسْتَفْتِهِمْ أَهُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمْ مَّنْ خَلَقْنَآ إِنَّا خَلَقْنَاهُمْ مِّنْ طِينٍ لاَّزِبٍ﴾ (الصافات:١١)

أي فاسأل هؤلاء الشياطين المردة.. أهم أشد خلقا أم من خلقنا من الملائكة الذين يتنزّلون بالوحي ويتولون حفاظته إلى أن يُبَلغ إلى رسول الله، دون أن يستطيع الشياطين أن يصيبوا شيئا منه؟ ثم يجيب سبحانه على السؤال فيقول إنهم مخلوقون من طين لازب، أي من طين جاف متصلب، مشيرا إلى طبيعتهم المتصلبة بسبب الجفاف الروحي الذي حل بهم نتيجة ابتعادهم عن ماء الوحي السماوي. وهذا يتفق مع الطبيعة النارية لإبليس المتمرد على أمر الله تعالى، والذي ظن في نفسه أنه خير من مبعوث الله تعالى.

ويتبين من هذا.. أنه حتى ولو كان هؤلاء الشياطين المردة هم من الجن الشبحي الذي يتصور الناس وجوده، فإنهم مخلوقون أيضا من طين، شأنهم في ذلك شأن البشر الذين خلقهم الله من طين. ويدل ذلك بالضرورة على أن موضوع خلق الجن من النار لا يؤخذ بحرفيته، وإنما هو يماثل موضوع خلق الإنسان من عجل. فالتعبير الأول يعني أن طبيعة هؤلاء هي التمرد وعدم الانصباب في قالب معين.. ولا يعني أنهم خُلقوا من مادة النار، والتعبير الثاني يعني أن طبيعة هؤلاء هي التعجل في الأمور واستعجال الحصول على النتائج.. ولا يعني أنهم خُلقوا من مادة العجل.

ولعل البعض يعترض علينا هنا فيقول إن الضمير في كلمة ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ لا يعود إلى الشياطين

المردة، وإنما يعود إلى قوم الرسول ﷺ من مشركي مكة، فهؤلاء كانوا من البشر الذي خلقه الله تعالى من الطين اللازب، وبالتالي فالشياطين المردة ليسوا مخلوقين من الطين.

ونحن نسأل.. من الذي خصص الضمير في فعل ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ ليعود إلى مشركي مكة وحدهم دون غيرهم؟ إننا نرجو من هؤلاء المعترضين أن يتفضلوا بإعادة قراءة الآيات الكريمة المذكورة عاليه من سورة الصافات، أو فليقرأوا السورة من أولها ثم يتفكرون فيمن هم الذين تعود إليهم الضمائر في قوله: ﴿لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلى الْمَلإِ الأَعْلَى﴾؟ وفي قوله: ﴿وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ﴾؟ وفي قوله: ﴿وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ﴾؟ وفي قوله: ﴿فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾؟ ثم عليهم أن يقرروا بعد ذلك إلى من يعود ضمير الجمع في قوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾. ولا شك أنهم سيرون أنه يعود إلى نفس ما تعود إليه الضمائر في الآيات السابقة.. أي إلى الشياطين الذين يحاولون التسمع على الملأ الأعلى.

وحتى إذا سلمنا جدلا بأن ضمير الجمع في قوله: ﴿فَاسْتَفْتِهِمْ﴾ يعود إلى قوم الرسول ﷺ، أي فاسأل قومك الذين يُعارضونك ويكذبونك.. أهم أشد خلقا أم من خلقنا.. أليس الجن هم أيضا من قوم الرسول ﷺ؟ ألم يبعثه الله تعالى إلى الإنس والجن كافة؟ أيًّا كانت الزاوية التي ننظر منها إلى هذه الآيات الكريمة.. فإنه لا مفر لنا من القول بأن قوم الرسول ﷺ قد خُلقوا من طين لازب، سواء كانوا من البشر أو من الجن، مما يشير إلى أن خلقهم من الطين اللازب الجاف لا يعني أنهم

قد خُلقوا من مادة الطين الجاف، وإنما يعني أن طبيعتهم قد صارت مثل الطين الجاف الذي لا يصلح لنمو النبت والأشجار، ولا تخرج فيه الزروع والثمار، إلا إذا استقبل ماء السماء فتهتز له أرض القلوب.

* * *

والآن.. لقد آن الوقت أن نتناول آيات سورة الجن التي تقول بعد البسملة:

﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا (١) يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكَ بِعِبَادَةِ رَبِّنَآ أَحَدًا (٢) وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا (٣) وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا (٤) وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالْجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا (٥) وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا (٦) وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا (٧) وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا (٨) وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا (٩) وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا (١٠) وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا (١١) وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا (١٢) وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا (١٣) وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ

تَحَرَّوْا رَشَدًا (١٤) وَأَمَّا الْقَاسِطُونَ فَكَانُوا لِجَهَنَّمَ حَطَبًا (١٥) وَأَلَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَّآءً غَدَقًا (١٦) لِّنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَن يُعْرِضْ عَن ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَابًا صَعَدًا (١٧) وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ للهِ فَلاَ تَدْعُواْ مَعَ اللهِ أَحَدًا...﴾ (الجن: ١-١٨)

هذه هي الآيات الأولى من سورة الجن.. التي يعتمد عليها القائلون بوجود الجن الشبحي. فما أن يُذكر موضوع الجن إلا وتسمع الجملة المعتادة التي يكررها الجميع تقريبا: نعم.. الجن مذكور في القرآن، وفيه سورة الجن التي تُبين أن منهم الجن المسلمين وغير المسلمين.

ولا شك أن الجن مذكور في القرآن، ولكن لم يقل القرآن أبدا إن ذلك الجن هو الجن الشبحي الأسطوري الذي يتصور وجوده العامة من الناس. وسوف نتناول كل آية تتعلق بالجن في هذه السورة بالتعليق، حتى يتبين الأمر بغير غموض ولا التباس.

١- يقول تعالى في الآية الأولى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ الْجِنِّ فَقَالُوا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا﴾

ولو كان هؤلاء الذين استمعوا للقرآن من ذلك الجن الشبحي، فلماذا لم يستمع بقية الجن للقرآن، وهم الذين.. حسب ظن البعض.. يستطيعون أن ينتقلوا من فلسطين إلى اليمن لسرقة عرش الملكة بلقيس ونقله إلى فلسطين في لمح البصر؟ كيف يستطيع هؤلاء.. كما هو في ظن

البعض.. أن يتسمّعوا على السماء.. التي تبعد عن الأرض بمسافة لا تقل عن ١٥ مليار سنة ضوئية، بينما لا يستطيعون سماع القرآن الذي يُتلى في الأرض، التي تُعد في حجمها بالنسبة لحجم الكون (المعروف) أصغر من حجم الذَرّة بالنسبة لحجم الكرة الأرضية كلها؟

لو كان الأمر كما يظن عامة الناس عن الجن لكان الأوْلى بالقرآن أن يقول: "قل أوحي إليّ أنه استمع الجن فقال نفر منهم إنا سمعنا قرآنا عجبا". فالآية الأولى وحدها تنسف تلك الفكرة الخاطئة الشائعة في أذهان العامة من الناس عن القدرات الخيالية التي ينسبها العامة لمن يعتبرونه من الجن العاقل المكلف بعبادة الله تعالى، فهي تقرر أن نفرا فقط من هؤلاء هم الذين استمعوا، بينما لم يستطع غيرهم ذلك.

٢- يقول تعالى في الآية الثانية: ﴿يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ وَلَن نُّشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّنَآ أَحَدًا﴾

إن من يستطيع التعرّف على الرشد لا بد أن يكون هو على شيء من الرشد. وتدل هذه الآية على أن هؤلاء القوم كانوا من أهل الكتاب الصالحين، ولم يكن من الصعب عليهم حين استمعوا إلى آيات القرآن المجيد أن يدركوا أنه يهدي إلى الرشد فآمنوا به، تماما كما فعل النجاشي ملك الحبشة في زمن الرسول ﷺ. ولا يعني قولهم إنهم لن يُشركوا بعبادة ربهم أحدا أنهم كانوا قبل ذلك مشركين، وإنما يعني أنهم يعلمون أن هناك من يشرك في عبادة الله، ولكنهم هم كانوا من الموحدين

المخلصين، فلما وجدوا أن القرآن المجيد يدعو أيضا إلى التوحيد، زاد ذلك من إيمانهم وعزمهم على أن لا يشركوا بعبادة ربهم أحدا.

٣- يقول تعالى في الآية الثالثة: ﴿وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَدًا﴾

من المعروف أن عقيدة اتخاذ الصاحبة والولد هي وقف على بعض الفرق المسيحية، فكيف كان مِن بين الجن مَن يؤمن بالعقائد المسيحية بينما لم يُرسل إلى الجن.. حسب الفهم الشائع بين الناس.. سوى آدم عليه السلام وسيدنا رسول الله ﷺ فقط؟ رغم أن هناك بعض الأحاديث التي تنفي إرسال أحد إلى الجن سوى خاتم النبيين وحده. إن هذه الآية تدل بوضوح على أن هؤلاء القوم كانوا من النصارى، ولكن لم يفطن أحد لمهمتهم حين جاءوا إلى مكة، ولذلك وصفهم القرآن بلفظ الجن.

٤- يقول تعالى في الآية الرابعة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ يَقُولُ سَفِيهُنَا عَلَى اللهِ شَطَطًا﴾

هذه الآية تدل على أن بين هؤلاء الجن قوما سفهاء كانوا يقولون على الله شططا. والسؤال الذي يثور هنا هو: لماذا قال الله تعالى عند تغيير القِبلة: ﴿سَيَقُولُ السُّفَهَآءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلاَّهُمْ عَنْ قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا﴾ (البقرة:١٤٢)؟ لماذا حصر الله لفظ السفهاء في الناس؟ هل امتنع السفهاء من الجن الكافر عن التعليق على أمر تغيير القبلة، أم أن القرآن يريد أن يقول إن أحدا

من الخلق لا يتصرف بسفاهة إلا إذا كان من الناس؟ وعلى ذلك فإن كلمة ﴿سَفِيهُنَا﴾ في الآية تشير إلى أن هؤلاء الذين كانوا يقولون على الله شططا كانوا من الناس.. أي من البشر.

٥- يقول تعالى في الآية الخامسة: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّا أَن لَّن تَقُولَ الإِنسُ وَالجِنُّ عَلَى اللهِ كَذِبًا﴾

لو كان هؤلاء من الجن الذين خُلقوا قبل خلق آدم عليه السلام، فكيف ساورهم الظن بأن الإنس والجن لن يكذبوا على الله تعالى؟ لا بد أنهم كانوا يعيشون في عالم آخر غير هذا الكون لكي يساورهم مثل هذا الظن، إلا إذا كانت هذه الآية تعني أن هؤلاء كانوا قوما صالحين من النصارى الذين كانوا يؤمنون بالله الواحد الأحد، كما كان النجاشي ملك الحبشة على ذلك الإيمان، وكما كانت بعض فِرَق النصارى الذين مدحهم القرآن وأثنى على إيمانهم في قوله تعالى:

﴿لَيْسُواْ سَوَآءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَاتِ اللهِ ءَانَآءَ الَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ۞ يُؤْمِنُونَ بِاللهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:١١٣)

فهؤلاء الذين كانوا من القوم الصالحين كانوا يتحدثون عن أقوامهم.. بما فيهم عامة الناس (أي الإنس) والقادة منهم (أي الجن) فيقولون إنهم كانوا متيقنين (فالظن هنا بمعنى اليقين) من أنهم على الحق في إيمانهم، وأن قومهم وقادتهم الدينين لم يكذبوا عليهم فيما لقنوهم من توحيد الله تعالى الذي

أيده القرآن الكريم.. الذي استمعوا إليه وآمنوا به.

٦- يقول تعالى في الآية السادسة: ﴿وَأَنَّهُ كَانَ رِجَالٌ مِّنَ الإِنسِ يَعُوذُونَ بِرِجَالٍ مِّنَ الْجِنِّ فَزَادُوهُمْ رَهَقًا﴾

إن كلمة "رجال" لا تستخدم إلا للبشر. وقد ذكر القرآن كلمة "رجل" في صيغة المفرد ٢٤ مرة، وفي صيغة المثنى خمس مرات، وفي صيغة الجمع ٢٤ مرة بالإضافة إلى المرتين في الآية التي نحن بصددها، وكلمة رجالكم مرتين، وفي جميع هذه المواضع لا تعني كلمة رجل سوى إنسانا من البشر. ويقول تعالى:

﴿يَآ أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّنْ نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيرًا وَنِسَآءً﴾ (النساء: ١)

فالرجال والنساء إذن من البشر، ولو كان هناك رجال من غير البشر لاستلزم الأمر التوضيح وتعريف جنس هؤلاء الرجال، ولاقتضى المقام أن يقال: وبث منهما رجالا من البشر كثيرا ونساء. كذلك في قوله تعالى:

﴿وَقَالُوا لَوْلاَ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكًا لَّقُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لاَ يُنظَرُونَ ۞ وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكًا لَّجَعَلْنَاهُ رَجُلاً وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِم مَّا يَلْبِسُونَ﴾ (الأنعام:٨)

كان المشركون من أهل مكة يظنون أن الجن هو الذي يأتي بالوحي إلى النبي ﷺ، وكانوا يريدون أن يروا بأعينهم الملَك الذي يأتيه حتى يُصدقوا أنه بالفعل من عند الله تعالى. فيرد الله عليهم بأنهم لو رأوا الملائكة فسيكون ذلك عند نزول العذاب عليهم، ولقُضيَ الأمر حينئذ.. كما حدث في غزوة بدر. وحتى لو أنزل الله تعالى ملَكا فإنه سبحانه سيجعله يبدو في صورة رجل، وسوف يرونه رجلا فيظل الأمر ملتبسا عليهم. فلو كانت كلمة "رجل" يمكن أن تعني مخلوقا من غير البشر، فكيف يستطيع المشركون أن يرونه؟ مرة أخرى نقول إنه لو كانت كلمة "رجل" يمكن أن تعني رجلا من البشر أو رجلا من الجن، لاقتضى الأمر التوضيح في الآية، وكان من الضروري أن يقال: لجعلناه رجلا من البشر أو لجعلناه رجلا من الجن. وعدم التحديد هنا يعني أنه لا يوجد سوى نوع واحد من الرجال وهم البشر.

على هذا يكون معنى الآية التي نحن بصددها من سورة الجن هو أن رجالا من عامة الناس (أي الإنس) كانوا يبتغون الحماية من القادة (أي الجن) مما زاد هؤلاء القادة كبرا وغطرسة. أو أن رجالا من عامة الناس كانوا يبتغون الهداية الدينية من كهنة الدين الضالين، ظنا منهم أن في اتباع سادتهم وكبرائهم حماية لهم من الضلال، فكانت النتيجة أن ازداد الذين اتَّبَعوا.. ضلالا، وازداد الذين اتُّبِعوا.. كبرا.

٧- يقول تعالى في الآية السابعة: ﴿وَأَنَّهُمْ ظَنُّوا كَمَا ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَبْعَثَ اللهُ أَحَدًا﴾

أي أن أولئك القادة الدّينيين الضالين ظنوا أن الله تعالى لن يبعث أحدا، وهذا ما يحدث دائما بعدما ينتقل النبي المرسل إلى رحاب الله تعالى، فيظن الناس أن الله تعالى لن يبعث بعده نبيا أبدا، وفي هذا يقول الكتاب العزيز:

﴿وَلَقَدْ جَآءَكُمْ يُوسُفُ مِن قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكٍّ مِّمَّا جَآءَكُمْ بِهِ حَتَّى إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللهُ مِن بَعْدِهِ رَسُولاً كَذَلِكَ يُضِلُّ اللهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُّرْتَابٌ﴾ (غافر: ٣٤)

٨- يقول تعالى في الآية الثامنة: ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَآءَ فَوَجَدْنَاهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾

٩- ويقول تعالى في الآية التاسعة: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَاعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ الآنَ يَجِدْ لَهُ شِهَابًا رَّصَدًا﴾

أيّ سماء هذه التي كانوا يلمسونها هؤلاء النفر الذين استمعوا للقرآن فآمنوا به؟ هل هي إحدى السماوات المادية التي سبق أن عددناها، أم أنها سماء مجازية؟ لقد ذكرنا فيما سبق أن القرآن المجيد يذكر أمورا مادية ولكنه لا يقصد هذه الأشياء المادية بعينها، وإنما يقصد بها أمورا مجازية. فمثلا يقول تعالى:

﴿فَإِنَّهَا لاَ تَعْمَى الأَبْصَارُ وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾ (الحج: ٤٦)

فهل يحق لبعض الجهلاء أن يعترضوا هنا على القرآن المجيد قائلين إننا نرى أن الأبصار هي التي تعمى بينما ينفي القرآن عنها العماية، وأن القلوب التي في الصدور تتولى ضخ الدم وليس لها عيون ليصيبها العمى؟ أم نقول إن المقصود بالأبصار ليست هي الأبصار المادية، وإن المراد بالقلوب ليست هي القلوب المادية؟

كذلك الحال في لمس السماء.. فليس المقصود بها السماء المادية، وكل ما ذُكر في الآية الثامنة والتاسعة هو من قُبيل المجاز. فما هو المعنى المراد من هاتين الآيتين؟

إن اللمس هو أحد الحواس الخمس التي تُعتبر وسائل اكتساب المعرفة. وبالتالي فمن الممكن أن نفهم هاتين الآيتين على أن هؤلاء النفر كانوا قد اكتسبوا المعرفة بدراسة الدين (أي لمسوا سماء الدين)، ووجدوا أن الدين مليء بالأسرار أو الغيبيات التي يصعب فهم مدلولها (أي الحرس الشديد)، كما وجدوا أيضا قبسات من نور الهداية التي تنير لهم الطريق (أي الشهب). وأنهم كانوا يقعدون للدراسة في مقاعد يستمعون فيها لما يُتلى عليهم من قادتهم الدينيين، وأما الآن.. بعد نزول القرآن.. فإن من يلتمس منه الهداية فسوف يجد له نورا خاصا به (فمن يستمع الآن يجد له شهابا رصدا).

ولأن هؤلاء كانوا على دراية بدين المسيح ﷺ فقد استطاعوا أن يدركوا صدق القرآن،

ويعلموا أنه يهدي إلى الرشد فآمنوا به. ويبدو أن هؤلاء كانوا من بعض الفرق المسيحية المَوَحّدة، ولعلهم كانوا ينتمون إلى إحدى الفرق الصغيرة التي كانت تعاني من الاضطهاد الشديد من الأغلبية المسيحية الرومانية التي تؤمن بالتثليث، مما دفعهم إلى الانعزال عن مجتمعاتهم، مع تمسكهم الشديد بمعتقدهم وحرصهم على دراسة الأمور الدينية.

١٠- يقول تعالى في الآية العاشرة: ﴿وَأَنَّا لاَ نَدْرِي أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي الأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾

تدل هذه الآية على أن هؤلاء القوم كانوا قد آمنوا في بداية زمن الدعوة الإسلامية، ورغم أنهم قبلوا الدعوة وآمنوا بها، إلا أنهم لم يكونوا على يقين بعد من أن الله تعالى سوف يدمّر الكافرين والمشركين من أهل مكة أم أنه سوف يهديهم إلى الإيمان والرشاد.

١١- يقول تعالى في الآية الحادية عشرة: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَآئِقَ قِدَدًا﴾

يتحدث القوم هنا عن الفِرَق والمذاهب الكثيرة التي انقسمت إليها الجماعة المؤمنة الأولى التي أنشأها المسيح ﷺ، وهنا يظهر قدر تواضع هؤلاء الناس وطبيعتهم الطيبة، فهم يقولون إنّ منا الصالحون، ولم يقولوا إنا نحن الصالحون.. أي أنهم كانوا يتبعون المبدأ القرآني الذي يقول:

﴿فَلاَ تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى﴾ (النجم:٣٢)

كذلك فإنهم لا يصمون غيرهم بالكفر ولا يتهمونهم بالفسوق والفساد، وإنما يقولون عنهم إنهم دون الصالحين، وهم على أية حال مذاهب وطرق مختلفة ومنقسمة.

١٢- يقول تعالى في الآية الثانية عشرة: ﴿وَأَنَّا ظَنَنَّآ أَن لَّن نُّعْجِزَ اللهَ فِي الأَرْضِ وَلَن نُّعْجِزَهُ هَرَبًا﴾

لو أن هؤلاء القوم كانوا من الجن الشبحي الذي يتخيله العامة من الناس، فلماذا يقولون إنهم ظنوا أنهم لن يُعجزوا الله في الأرض؟ إذا كانوا بالفعل يستطيعون الصعود إلى السماء (إذا كان هناك سماء بالمعنى الشائع) ويلمسونها بأيديهم، بل ولهم فيها مقاعد يقعدون فيها للسمع.. كما تصور بعض الناس ممن كانوا يعيشون في العصور الوسطى، فلماذا يقصرون أمرهم على الأرض فقط؟ ولماذا لم يقولوا: أنّا لن نعجز الله في الكون أو في السماوات هربا؟

لقد كان هؤلاء قوم مؤمنون، يعيشون في الأرض مثل بقية الناس، وليس لهم أيّة قدرات تفوق ما لغيرهم من الناس، سوى قوة الإيمان التي منحتهم اليقين بأنهم دائما تحت سلطان الله تعالى، وأنه لا مهرب ولا ملجأ منه إلا إليه.

١٣- يقول تعالى في الآية الثالثة عشر: ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَى ءَامَنَّا بِهِ فَمَن يُؤْمِن بِرَبِّهِ فَلاَ يَخَافُ بَخْسًا وَلاَ رَهَقًا﴾

كان من الطبيعي لهؤلاء الذين يتمسكون بأهداب الإيمان رغم ظهور الفساد في البر والبحر أن يُخضعوا أنفسهم لحكم الله تعالى، فما أن سمعوا هُدى ربهم حتى أسلموا وآمنوا. وإيمانهم هذا يدل على أمور ثلاثة:

أ- إن إيمانهم السابق قبل سماعهم الهدى كان إيمانا صادقا. فكثيرا ما يحدث عندما يتنَزّل الهدى الإلهي الذي يأتي به المبعوث السماوي أن يرفضه الناس ويعارضه رجال الدين، كما حدث في زمن المسيح بن مريم عليه السلام، مما يدل على أن إيمان هؤلاء لم يكن إيمانا صحيحا صادقا، بل كان اتباعا أعمى لتراث بال، وتمسكا بالمظهر دون الجوهر.

ب- إن إيمانهم السابق يمنحهم نقاءً في الفطرة ووضوحا في الرؤية وسلامة في البصيرة، مما يساعدهم على معرفة الحق عندما يُعرض عليهم، ويمكّنهم من التعرف على الهدى إذا سمعوه. فكثيرا ما يرفض الناس قبول الهدى السماوي زاعمين أنهم يتبعون الدين الصحيح، بينما هم في الحقيقة أبعد ما يكونوا عن تعاليم دينهم وسُنة نبيهم، تماما كما زعم أهل مكة أنهم يتبعون ملة إبراهيم ورفضوا قبول ما جاء به الرسول الكريم.

ج- إن إيمانهم السابق يكسبهم قوة وعزما على قبول الحق واتباعه، مهما كان في ذلك من عقبات، ومهما أحاط بهم من مخاطر. فكثيرا ما يرى الناس الحق.. ولكنهم يرفضون اتباع الهدى

خوف أن يهزأ الناس بهم، أو خشية التعرض للاضطهاد، أو لعدم القدرة على مواجهة الأغلبية من الناس والأهل والأصدقاء.

ولكل ما سبق.. تكون النتيجة الطبيعة لصدق الإيمان هي: فمن يؤمن بربّه فلا يخاف بخسا ولا رهقا.

١٤- يقول تعالى في الآية الرابعة عشر: ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ فَمَنْ أَسْلَمَ فَأُولَئِكَ تَحَرَّوْا رَشَدًا﴾

الإسلام هنا يمكن أن يكون بمعنى الخضوع والتسليم لأمر الله تعالى، وهذا التسليم يكون نتيجة للإيمان الصادق الذي لا تشوبه شوائب الخرافات والأساطير. كذلك يمكن أن يكون الإسلام هنا بمعنى اتباع الدين الذي جاء به سيدنا رسول الله، حيث إن هؤلاء النفر قد سمعوا القرآن وآمنوا به. وأما القاسطون فأولئك هم الذين تجنبوا الحق وانحرفوا عن العدل.

وإلى هنا ينتهي الحديث الذي أوْحى الله تعالى به إلى نبيه على لسان هؤلاء القوم. وما جاء بعد هذه الكلمات هو من الله تعالى وليس من أولئك النفر الكريم، وقد ذكرناه ليطلع عليه القارئ ويعلم أننا لم نتجنب ذكر شيء ولم نحاول أن نتفادى التعرض لأية قضية من القضايا المتعلقة بالجن.

من جميع ما سبق ذكره في هذا الفصل نستخلص ما يلي:

أولا: ليس هناك وجود مادي لسماء تُعد مقرا لله تعالى وملائكته، فإن الله والملائكة ليسوا بذوات مادية تتطلب مكانا ماديا. وكل ما ذكر في هذا الشأن يجب أن يُفهم على أنه مجاز ولا يؤخذ بمعناه الحرفي.

ثانيا: إن فكرة انتقال الجن والشياطين الشبحية.. التي يتصور العامة من الناس وجودها.. إلى سماء يتخيلون أيضا وجودها.. للتلصص والتسمع على ما يقوله الله تعالى للملائكة، هي فكرة ساقطة.. تليق بالعقول المتخلفة التي لا تُقَدّر الله حق قدره.. ولا تليق بالعقول الواعية المؤمنة.

ثالثا: لعل مثل هذه الأفكار كانت مقبولة في زمن كان يتصوّر الناس فيه وجود سماء تحيط بهذا الكون.. يمكن للإنسان أن يتسلق إليها، كما تصوّر فرعون. أما أن ينتقل الجن والشياطين عبر مسافة تستغرق من الضوء ١٥ مليار سنة ليقطعها، فهي فكرة ساذجة تليق بكتب الأقاصيص والخيال غير العلمي، ولا تليق بكتاب الله عز وجل.

رابعا: إن فكرة التلصص على "الملأ الأعلى"، باعتبار أن المقصود بهذا التعبير هو الله تعالى والملائكة، لهي فكرة تحط من شأن الله تعالى. فهي تتضمن عدم علم الله تعالى بما يجري في نفوس الجن والشياطين من عزم على التلصص، وبالتالي عدم قدرته على إيقافهم ومنعهم وهم في الأرض، فوضع في السماء التي يسكنها مع الملائكة حرسا شديدا وشهبا ليمنع الشياطين من التلصص،

تماما كما يفعل الملك من البشر الذي يسكن في قلعة محصنة لتحميه من شر أعدائه. تعالى الله عما يصفون.

خامسا: إن هذه الأفكار المتهافتة تزعم أنه مع كل هذا النظام الدفاعي الذي وضعه الله تعالى لحراسة السماء، فإن البعض من الجن يستطيع رغم ذلك أن يلتقط بعض الأنباء 'ويوحون بها إلى أوليائهم ليجادلوكم'، وكأن هذا النظام الدفاعي يفشل في بعض الأحيان لحماية السماء. ألا إنهم ليقولون منكرا من القول وزورا.

سادسا: يُقال إن من ينجح من الجن والشياطين في اختطاف بعض الأنباء من تسَمُّعه على السماء فإن الله تعالى يرسل عليهم شهبا لتحرقهم. ومن المعروف الآن أن الشهب هي نيازك لا ضوء لها، ولكنها تتحول إلى شهب مضيئة حين تدخل المجال الجوي للأرض، فترجمها ذرات الهواء وترتفع درجة حرارتها نتيجة للاحتكاك، فتشتعل لتُكَوّن الشهب التي تضيء السماء. والسؤال الذي يثور هنا ويدل على سخافة هذه الفكرة وسذاجتها هو: لماذا لا تصيب هذه الشهب أو النيازك الجن والشياطين حين يصلون إلى السماء.. بافتراض وجود سماء مادية يقيم فيها الله تعالى مع الملائكة؟ ولماذا تنتظر هذه النيازك حتى تعود الجن والشياطين إلى الأرض قاطعة مسافة يستغرق الضوء في اجتيازها ١٥ مليار سنة، فتحرقهم بعد دخولهم في المجال الهوائي للأرض الذي

لا يتجاوز سمكه ثلاثمائة ميل فقط.

سابعا: إن أقصى سرعة للنيازك التي أمكن تسجيلها حتى الآن هو ١٤٠٠ ميل في الثانية خارج المجال الجوي للأرض. فإذا افترضنا أن الجن والشياطين تتحرك بسرعة الضوء التي تبلغ ١٨٦٠٠٠ ميل في الثانية، فكيف تصلح تلك الشهب والنيازك أن تكون رجوما لهذه الشياطين، بينما تزيد سرعة الشياطين عن سرعة الشهب بمقدار مائة أربعة وثمانين ألف وستمائة (١٨٤ر٦٠٠) ميل في الثانية؟ فإذا علمنا أنه يُنسب إلى الجن والشياطين أنها تنتقل من الأرض إلى السماء في لمح البصر، فما قيمة الشهب إذن لتكون ضمن النظام الدفاعي عن السماء؟

ثامنا: عجيب حقا أمر هؤلاء الجن والشياطين الأغبياء الذين يضطرون لاجتياز هذه المسافة الشاسعة لكي يتسمعوا على حديث الله تعالى مع ملائكته، ثم يتعرضون للحريق بواسطة الشهب، مع أنهم مخلوقون من نار! ولماذا لم يتعلموا من الجنس البشري أن هناك وسائل تستخدمها الكثير من الحكومات للتسمّع والتصنّت على أعدائهم سواء كان هؤلاء الأعداء من مواطنيهم أو من مواطني دولة أخرى؟

تاسعا: لماذا لا يوحي الله تعالى إلى ملائكته بما يريده، فلا يسمع كلامه أحد؟ إن الوحي كان يتنَزل على الرسول ﷺ وهو بين صحابته فلا يسمعون شيئا من الوحي حتى تنطق به شفتاه

الكريمتان. فلماذا لم يفعل الله تعالى مع ملائكته ما كان يفعله مع أنبيائه ورسله، بدلا من تعيين الحراس الأشدّاء لحماية السماء وإرسال الشهب لإحراق الجن والشياطين الذين يحاولون التسمع عليه، خاصة وأنه يعلم أن البعض منهم يفلت من كل أنظمة الحراسة ويعود سالما إلى الأرض؟ سبحانه وتعالى عما يصفون!

عاشرا: إن ما يدل على سذاجة هذه التفاسير التي تزعم صعود الجن والشياطين إلى السماء للتسمع على الله وهو يحدّث ملائكته.. هو أن من وضعوا هذه التفاسير، أو اخترعوا الأحاديث التي تقول بهذه الأفكار، كانوا يظنون أن الله تعالى مثل سائر البشر. فهو حين يتحدث يستخدم صوته حتى يسمعه الآخرون، تماما كما يفعل البشر. وهذا يوضح أن هذه الأفكار عن "الإله البشر" لم تكن إسلامية في مصدرها، وإنما تسربت إلى الفكر الإسلامي عن طريق بعض أهل الكتاب الذين يؤمنون بإله يمكن أن يتخذ صورة بشر.. يأتي إلى الدنيا.. فيولد ويعيش ويموت، ثم يقوم من الأموات ويصعد إلى السماء.

هذه عشرة كاملة.. وعلى من يخالفوننا الرأي أن يردوا عليها وينقضوها الواحدة تلو الأخرى. فإن لم يفعلوا فليتقوا الله تعالى ولا ينسبوا إليه صفات بشرية، ولا يعزوا إليه حكمة معيبة ونقصا في القدرة. إننا نهيب بالمؤمنين المخلصين ممن يتمسكون بالتراث، ويعتبرون أنفسهم من السلفيين

الذين يريدون أن يتمسكوا بما كان عليه السلف الصالح.. نهيب بهم أن يراجعوا هذه الأفكار التي لا شك أنها كانت غائبة تماما عن فكر السلف الصالح من السابقين من المؤمنين. وحتى إن كان السلف الصالح من التابعين قد قالوا بها فلهم العذر والمعذرة، فإن ما كانوا يعلمونه عن الأرض والسماء ونظام الكون واتساعه الشاسع كان قاصرا محدودا بغير ذنب منهم. أما اليوم.. فلن يصلح أن نقول كما قال السابقون: ﴿إِنَّا وَجَدْنَآ ءَابَآءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى ءَاثَارِهِمْ مُّقْتَدُونَ﴾ (الزخرف:٢٣).

صحيح أنه من الصعب العسير على الإنسان أن يقتلع من عقله الأفكار الخاطئة التي شبّ عليها وسمعها في مجتمعه وقرأها في كتب التفسير على أنها حقيقة صحيحة. فإذا أضفنا إلى المشكلة موقف رجال الدين، وهم لدى أغلب الناس.. هم العالمون بحقيقة الأمور، وهم الفاهمون لكتاب الله تعالى وأحاديث رسوله الأكرم، وهم العارفون بحقيقة تفسير الآيات الكريمة، فإن المشكلة تتجلى بضخامة حجمها وأبعادها التي تستعصي على الحل.

ومن هنا فإنّا نرى أن على العلماء الكرام واجبا مضاعفا، فهم ورثة الأنبياء كما قال عنهم خاتم الأنبياء.. الأمر الذي يضع على رجال الدين حملا ثقيلا ومسؤولية كبيرة. فالأغلبية العظمى من الناس تتبع أقوالهم، لذلك فمن الأحرى بها أن تكون صحيحة. ونحن لا نُشكك في سعة علم

رجال الدين، ولا نُقلل من عمق معارفهم، غير أننا وهُم يجب أن نعترف بأن موضوع الجن، وما خالطه من خرافات، وما آل إليه حال الناس من تصديق وتمسك بهذه الخرافات، يقتضي منهم.. بل يفرض عليهم.. أن يتخذوا موقفا واضحا وحاسما. فإن كانوا يرون فيما سردناه حقا فعليهم أن يؤيدوه ويذيعوه وينشروه. وإن كانوا يرون فيما سُقناه من آيات وأحاديث ما يُخالف الكتاب العزيز أو يتعارض مع ما ثبت من أحاديث الرسول الكريم، فعليهم أن يبينوه ويوضحوه ويردوا عليه. وليس من الحكمة ولا من المنطق أن يُستدل ببعض الأحاديث التي جاءت في هذا الكتاب أو في ذاك، لمجرد أن فلانا قد رواها أو أن فلانا قد ضمّنها صحيحه، فليس بين الكتب ما هو أصح من كتاب الله، وليس من الأقوال ما هو أصح من قول الله تعالى. ولا يمكن للرسول الصادق الأمين أن يلفظ قولا مخالفا لكتاب الله وآياته.

* * *

وبـعــد..

يتبين من كل ما سبق أن الصورة الأسطورية للجن لا وجود لها في الحقيقة إلا في خيال الناس، فهي ليست في القرآن المجيد ولا في آياته الكريمة، ولا هي في الأحاديث الشريفة وأقوال الرسول العظيم. نعم إن القرآن ذكر الجن.. ولكنه لم يذكر أنهم المخلوقات الأسطورية التي يزعم الأدعياء

وجودها والاتصال بها وتسخيرها في نفع الناس أو الإضرار بهم. ونحن إذ نرفض وجود تلك المخلوقات الأسطورية فإننا لا ننكر القرآن المجيد وآياته، ولا ننكر أحاديث الرسول وأقواله، ولا ننكر وجود الجن، وإنما نفهم تلك الآيات الكريمة التي تحدثت عن الجن بالفهم الذي يليق بكتاب الله الكريم، وينأى به عن الخرافات والشعوذات، كما أننا نفهم أقوال الرسول بالمعنى الذي يليق بعظيم حكمته وبليغ قوله وجليل شأنه، ويسمو بالإسلام عامة على خرافات الإسرائيليات، وخيالات الجهلة والجاهلية.

أما من كان لا يزال مُصِراً على أن الجن خَلق آخر بالصورة الخرافية الشائعة في أذهان الناس.. مُدّعيا أن هذا الإصرار هو نتيجة للخبرة والتجربة، فاننا لا نتحداه ولا نكذبه، بل نرجوه وندعوه باسم الإنسانية كلها.. ندعوه أولا باسم الإسلام إن كان مسلما.. أن يبذل مساعيه الحميدة لدى أصدقائه من الجن المسلمين الصالحين.. وندعوه ثانيا باسم الوطنية والقومية إن كان غير مسلم.. أن يتوسط لنا عند إخوانه من الجن الذين يتفقون معه في الدين، أو من الجن الماديين أو الملحدين.. للمشاركة في دفع ما تعانيه مجتمعاتنا الإسلامية والعربية بل والعالمية من فقر وضعف، فيدلوننا على موارد الثروة المخفية، وأسرار العلوم والتكنولوجيا، وينبئوننا بأخبار أعدائنا، وما يُدبر لنا من أذى، وما يحاك حولنا من مؤامرات.

دعونا من الجن الذي لبس فلانا.. ويطلب ديكا أصفر وشاة قرناء وكبشا أحمر ليخرج من جسد ذلك التعيس. ولينادي أولئك السادة الذين يُسَخّرون الجان، ويتزوجون منهم ويزوجونهم.. فلينادي خبراء الجن على قرنائهم من الجن الذي يزعمون أنه يستطيع أن يأتي إلينا بأسرار المال الضائع والمصاغ المسروق وأماكن الأعمال والأحجبة التي خبأتها الزوجة الغيور أو الحماة الظالمة، وليطلبوا منهم أن يأتوا إلينا بأسرار الأسلحة النووية، والصواريخ عابرة القارات. وليستحضروا لنا أصحابهم من الجن الذي يستطيع أن يمدنا بالمعلومات عن قنابل الليزر وصواريخ التوماهوك. فإن لم يفعلوا.. ولن يفعلوا.. فمن العار علينا أن نصدق وجود هذا الجن الخائب العاجز، الذي لا يسكن إلا في المراحيض والأراضي الخربة، ولكنه لا يستطيع أن يدخل إلى بنوك المعلومات ودهاليز البنتاجون ومكاتب إدارة المخابرات المركزية، بل يدخل فقط في أجساد المرضى بالأمراض النفسية والعصبية والعقلية، ولا يتركها إلا إذا أحضرنا له لبن العصفور. وإن لم نتخلص من هذا العار، فلن نخرج أبدا من حضيض مستودع المفاهيم العفنة الذي تردينا فيه، وسوف تظل دائما هذه المفاهيم الخرافية عن الجن.. من "الأخطاء الشائعة".



تصريح النشر الدولي تحت رقم: **ISBN 0-9684971-3-6**